زهرة عمر

الخروج من «سوسروقة»

رواية الشتات الشركسي

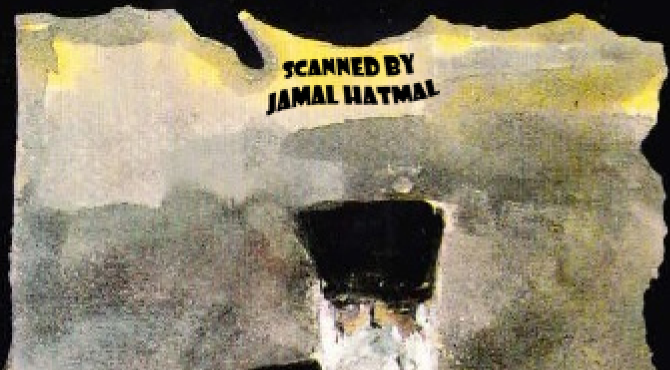
SCANNED BY JAMAL HATMAL

الخروج من «سوسروقة»

ق
زهر زهرة عمر ابشاتسة
الخروج من سوسروقة/زهرة عمر ابشاتسة . ـ عمّان :
دار ازمنة للنشر، ١٩٩٢
(٣٠٨) ص
ر . أ (١٩٩٢/٨/٥٥٧)
١ ـ الرواية العربية أ ـ العنوان
(تمت الفهرسة بمعرفة المكتبة الوطنية)

رقم الاجازة المتسلسل: ١٩٩٢/٨/٤٧٤م

الخروج من «سوسروقة»: زهرة عمر
الطبعة الأولى: ١٩٩٣
جميع الحقوق محفوظة بموجب إتفاق وعقد
أزمنة للنشر والتوزيع
هاتف: ٦٨٢٥٤٤
ص.ب ٩٥٠٢٥٢/ الزمر البريدي 111.95
عمّان ـ الأردن

● مائية الغلاف: نائلة المعاني ● تصميم الغلاف: أزمنة ● خطوط: زهير ابو شايب.
● التنضيد والماكيت: شقير وعكشة ● الطباعة: شركة الشرق الاوسط ● تاريخ الصدور: آذار ١٩٩٣ ●عدد النسخ المطبوعة: ١٠٠٠نسخة ● ثمن النسخة: ٤ د. أ.

زهرة عمر

الخروج من «سوسروقه»

رواية الشتات الشركسي

أزمنة

لا بـد أن يـكون للإصـدار الاول، عند صـاحـبه/ صاحبته ، مذاقٌ خاص وحميـمـيـة خالصة . فالنشر ، للخروج عـلى القُـراء بـعَـمَـل يضمه كـتـاب ، يـشكلُ حـالة أشـبـه مـا تَـكون بنشـوة الميـلاد . أو فلنقُلْ : هو اعلانٌ جريء عـن هـويـةٍ أولى . هوية يكتنفـهـا مـا يكتنف ، عـادة ، كل جديد يصبو إلى نُـمـوّه وتطوره (ولا نقـول اكـتـماله) .

غير أنه ينبـغي أن يتـوفـر للإصــدار الأول ـ ولأنه أوّل ـ شرط الحـد المعـقول من اسـتـقـامـة النَـصّ الفنيّـة . لأنه ، بافـتـقـاره إلى هذه الاسـتـقـامة ، يفقدُ مبرره كما يُـفـقـدُ ، في الآن ، مشروعية صاحبه/ صاحبته الكتابية . كما ينبغي، والحـالـة هـذه، أن يحـمـل هذا النَـصّ بـشـارتـه الـتـي تشير إلى أن وراءه تقفُ موهبـةٌ تمتلك عطاءً قادماً .

استناداً إلى هذا المفهوم ، خصصت الـدار هذه الـسلسلة الجـديدة (تبـاشير) لـتـنـشر من خـلالها الأعمال الأولى التي يـصـدرهـا أصـحـابها ضـمن الأجناس الأدبـيـة الـثـلاثـة: القـصـة، والرواية، والشعر.

هي تباشير حقيقية نأخذ على أنفسنا مـهـمـة تـقـديـمـهـا ، بغير تردد، إلى القـرّاء، لنفسح لها مـوقعاً على مساحة الإبـــداع في الأردن . . لا بـــل عـــلى خريطة الثقافة العربية المعاصرة.

«أزمنة»

زهرة عمر أبشاتـه

ولدت زهـرة عمـر أبشـاتــه في عمّـان عـام ١٩٣٨، كابنة لأبوين شركسيين هاجرا الى الأردن من بلاد الشركس في بداية هذا القرن.

لم تكمل تعليمها بسبب زواجها المبكر، لكنها واظبت على تعلم وتثقيف نفسها بنفسها. ثم تحملت مسؤولية تنشئة وتربية أطفالها الأربعة في سن مبكرة (٢٧ سنة) إثر وفاة زوجها.

عملـت لمـدة ١٥ سنـة كمـوظفـة فـي عــدة مؤسسات، وكان آخر عمل لها في وكالة نوفوستي للأنباء، في عمّان.

بالإضافة الى ممارستها لكتابة القصة القصيرة (لم تقم بجمعها في كتاب حتى الآن)، قامت بكتابة ريبورتاجات صحافية عدة حول قضايا المرأة.

تجدر الاشـارة الى أنها، وبعـد وفـاة زوجهـا، عادت لتعيش وأطفالها مع أمها التي تدور الرواية عنها وعن شريط ذكرياتها الشخصيـة التي شـادت عليها روايتها في كثير من تفاصيلها.

تعيش حالياً في عمّان، وتُعِد للجزء الثاني من عملها الروائي بحثاً ودراسةً، للوقوف على ما هو بحاجة الى إكتشاف.

أقدم شكري الى أختي حكمت،
صندوق الحكايا . . . وذاكرة العائلة الدافقة .

توضيح

مع ظهور «النظام العالمي الجديد»، تراجعت قضايا «التحرر الوطني»، وانطفأت يقظة الشعوب المقهورة، والمضطهدة، والمتخلفة التي كانت تبحث عن هويتها وموقعٍ لها بين الأمم. هذا ولقد رافق إنهيار الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية خروج شعوب كانت متخلفة، وأقرب الى البدائية. شعوب كانت قد دُفِعَت نحو «امية» غامضة غير مكتنهة. خرجت هذه الشعوب الى السطح، لتقف وتتلفت الى الخلف، لتقبض على جذورها القومية بشدة قد تصل حد العنف الدموي أحياناً. ولتحقق كينونتها الضائعة. ولكن، يبقى السؤال الصعب: هل بقي مكان تحت الشمس للشعوب الصغيرة؟.

لقد دُفعَ بالشراكسة، خلال العقود الاربعة من القرن الماضي، الى ترك وطنهم. تم ذلك بالترهيب والترغيب، بالتهجير واعادة التوطين، بالاقتلاع والنفي، بالتقتيل والابادة، وذلك لإبعادهم عن موطنهم الأصلي. وكان الشراكسة من الشعوب الصغيرة التي تعيش في وضعيةٍ أقرب الى البدائية. لا يعرفون القراءة والكتابة، ولا يحتفظون بتاريخٍ مُدَّون لهم. إذ ظل تاريخهم القومي، والروحي والثقافي، والعسكري مروّياً ولا من شيء مُدَّون غير نُتفٍ هنا وهناك، تنقصها الدراسة المتعمقة التي تعتمد البحث والتنقيب العلمي المنهجي لمعرفة أصولهم.

ليس هنالك من مرتكزات ثابتة وحقيقية تستطيع الصمود أمام الجدل المنهجي حول كيفية الخروج، وحقيقة الوضع الذي تم فيه

ذلك، بسببٍ من اعتمادها بالأساس على النقل بالمشافهة.

لا يتعدى تعداد الأنفس الشركسية في الموطن الاصلي الـ ٧٥٠ ألفاً في وقتنا الحاضر. ويتوزعون في ثلاث «جمهوريات حكم ذاتي»، ويتقاسمون أرض الوطن مع أقوام أخري. في حين يتوزع في المهجر، وبين شعوب مختلفة، ما لا يقل عن ثلاثة ملايين. ويُقال أن تعداد الشراكسة قبل التهجير كان بحدود ذلك!.

عاش الشراكسة منذ غابر الأزمان بانضباطٍ وفق نظام رفيع المستوى، في ظل أل «أديغة خابزه» ـ التقاليد والعادات الشركسية ـ، وهي التي عملت على تنظيم أمور معيشتهم، وتوجيه سلوكهم، والمحافظة على علاقات الأفراد والمجموعات. كل ذلك بأسلوب راق رفيع المستوى، مما مكنهم من إمتلاك كنزٍ نادر من التراث الفكري والأدبي والأسطوري...

مع الانهيار الذي أصاب العالم حولي ـ توقفتُ، وتلفَّتُ حولي، ثم بدأتُ أبحث عن جذوري.

راعني ما وجدت من لآلىء نفيسة نادرة، ولكنها مغمورة بالطمي.

تعهدتُ نفسي أن أكتب عن آبائي. عن مأساة اقتلاع شعب من أرضه ووطنه. عن «سفر الخروج» ـ وما ترتب على ذلك من نتائج. عن معيشتهم ومعاناتهم، أفراحهم وأتراحهم، عاداتهم وتقاليدهم، أقاصيصهم وحكاياهم وأساطيرهم. والتجأتُ الى ما كُتب، وهو قليل، فاقتبست واستنسختُ واستعنت بما هو مَروّي (وهو الاكثر) عن المفقود الموثق. ثم وجدتُ، لصعوبة إمساك

الوضع وعدم وضوح الرؤيا، أن أغلف الزمن بضبابِ أجواء مموهة.

تحمل أساطيرنا، وملاحم بطولاتنا، وحكايانا الشعبية، مع ما تمثله من قِيَمٍ فكرية تراثية وأدبية وروحية، أصول عاداتنا وتقاليدنا وقيمنا الفكرية وأسلوب معيشتنا. وهي ليست معروفة جيداً عند الجيل من الشراكسة في الأردن. كما أنها مجهولة تماماً من قبل المحيط الأوسع الذي يعيش الشراكسة على أرضه، ويشكل جزءً من مجتمعه؛ ألاْ وهو المجتمع الأردني.

قد يقال اني فتحت أقواس الاقتباس ونسيتُ إغلاقها. فأرجو أن يعذرني القارىء اذا ما انسقتُ في ذلك، ولكن عدا عن جماليتها المذهلة؛ فانها مصدر تقاليدنا وعاداتنا ونمط معيشتنا، ولها الدور التربوي الكبير في حياة الشراكسة اليومية.

زهرة عمر

١

ـ هس.

مدت اصبعها، جافة صلبة عتيقة، وكأنها فوهة مسدس. مدتها في وجوههم، وانطلقت عيناها كرات نارية ملتهبة للحظة خاطفة ثم اختفت في الهواء.

ساد صمت مشحون. تصادمت النظرات بترقب ثم تبعثرت في الفراغ. هبت ريح قوية، أنفاس التوجس فحت من طياتها. ضربت سلك الضوء المتدلي من منتصف السقف، خضت الضوء بتوعد، نشر الصمت أطرافه الثقيلة على أرجاء الغرفة.

تجهم وجهها، واتسعت فتحتا أنفها كفرس تتأهب للإنطلاق، اتسعت حدقتاها بتوفز، اشتعل في عينيها ضوء داكن كثيف، وانتشر فوق جفنيها. اصاغت السمع، وانتصبت أذناها كهر يختطف الصوت من أعماق المجهول. تمتمت شفتاها العتيقتان من بين عبوس الوجه:

ـ ها!.. ماذا اسمع!.

ـ طق... طق...

ـ هذا أنت؟ ها قد عدت تدق بعصاك اللعينة فوق رأسي... لم أكد

SCANNED BY
JAMAL HATMAL

أرتاح من طرقها المتوعد... ابتعد عني ... اريد أن أرتاح...

يغوص وجهها بين الوسائد متجهماً، هطل حزن متماوج على الغرفة. أغلقت عينيها، ارتعشت الاجفان بتوتر، ينشق الجفن الايسر بحذر، يتحرك قرص من الزمرد بين الستارة المشقوقة مواربة.

صر الباب، انشق ببطء بدأ يتحرك بطراوة متمهلا، وكأن ريحاً رخية تدفعه برفق. انتصب قبالتها بقامته الطويلة المشرقة ووجهه الصارم المورد. القلنس الأسود بتجعدات صوف الحمل الوليد يميل على جبهته العالية، بحيرتان صافيتا الزرقة تتحركان بقلق.

ترتخي عضلات الوجه المتقلصة قليلاً، ترتفع الاجفان المرتعشة، ينكشف قرصا الزمرد بانعكار، تركز نظراتها امامها.

ـ ما زلت رشيقاً، ... لم يجرؤ الزمن أن يمس ظهرك... ووسيم أيضا، كما عهدتك دائماً... لحيتك الشهباء مسترسلة ناعمة. ولكن عصاك، تلك اللعينة... ضجرت من طرقاتها... تعنفني طرقاتها، تنهاني عن اتيان ما لا تريد بطرقة... انها كالطبل الافريقي تنقل الى الرسائل التي تريد بطريقة الطرق بها... أوف... ضجرت من طرقاتها... مظهرك مرضٍ، حسن... لكن أطراف الاكمام والياقة متسخة، قليلاً... أما من أحد يغسلها؟.. يجب أن تكون بمظهر لائق...كنت اعتني بك جيداً، أليس كذلك؟.. أما من زوجة عندك؟... ما عدت أشكل عائقاً لك هناك... كان بالامكان أن تقتني زوجة، أليس كذلك؟.. كنت على عجل!.. آه مستعجل... تريد أن أرافقك!.. أليس كذلك؟... اسمع ضجيج خطى وانفاساً تتردد... لست وحدك!.. أليس كذلك ؟... جئت بالكل!.. كنت أعرف أنك ستفعل ذلك، وأنتظره... تود ارغامي على المجيء...هم... هيا اطرق بطرف عصاك... طرقة، اثنتان، أم

ثلاثاً...؟ هكذا أنت دائماً... اعتقدت لفترة أنني خرجت من دائرة سلطتك... هراء... ولكن لا، هذه المرة لن تجدني طيعة... لا...

تتحرك البحيرتان الخرزيتان بحنو نحو الجلوس، تتمتم ووجهها مايزال يحتفظ بعبوسه:

- كلهم احفادك وابناء احفادك... وهناك ايضاً أولاد أحفاد أحفادك... ستراهم كلهم... اصبر... أنت تعرف من وصلك فقط... كنت تعرفهم ههنا ايضاً... ولكن الباقي، اعتقد أنك خنت... حسناً، أنا واثقة أنك تستطيع أن تستدل بقلبك... اعرف أنك تفعل ذلك... هش!.. ما هذا الصوت الذي اسمعه!.. دندنة!.. نقر!.. على... ال (شكبشنه)!.. آه... أنت لا تنسى شيئاً أبداً... مثل هذا لم يعد في عاداتنا... لقد انتهى منذ زمن... هل تريد أن اقتنع أنني في حالة احتضار.. أم أن اسلي ذلك فتنسل روحي دون أن أدري!.. لن يحدث ذلك... أنا لك بالمرصاد... ولكن هذا جميل... لا أستطيع أن أكون إلا أنا... هذا يسعدني... انها أغنية «سوسروقة عندما حضر مجلس النارتيين» لأول مرة... المرة الأولى هي دائماً الأصعب. رفعت نظرها بلطف ونظرة امتنان في وجهها.

هزت رأسها دلالة على الموافقة، استرخت بين الوسائد، اسبلت أجفانها. بدأ النغم مع الصوت ذي الجرس يرتفع ليعلو... يعلو حتى انتشر في المكان:

كان سوسروقة
قد سمع بأخبار مجلس النارتيين.

(١) كتاب ملاحم النارت الشركسية. ترجمة ممدوح قومق.

وعندما كان يعمل مع لبش [٢]
يطوع الحديد في محله،
كانت الكلمة الاولى التي يسمعها
في مقدمة كل حديث: «مجلس النارتيين»
حيث تروى بطولات النارتيين...
من استطاع أن يقطع البحار والانهار
ومن جلب أحسن الخيل
ومن استطاع أن يقتل العمالقة
وسيف من أكثر فتكاً
ومن أجل من ألفت الأغاني
وأخبار من انتشرت أكثر،

وكان سوسروقة ـ وهو في شرخ الشباب
يحلم بحضور مجلس النارتيين،
أن يجلس ويتعرف على النارتيين
أن يرفع الانخاب معهم
وأن ينازلهم ويباريهم
ويستمع الى أخبارهم
ولما عرف بطلنا سوسروقة
ان مجلس النارتيين قد انعقد
ازداد شوقاً لحضوره
وقال لامه ستناي:
ـ آه يا امي ستناي

(٢) لبش اله الحديد. يعيش في هيئة حداد مع النارتيين، وهو ذائع الصيت بينهم.

لم أر في الدنيا الا القليل،
يقولون أن مجلس النارتيين قد انعقد.
كنت سأذهب لحضور المجلس
كنت سأذهب لأرى عادات النارتيين
ولكن من سيقدمني للمجلس؟
وكيف سأدخل مجلس النارتيين؟
ولما قال سوسروقة ذلك
فرحت ستناي:
- سوسروقة يا ولدي الوحيد
سأذهب أنا الى النارتيين
وسأرجو جميع النارتيين
أن يقبلوك في مجلسهم
اذا قالوا يا ولدي، تعال
فحصانك وسيفك جاهزان.
ما زلت فتيا يا ولدي
ولا أرى من المناسب أن تحضر مجلسهم
دون أن يوجهوا لك الدعوة
لأن من عادات النارتيين القديمة
ان لا يقبلوا احداً في مجلسهم
اذا لم يكونوا قد وجهوا اليه الدعوة.

□ □ □

تزينت ستناي واستعدت
وذهبت الى مجلس النارتيين

ولما رأى النارتيين ستناي
وقفوا جميعاً وقدموا لها آيات الثناء:
- يا من لا مثيل لجمالها في البر والبحر
ستناي يا سيدة النارتيين.
يا أبهى السيدات
يا حافظة عاداتنا ومصدرها
يا مشرق كل الطيبات
اننا نعتبر قدومك الى مجلسنا
شرفاً عظيماً يكللنا.
ولما قال كل النارتيين ذلك
من أعماق قلوبهم
ردت ستناي على الجمع الذي ما زال واقفاً:
- ادعو الله أن لا يجعل حضوري مجلسكم
بدايته خيراً ونهايته لا تسر القلب.
لقد كان حضوري اليكم اليوم لسبب واحد:
تعرفون أن لدي ولداً
اسمه سوسروقة الأسمر
لا يكذب ما يقوله أبداً.
كان بودي أيها النارتيون
لو أن ابني الوحيد سوسروقة دعوتموه الى مجلسكم
لو تنازلتم واجلستموه
اذا كان ذلك ممكناً على طرف مائدتكم
أو سمحتم له بخدمتكم
ليتمكن من سماع احاديثكم.

واذا لم تروا ذلك مناسباً
دعوه يقف عند اطار الباب
دون أن يتجاوزه
لينظر الى وجوهكم ويتعلم منكم
واذا اعتبرتم ذلك كثيراً
دعوه يرعى خيلكم
عند المرتفع القريب.
هذا رجائي اليكم ايها النارتيون
وانا بانتظار قراركم.
بعد ان سمع جميع النارتيين كلام ستناي
يلتفت «نسرن جاكأه» نحو زعيم النارتيين
و «نشابكأه» النارتي الجريء
يلتفت يمنة ويسره مرتبكاً
وهو لا يدري ما يفعل
وعندما لا يقول أحد شيئاً يتكلم زعيم النارتيين:
- ايها النارتيون، هيا تكلموا.
ردوا على طلب ستناي
ان الجواب على طلب امرأة
أهم من أي شيء آخر
ويجب أن نبتّ به أولاً.
هيا ايها النارتيون قولوا الحقيقة.
ولا تتركوا ستناي تنتظر.
وعندما أنهى الزعيم النارتي كلامه
وقف «بنوقه» النارتي

وأقسم باسم « تحه غليج »
وقال هذه الكلمات:
- ليس من عاداتنا أن ندعو الى مجلسنا
ابن احد كائناً من يكون.
لو كان رجلاً لوصلتنا أخباره
وكنا دعوناه الى مجلسنا.
وعندما قال « بنوقة » ذلك
وقف « كوكوج » النارتي بعصبية
وأخذ يضرب بقدميه الأرض:
- لا يوجد واحد بيننا اليوم
الا ومعروف بماضيه وبطولاته
فكيف ندعو الى مجلسنا واحداً
ليس من مستوانا ولم يره واحد منا من قبل
وما أن انهى كلامه
حتى وقف « بشايا » النارتي:

- لا نستطيع أن نحطم اليوم عادة
من عادات النارتيين القديمة
فمجلسنا لا يحضره
الا من كان قادراً على تحطيم الجبال وقهر البحار
أما ابنك سوسروقة يقولون
أنه بالكاد يقطع الوديان
فبأي حق تريدين منا

(١) عرف كاله للزراعة والمزروعات.

أن يسمع الناس أننا
نسمح له بالجلوس الى مائدتنا البيضاء
أو أننا نسمح له بالوقوف عند الباب
لينظر الى وجوهنا النارتية.
لا، لا يجوز يا ستناي
ان تنظري الى مجلسنا بهذا الاستخفاف
وتحضري الينا ابنك
الذي ما زال طري العود غض الاهاب.
وعندما سمعت ما يقوله النارتيون
احمر وجه السيدة ستناي
ثم عاد فابيض
وعادت الى ابنها سوسروقة

□ □ □

تحرك يدها وهي تتمتم:

ـ فدتك عيوني يكفي... يكفي... يكفي الآن... أو ليكن الصوت خافتاً، وليبقى كصدى يأتي من عالم آخر. لا بأس بذلك... أعتقد أن ذلك يرضيني...

تستدير بوجهها نحو زاوية الجدار الخلفي...

ـ هاه... «يا ويمغه»[1] أنت هنا خلفي... وأنا الحمقاء لا اراك... ولكن كيف دخلت دون أن ألاحظك!.. صحيح... يبدو أنني خرفت... أنسى أن السطوح والجدران لا تعيقك...

---

(١) يا حسرتي.

اقترب... اقرب... تعال هنا بجانبي...

تتحرك لتفسح مكاناً في الفراش.

ـ آه فدتك روحي... كم أنا مشتاقة اليك.. مشتاقة لرؤية وجهك الجميل... اجلس هنا... اجلس بجانبي على طرف السرير... فدتك عيوني... اعطني يدك... أصابعك باردة... هل لا زلت مريضاً؟ آه... يا عيوني... أنت فقط مهتاج من شدة الفرح... آ... أنا ايضاً كذلك!.. لا تعتقد انني احتضر... لا تصدق ذلك... لا تخشى شيئاً يا صغيري انني فقط مشتاقة لرؤيتك... مشتاقة جداً لرؤيتك... وكذلك أنت... أليس كذلك! كيف علاقتك مع «باباج»!.. جيدة اليس كذلك!.. يبدو واضحاً...كان يحبك ويدللك دائماً... مع أن ذلك مرفوض بصرامة في تقاليدنا... يجب ألا يلقى الأولاد كثيراً من الدلال، خصوصاً الذكور... حتى لا يصبح الواحد منهم رخواً... كذلك كانت شروط الفروسية... الفارس يجب الا تضعفه العواطف ولهذا يجب الا يسقى بالحب... الشجاعة والجرأة والقدرة على المواجهة والقتال تحتاج الى كثير من الصلابة، والعاطفة مخادعة قد تغدر بالفارس... ولكن أنت تعرف، لم تعد الحاجة ماسة الى ذلك الآن... انتهت حرب المئة... وتركنا خلفنا «اوشحة مافوه»[1]. لم يعد بامكانه أن يرمقنا غاضباً بوجهه العتيق المقدس اذا ما تقاعسنا... اذن... لا بأس من اظهار بعض الحب... لا بأس، لا ضير في ذلك ابداً... انتهى كل شيء... هل تقاتلون هناك!!. هل يوجد روس وأتراك وجيوش التتار!.

يدك باردة... دعني ادفئها لك... يدي باردة لا تزال؟. ستدفأ حالما اضعها تحت الغطاء.

---

(١) القمة المباركة.

2

الابنة الكبرى تنهض بقامتها الصغيرة الممتلئة وتهمس بجزع وهي تلتفت نحو العائلة:

ـ ماذا حدث لها... انها لا تكف عن الجملقة والتلفت هنا وهناك... تتحرك شفتاها وتهمهم وكأنها تتكلم مع آخرين... انها تمد يدها... لمن؟...

تقترب من السرير بلهفة وتنحني بشيء من الخوف:

ـ يا ميه... هل تريدين شيئاً؟... هل تقولين شيئاً؟

تقترب باذنها من وجه الأم. لا تسمع جواباً. تلفحها أنفاسها حارة مضطربة. تنحني اكثر بجذعها وهي تنظر اليها ملهوفة. تمسك يدها بين يديها، وتضغط على الاصابع الشاحبة الملتمعة وكأنها بدأت تفقد كثافتها... ينطلق صوتها بنبرة عالية:

ـ يدك باردة مثل الثلج! بصوتٍ منخفض وهي تستدير بوجهها:

ـ تيار جليدي ينطلق من مساماتها...

تستدير هي بوجه غاضب نحو الابنة، وتحملق فيها بعينين تطلان من اصقاع مجهولة... تتراجع الابنة مهرولة وهي تقول باختناق:

ـ انها تخيفني...

طق... طق... طرق الارض بطرف عصاه بضع ضربات وأطل عليها بقامته المديدة ولحيته الشهباء المسترسلة على صدره. فلاحت ابتسامة رقيقة على شفتيه، وتغامزت معاتبة في عينيه:

ـ يـا ابـنـة الـكـلـب... لا تريدين أن تأتي... اليس كذلك... أمورك نضجت «ناشخوه»... استسلمي للحق... كلنا نريدك...

ـ هس!!.

ساد توجس أبكم على الجميع، وانتشر مع هواء الغرفة خوف غامض مبهم، هسهست الصغرى:

ـ انها تهذي...

قالت الوسطى مداعبة:

ـ انها تطرد عزرائيل.

طق... طق... طرق الارض بطرف عصاه، غمغم:

ـ كنت دائماً عنيدة ومتصلبة... يكفي «ناشخوه» يكفي.. اهدئي وارضي... هيا تعالي معنا... كلنا بانتظارك... تأخرت... تأخرت.

غاصت بين الوسائد، حاولت أن تسبل اجفانها، ولكنها فتحتها برخاوة ونظرت مواربة وهي تميل برأسها لتتمكن من النظر:

- لماذا تنكر؟ قل الحقيقة، قل... انك تزوجت. اليس كذلك؟.. ها هو الدليل خلفك... وينظر اليَّ متلصصاً.

اشاح بوجهه، وانطلقت نظراته ساكنة راكدة نحو النافذة، عبر الظلام:

- خرفت... خرفت... ولكنه تامر يا «ناشخوه»... ولكنه تامر... هو بذاته...

وهوى برأسه ببطء، وحزن، وغامت عيناه باكتئاب، ولحيته الشهباء تتحرك بلطف على صدره مع هزات رأسه المعاتبة:

- الا تذكرين؟.. الم أقل أنك خرفت؟.. طبعاً انه تامر!.

اتكأت على يديها واندفعت بجذعها الى الامام...

انطلقت غابة العيون نحوها بذعر، تمتمت الكبرى:

- الى اين تريد ان تنطلق؟.

اسرعت الوسطى تحاول ان تعيدها الى حالة الاستلقاء، فكانت كمن يحاول ان يزحزح صخرة ثابتة في الارض، وكانت هي تدفع بجذعها الى الامام بتشنج.

- لا... لا... لا... لا تقل شيئاً... دعني أتذكر ذلك الزمن المشؤوم... أمتأكد أنه تامر!.. اليس هو ابن آخر انجبته هناك؟.

هش... لا تقل شيئاً... دعني اتذكر... يا للزمن الذي ضاع في بعده... اصمت... ها هو ذا الحوش الكبير الذي يستطيع أن تتسابق فيه مجموعة كبيرة من الفرسان... الباب السميك الشاهق كجبل، تمر منه عربة الخوص الكبيرة بعجلاتها الضخمة الهادرة، مع الثيران التي تجرها... ويمر الفرسان وهم على ظهور الخيل... أسمع حمحمة الخيل وصهيلها... وارى عيونها البراقة الذكية الطافحة بالالفة والمحبة، بذيولها الحريرية واعرافها المنسابة المتطايرة.. واشم رائحتها... انني امتلىء بوجودها، وقع حوافرها الموسيقي، انفاسها الحارة، تلك السوداء الفحمية بنجمتها البيضاء تضيء غرتها... كم كنت احبها... كنت اسرق لها قطع السكر واطعمها فتلحس يدي ووجهي بحب وانا اقف صغيرة ضئيلة ضائعة امام حضورها الضخم الهائل، كانت فرسك المفضلة... تسللت خلفك عندما قتلتها قبل الرحيل... جلست عند رأسها المدمي وهي ممدة كبيرة سوداء هائلة والدم يسيل من اذنها بحراً... انك بكيت كثيراً كثيراً... اذكر ذلك... كم كان مؤلماً...

ثم ذلك الباب الصغير الذي يفتح للاستعمال العادي في احشاء الباب العملاق... حتى الابواب كانت تحمل اجنة!. على اليمين مذاود العلف والماء وبعدها اسطبل الخيل... والى الجهة اليسرى اسطبل الثيران... ثم الجواميس.. عندما تقترب منها تباوع بعيونها السوداء الحائرة وتهز طرفي الهلال بتباهي على رؤوسها الضخمة... ثم اسطبل البقرات المفصول الى ثلاثة اقسام، الامهات الطافحة بالحليب دوماً... متوسطات العمر... العجول الصغيرة المشاكسة... ثم اسطبلات المواشي... رائحة الروث والتبن والاعشاب والرطوبة... مخزن الحبوب الكبير بسقفه الخشبي العالي... أكياس القمح والشعير متلاصقة فوق بعضها البعض لتصل الى السقف...

أكواز الذرة المجمعة بتلك المخازن المقامة من أخشاب مضلعة متباعدة يضمها سقف من الزينكو بقاعدة خشبية مرتفعة، ليدخلها الهواء من الجهات الاربع... مخزن الاخشاب، ومخزن الاعشاب المحشوشة المجففة للشتاء والروث باقراص مجففة للطابون... مخزن ادوات الحراثة والسروج والاعتدة والسياط... وفي الساحة عربات القصب الكبيرة التي تبدو كغرف ضيقة قليلاً تتحرك بعجلاتها الخشبية الضخمة وهي ترسل قعقعة رتيبة متواصلة وخم الدجاج والبط والاوز وديك الحبش... كانت تشكل امواجاً تتلاحق بكل الاتجاهات وهي توقوق، ويرسل البط زعقاته المفاجئة المدهوشة دوماً...

وأما مخزن المؤونة فانه بني في نهاية المساحة الشاسعة المحاطة بالاسطبلات والمخازن وفي منتصف المساحة، ليشكل نوعاً من الحاجز، مداخله للجهة المقابلة حيث بداية الابنية السكنية. مخزن كبير معتم تفوح منه رائحة الجبن المدخن المعلق بسلال من القصب مستديرة صغيرة بكلابات حديدية سوداء، واللحم المقدد والقاورمة والباسطرمة الفواحة برائحة البهارات... والقدور السوداء الكبيرة المستديرة بمماسكها القوسية المعلقة في الوسط من الجانبين... تربض على الرفوف السوداء الكبيرة قائمة راسخة... ومناصب القدور مختلفة الاحجام بارجلها الثلاثية المعكوفة، كأنها عناكب عملاقة سوداء... الجرن الخشبي الضخم بمدقته الثقيلة... اباريق الماء القصديرية المطرقة... وعلى الرفوف الاباريق الفضية التي تملأ بالماء ببطونها المستديرة الواسعة وكأنها نساء حوامل، وفوهاتها الضيقة واعناقها الطويلة الرشيقة كالاوزات وقاعدتها الصغيرة التي ترفع منها على الكتف. وفي وسط الحائط المواجه للباب موقد كبير للنار.

يليه مخزن للخشب بجذوع الاشجار المقطعة المنسقة للاستعمال وجذوع

الاشجار الضخمة المعدة للتقطيع... فؤوس، بلطات، مجارف، رائحة خشب ورطوبة.

ثم غرف كبيرة بيضاء متلاصقة، المضافة الواسعة بجدرانها الخشبية في الصدر، ومزينة بالزي الشركسي الكامل، والكلبك، والقامة والخنجر، بنادق الدك مرصوفة بخزانة جدارية، غدارات معلقة متواجهة بفوهاتها المتباعدة... موقد كبير للنار... لا ينقطع دخانه ولهيبه طوال الشتاء. خزانة كبيرة في الحائط رصت فيها الفرش والاغطية والوسائد والمساند تغطيها ستارة بيضاء مطرزة بتخاريم متنوعة... جلود خرفان بيضاء سوداء، تأبى رائحة الحياة ان تفارقها... فتخال أن مأمأة ما ستنطلق، ويقفز الخروف من تحتك ساحباً وراءه جلده المدبوغ دباغة متقنة، والدافيء، بينما هو عارياً مسلوخاً مقشعراً.

هو ذا تامر اذن... في ذلك الزمن المنسي المشؤوم...

اذكر امي قليلا... كانت امرأة باهرة الجمال بيضاء كقطعة من الثلج، شعرها كستنائي طويل بجديلتين تتمايلان دوماً على صدرها أو تنهدل فوق اردافها. رشيقة نحيلة الخصر عيناها واسعتان عسليتان... أنفها دقيق بطرف شامخ... شفتاها حمراوان كحبتي كرز ناضج.

ارى نظراتك الصارمة ترق وتشف وهي تتجه اليها... انها ابنة حفيدتك الصغرى... تشبهها كثيراً، اليس كذلك؟. عندما تفاجئني بوجهها الناصع في الصباحات تحملني الى تلك الذرى التي دفنّا فيها احلامنا، وانطلقنا كخرفان مسلوخة عارية دامية مقشعرة. بعيداً عنها...

آه، اذكره كحلم جميل، كوجه يطل من بين الضباب، وجه امي، ثم يغيب بين طيات الزمن... ها... لماذا لم تأت معك!. الم تعودا للعيش معاً!. هل اختطفها فارس ضل طريقة في البحر وهي تنتظر عودتك على

صخرة مرجانية دامية في تلك الاعماق المرعبة؟.
انت لا تسمع عندما لا يعجبك السؤال...

ـ حسناً... كانت هي و « نانا » اختها وزوجة العم زاور « دغه ناف » ـ ضوء الشمس ـ كما كانت تدعوه امي، تديران شؤون البيت الكبير... كنت صغيرة وجان أكبر قليلاً، اما تامر فانه البكر... ويلدار رضيعاً على يدي الوالدة... وكان هناك ولدان لم يجاوز الاكبر منهما الرابعة من عمره، اولاد العم « دغه ناف ».

« نانا » في المطبخ بين القدور السوداء الكبيرة تنفخ في النار ليشتعل الموقد الكبير. تتمتم بغضب وقد احتقن وجهها، واحمر انفها، وإنتفخت عروق رقبتها كعصي صغيرة زرقاء متورمة من كثرة النفخ... عيناها دامعتان تمسحهما بسرعة بطرف كمها وكذلك أنفها، وثم ينتفخ شدقاها من شدة النفخ في الجميرات لتتوهج وتشتعل وتشعل الحطب المقنطر فوقها.

ـ العفنات... العاهرات... كلهن هربن...ايام العز ربربن لحم أكتافهن من خيرنا أما الآن... بعد أن استنزفتنا الحرب اللعينة، هربن... لقد بدأ كل شيء يتخلخل كما يقولون... مضت سنوات كثيرة على انتهاء الحرب... ولكن الامور تتجه للأسوأ... اولاد سفاح يقضمون ارضنا شبراً شبراً... ويفنون جنسنا... انهم يزحفون كالسلاحف، ببطء، وشيئاً فشيئاً... بصمت، ودون ضجيج... يحرقون قرانا... يقتلون رجالنا... ويسبون نساءنا... أما اطفالنا، فلا يعلم الا الله ماذا يكون مصيرهم... ولا ابن زانية واحد في هذا العالم الساقط يلتفت الينا... كل شبر حولنا يتخلخل، ويبدو آيلاً للسقوط، في قعر لا قرار له...

توهجت النار. كـان أنفها ووجهها وعينيها في إحرار... حملت أحد القدور الكبيرة المنتفخة. اسقطت قطع لحم العجل الذي ذبح ذاك الصباح لتسلقه ثم تقليه بالدهن... وكانت تضيف الملح إلى الماء وتغمس اصبعها تلحسه وهي تتمتم وتحرك ما بالقدر بنشاط...

ـ يجب ان تكون ملوحته كافية... تباً لتلك الديدان الوقحة التي تغزو قطع لحمة القاورما اذا لم يكن مملحاً ومقلياً بالدهن بشكل كاف... وعندما يبدأ الهجوم يبدو وكأنه جيش القيصر. تتحول خلايا اللحم الى خلايا تنغل بتلك الديدان القبيحة... عند ذلك يصعب أكلها... حتى «الونة اوت» ـ القائمين بالخدمة ـ تصد نفوسهم عن اكلها.

اشرقت شمس الربيع طرية رخوة، تحمل بين أطرافها صقيع الشتاء... اطراف الاشجار تبـدو مخضـوضرة نـديـة مـن بعيـد على قمـم الجبـال الشامخة... انا وجان مشغولتان بصنع اللعب من الاقمشة القديمة... تامر قد صنع «قامة»[1] من جذع أحد الأشجار، يحمله وهو يتقافز هنا وهناك منهمكاً بمعركة وهمية:

ـ ها... ذاك «جورتج»[2] آخر... احذر يلدار... انه يختبىء خلف شجرة الجوز العملاقة.

وقفز في الهواء:

ـ ها... خذ... خذ...

وتتتابع ضرباته سريعة خفيفة وكأنه يقتل احداً، ثم لا يلبث ان ينتصب واقفاً وهو يتكيء على «القامة» الخشبي:

ـ ماذا يلدار... هل أجهزت على الآخر... كاد أن ينال منك ذاك

---

(١) السيف الشركسي.

(٢) حامل الصليب.

الروسي الاحمر... هل جرحت... لا بأس، الرجال لا يأبهون لجرح بسيط كهذا...

يتظاهر بانه يضمد جرح صاحبه، ثم لا يلبث أن يعود الى التقافز والصياح، ثم لم يلبث أن امتطى صهوة مهرته الحمراء وكان يتقلد سيفه وخنجره الخشبي.

انتصف النهار... لا ادري اين ذهب تامر. شعرت أنه غاب منذ فترة طويلة، ولكن لم اقلق لغيابه، لا بد أنه ذهب الى احدى معاركه الصاخبة... انه يمارس البطولة على صهوة مهرته الشقراء مع نفسه.

عند الظهيرة عدتَ راكباً فرسك السوداء الاثيرة، مع عدد من الفرسان. كان عددهم كبيراً. امتلاء الحوش الكبير بوقع حوافر الخيل وحمحمتها، وفاحت رائحة عرقها قوية نفاذة... ثم ترجل الفرسان عن ظهور الخيل، بكلابكهم الجعداء، وملابسهم التقليدية، والسيوف تتدلى على الافخاذ القوية بتوفز... دخلتم بصمت على كثرتكم... كنت استمع الى وقوقة الدجاج وزعيق البط المفاجيء وحفيف اجنحة ديوك الحبش المتباهية وهي تتراكض... انسحبنا انا وجان الى عتبة غرفة الأطفال ومن هناك كنت ألعب واراقبكم بطرف خفي... اسرعت والدتي تمشي مجانبة كأبو جنيب مرتبك بعد ان القت التحية، وشرعت باب المضافة، ثم حملت «سماور الشاي» وعادت به الى المطبخ لتصنع شاياً. لم تدخلوا الى المضافة. كانت الشمس تملأ الفضاء بدفء ربيعي نادر... وجلستم على المقاعد الموزعة في مقدمة الساحة... هل تذكر تلك المقاعد؟... كانت جذوع اشجار ضخمة مشذبة، قصت كل واحدة بنحو مترين، ورفعت بثلاث ركائز متصالبة، اثنتين على طرفي الجذع وواحدة في الوسط... توزعتم على المقاعد. كنتم نحو خمسين فارساً... بعضكم نزع الكلبك

وامسكه بيسراه، بعضكم أماله الى الخلف...

كانت الوجوه منقبضة والقسمات مكفهرة، كوجه السماء في ليلة عاصفة... اصواتكم اقرب الى الزمجرة... كزمجرة الريح الغاضبة... تحدثت انت... شعرت بالافتخار لانك اعلاهم شأناً:

ـ لقد مضى ما يزيد على العشرين عاماً للنزوح الاول... بعد حروب دامت نحو مئة عام... كان جنود القيصر كالنمل، نقتل واحداً، فينبت مكانه عشرة... والمقاتلون عندنا كانوا في تناقص متواصل... لم نتحد ولم نتجمع وظلت صفوفنا مبعثرة في اراضي القفقاس الشاسعة. لا يجمع صفوفنا حرب ولا سلام... كل طرف منا يقاتل او يهادن حسب مصلحته دون اعتبار لمصلحة اي طرف آخر، قد يلتقي أو قد يختلف معه بين آن وآخر... لم نتحد في دولة واحدة وجيش واحد ولم نجمع صفوفنا باتجاه واحد... بقينا عشائر وشعوباً نختلف أكثر مما نلتقي في مواجهة العدو... وعندما وحد شامل صفوف الشيشان والداغستان، ابتعدنا نحن عن المعركة قدر الامكان. وعدنا الاتراك والانجليز والفرنسيون بالمساعدة، ومدنا بالسلاح على الاقل، كان جيش القيصر مسلحاً ببنادق تطلق الرصاص ويملكون المدافع، بينما نحن كنا نستعمل بارودة الدك بملح البارود. الذي نصنعه نحن، وهكذا لم نقبض الا الكلام... ونحن لم نقبض على ايدي بعض. وبقينا نقاتل، قبائل وشعوباً نواجه عدواً واحداً، وندير ظهور بعضنا لبعضنا الآخر... فماذا كانت النتيجة؟...

بعد استسلام شامل انتهت الحرب ولكن لم تنتهِ المعارك... بدأ الروس يتوجهون إلينا قرية بعد قرية، قبيلة بعد قبيلة... جماعة بعد جماعة، وكان الخيار واحداً من اثنين: اما الهجرة أو النزوح الى مناطق الكوبان القاحلة... والرافضون يبادون عن بكرة ابيهم وتدمر مزروعاتهم

واراضيهم وتحرق بيوتهم وقراهم، ومن استطاع ان يبقى حياً يضطر ان يذعن الى احد الخيارين السابقين... وتسلم المناطق المنزوعة الى اقوام اخرى لا تمت بصلة الى قرومنا وجذورنا. منذ ان انتهت الحرب وهم ينتزعون القفقاس منا شبراً بعد شبر، من مغربها حتى مشرقها. بهدوء وصمت، ويبيدوننا أو يهجروننا أو يرحلوننا... هذا هو الامر حقاً... وبقينا سنة بعد سنة نمني النفس ان ترتوي النفوس المتعطشة الى الدماء وان تشبع البطون الجربة وتمتليء العيون الفارغة... ولكنهم كانوا الجراد بعينه، لا يتركون ارضاً الا يبست وجفت عروق الحياة فيها... وكان انتظارنـا مجرد حلم... قتلـوا الشيشـان... ورحلـوا الداغستـان وابـادوا الاوبخ... وذبحوا الابزاخ... وحرقوا الشابسوغ وافنوا القبرطاي. وصل احد الرعاة الهاربين يوم امس واعتقد ان الكل سمع ما نقله عن قرية من البجدوغ، بعد ان قتلوا رجالها ونساءها واحرقوا بيوتها ومزروعاتها واشجارها. حفروا حفرة كبيرة عظيمة ولموا الاطفال وكوموهم بالحفرة احياء ثم اهالوا عليهم التراب واغلقوا الحفرة، وبقي الجنود يحرسون الحفرة حتى لا ينقذهم احد. قال الراعي: بقيت اراقب من اعلى شجرة صنوبر عملاقة اختبأت عليها والجنود في حراسة الحفرة التي كان اعلاها يرتفع ويهبط نابضاً مع قلوب الاطفال الاحياء المدفونين في جوفها حتى همدت بعد اسبوع. لقد بكى الجنود وكانوا يصرخون وهم ثملون:

ـ اهمدوا يا أولاد الزنا المساكين واعتقونا...

وبعد أن تحرك الجنود من مواقعهم في تلك القرية، اسرعت بالنزول واتجهت اليكم مسرعاً... انهم في طريقهم اليكم...

قال الراعي الذي لم يذق طعاماً منذ اسبوع، وهو يلتهم ما قدم له مسرعاً قبل ان يغادرنا هارباً:

ـ عبثاً... عبثاً تفكرون في القتال... ماذا انت بالنسبة لهم... مجرد لقيمة بائسة بين شدقي عملاق، لن يفكر حتى بمضغها... بل انها تضيع بين اضراسه القاتلة... عليكم بالهجرة الى تركيا او النزوح الى مناطق الكوبان... لا جدوى من مقاومة الدب بعد ان يصبح عنقك بين فكيه... ارحلوا اطفالكم وشيوخكم، لا تلقموهم وقوداً لنيرانهم... او قلوباً تنبض في حفرهم المظلمة... سفن للاتراك تنتظر في البحر اذا قررتم الخروج... نحن لا نعرف ما حدث للذين سبقونا... قال ائمتنا انها بلاد تجري فيها انهار من عسل ولبن... انها جنة عدن على الارض فيها من كل ثمر وشجر وطير... وان الخالق القى بظله على الباب العالي ليحمي دين الاسلام الحنيف ويحمي كل المسلمين من أي ظلم وجور. وانه يفتح ابواب جناته للابناء الذين التجأوا الى اسم الله والذين اختاروا ان يتفيأوا بظله عند اعتاب السلطان ظل الله على الارض وسيفه المسلول يضرب كل كافر زنيم... هذا قول جميل ولكننا لا نعرف شيئاً عن مصير من اختاروا تلك الجنة وتركوا اوطانهم واهلهم وذويهم.

لقد ارسل الروس رسلاً يخبروننا اما الهجرة او النزوح... والا فانهم يعتبروننا نشهر السلاح في وجوههم. وعندها لن تأخذ قلوبهم رأفة بامرأة أو رحمة بشيخ او طفل، سيطهرون القرية بوسائلهم... وهناك الامام الذي ينادي بالهجرة الى ديار المسلمين المقدسة متوعداً كل من يموت في هذه المعارك غير المقدسة يموت كافراً ينكفيء على وجهه مسوداً فتشيح الملائكة بوجوهها عنه، ويواجه الرب برأسٍ كرؤوس الخنازير المحرمة، فيأمر الله ان يقذف به حطباً أسود الى جهنم وبئس المصير.

ارتفعت همهمة بين صفوف المقاتلين، ان يحرموا من الدنيا ومن الآخرة! وكذلك فان الاتباع والخدم يتشبثون بهذه الاقاويل وينضمون

الى تجمعات المهاجرين.

قرروا!. هل نبقى وندافع عن ارضنا وديارنا، فنقتل وتحرق بيوتنا ويذبح اولادنا ونساءنا... أم نبقى وننصاع الى اوامر المحتل ونرضى بالنزوح املاً ان نتسلل يوماً ما، أم نهاجر ولا أمل لنا بالعودة مطلقاً؟... يجب أن نتفق على كلمة واحدة لهذه المرة الواحدة.

في هذه الاثناء اخرجت امي «السماور» الى طرف الحوش، واشعلت قطعاً من الفحم داخله، بعد قليل بدأ الماء يقرقر كعملاق عجوز يشخر. وتخمر الشاي في الابريق الصغير على فوهة السماور... تسللت خارجة، كان الرجال منهمكين في النقاش الحزين، ونانا في المطبخ تعد القاورما، وامي تتأكد من نظافة كاسات الشاي والتماع الصينية النحاسية الصفراء تمسك بها تتفتف عليها لتلمعها بخرقة بيضاء ناصعة. اقتربت بوجهي من بطن السماور المدور انظر في التماع النحاس، بدا وجهي شديد الاصفرار متطاولاً وكأنه رقق بمرقة العجين. تغبش النحاس. من دفء انفاسي. مددت لساني وحركت يدي على اذني ... انتهرتني امي بحزم:

- ابتعدي عن السماور يا شقية... تجرحت يداي وانا افركه بالرماد...

وعلى الطبق النحاسي المتلامع صفت فطائر «الحلفة»[1]... ورصت على طبق آخر من نفس النوع استكانات الشاي المخنصرة بحوافيها المذهبة... ثم نقلت المائدة المستديرة ثلاثيةَ الارجل حيث يجلس الرجال كما نقلت الفطائر والسماور وكاسات الشاي الى المائدة.

كان وسمان «العم الاصغر» وبعض شباب العائلة يقفون خلف مجلس الفرسان متأهبين للخدمة كما هي العادة. تقدم وسمان وحسن بي من المائدة،

(١) فطائر البطاطس المقلية.

تراجعت والدتي ووجهها نحو الفرسان الى الخلف بسرعة، وعندما ابتعدت عن مجلسهم استدارت وهرولت الى المطبخ لتساعد «نانا» وقام الشبان بالخدمة... ولكن الايدي لم تمتد نحو الطعام، بل بتثاقل الى أكواب الشاي.

عدت الى الحديث مع الرجال:

ـ بالنسبة لي، تعرفون أن اغلب رجالي قد ذهبوا مع الموجات السابقة من الهجرة... بقينا نحن، أنا وزاور وسهان وبعض شباب العائلة... لم يبق احد الا نحن والاولاد... ولم يبق لنا شيء... سوف نحزم ما يمكننا من المتاع ونخرج مع آخر قوافل المهاجرين. ليس بامكاننا ان نصمد في قتال امام قوات القيصر... ولا نستطيع ان نغير شيئاً من هذا الواقع الذي بدأ يفرض منذ خمسة وعشرين عاماً... لم يبق لنا الا رؤوسنا... فلندفنها في اراضي المسلمين المقدسة فلا نضيع كلا الجنتين.

رفعت رأسها بحذر، واجهته بنظرة عابثة وقالت بشيء من الشماتة:

ـ ها!. وكيف الجنة الاخرى!. هل عوضت عن فقدان الاولى؟...

قال وهو يشيح بوجهه:

ـ اصمتي... اصمتي يا «ناشخوه».

كان الفرسان والراجلون يتوافدون زرافات ووحدانا... وامتلأ الحوش الكبير، وكانت الخيل مربوطة عند طرف الحوش على المذاود يلتهمون وجبتهم الاخيرة دون ان يدركوا ما ينتظرهم...

كانت الاجواء مأساوية وكأننا في يوم الحشر الرهيب...

قام ابن متكري واقفاً بحركة عنيفة، وقال بصوت مبحوح مخنوق بالدموع الحبيسة:

ـ وحليب امي الذي رضعته، وعظام اجدادي المدفونة في هذه الارض لن اغادر... لن اغادر... ولن انصاع لأي من الأمرين... فليكن دمي ثمن قراري.

ارتفعت اصوات مبحوحة تهتف باختناق:

ـ احسنت... احسنت ابن ماتكري... نحن معك.

استدار بعنف، واتجه الى حصانه، انفصل بضعة اشخاص عن الجمع وتبعوه. امتطوا صهوات جيادهم باعتداد ويأس... تدافعت الخيل خبباً بفرسانها وخرجت وهي تضرب الهواء بأذيالها الحريرية.

أما «حتوغ وتوخ» فقد نهضا بتثاقل وقال «حتوغ» الاكبر سناً بانكسار:

ـ انا و«توخ» قررنا الامتثال لامر قيصر... لن اتلاعب بالالفاظ ولن أكثر من الكلام ولن اوهم نفسي بغير الحقيقة... وللمنتصر ان يملي شروطه... لن اقطع الحبل السري بيدي... لا وحق «اوشحة مافة» لا لن اقطع حبل امي السري بيدي. سأبتعد... وسأتحين الفرص للعودة... ولا بد ان اعود الى دياري وبلدي ووطني... لا لن اسمح للروس ان ينزعوا عني جلدي... ولا اريد جنة العثمانيين... سأرى «ابن ماتكري» واقنعه ان ينضم إليَّ... لا جدوى من الموت مجاناً... لا اريد هذه البطولة... التهموا انتم التفاحة التي يقدمها لكم الباب العالي، ولكن حـذار ان تغصوا بها كما حدث لآدم... بعد السقوط يضيع طريق العودة... الى الابد...

اذا قيض لاحفادكم، أو أحفاد احفادكم ان يعودوا سيجدوننا بانتظارهم وصدورنا مفتوحة لهم!.

اندفع الرجلان نحو فرسيهما، وانفصل عن الجمع عدد أكبر من الذي تبع متكري، ولكنهم لا يقاسون بالذين بقوا، وابتعد ضجيج حوافر الخيل وساد صمت ثقيل.

نهض « باقوه » خلع كلبكه وامسك به بيسراه، خفض رأسه وتهدل كتفاه العريضان. كان صوته مختنقاً متحشرجاً وهو يقول بسرعة:

- هيا يا ابن كوندقة... لم يبق ما نتشاور عليه... اختر رسولاً للروس وابلغهم قرارنا بالهجرة...

توقف بعد أن قام بنصف استدارة ليتجه إلى موقع الخيل وقال وهو يميل بوجهه المنخفض ويحدق بالأرض، ببؤس:

- متى ننطلق...

اجبت بذات البؤس والانكسار...

- مع الفجر.

قال بنبرة أكثر ارتفاعاً واشد بؤساً ودون ان يرفع بصره عن الارض:

- فليذهب الجميع وليجمع متاعه من شاء الرحيل.

صمت قليلا ثم صرخ بكلمات سريعة كالطلقات وبصوت متهدج:

- على كل فارس ان يقتل فرسه قبل الرحيل... لسنا فرساناً بعد اليوم... فلا تتركوا رمز فروسيتكم لينتهكها العدو...

اندفع نحو مربط الخيل، وتبعه باقي الفرسان...

كانت « نانا » وامي تستمعان عند الباب وقد خفضتا رأسيهما... ارتفعت يد امي الى عينيها تمسح دموعها بسرعة، وكذلك فعلت « نانا »، مسحت انفها وعينيها بسرعة، واقتربت انت. بدا وجهك منهكاً تغزوه الغضون. قلت باقتضاب:

- علينا أن ننجز امورنا بسرعة. سنتحرك مع الفجر... طريقنا طويلة حتى نصل الى السفينة... ولكن اين تامر؟!.

انطلقت الكلمات مندفعة وكأنك لدغت فجأة وارغى وجهك وازبد:

- اين هذا الشقي!. سأضربه بالسوط... اذا توغل في الغابة قد يقع في

ايدي قوات استطلاعية للعدو...

هرولت «نانا» تتصل ببعض المجاورين... وخرجت انت ومعك عم «زوار» و«وسمان» و«حسن بي» للبحث عنه... كنا قد نسينا تامر جميعاً...

ومع المغيب عدتم، وكان الرجال الثلاثة يتقدمونك خافضي الرؤوس، وتبعتهم وأنت تحمل بين يديك القوتين تامر وقد تمزق صدره...

صرخت امي، واندفعت تركض صوبك بجنون وهي تضرب صدرها... ارتفع صوت «نانا» بالبكاء وهي تهرول خلف امي ، وكان «يلدار» يطل برأسه الاصلع من الباب حابياً وهو يبتسم وتظهر اسنانه الامامية الاربع صغيرة بيضاء في فمه كأسنان جرذ عابث، ولكن لم ينتبه اليه احد.

هرول الينا من سمع الخبر من الجيران رجالا ونساءاً... دخلت المضافة متجهم الوجه، واشرت للنساء، وقلت بلهجة آمرة:

- منذ متى ترتفع اصوات نسائنا بالعويل؟...

كفكفت امي دموعها، وأشرت لها بجزم ان تستمرا بحزم المتاع.

سألت أمي بسرعة وبصوت خفيض مرتجف:

- اين ستدفنونه... المقبرة بعيدة...

رفعت يدك باشارة صارمة:

- هنا... في الحوش.

وتحرك ثلاثة رجال بسرعة وبدأوا الحفر.

خرجت «نانا» تسأل بجزع وبصوت خفيض:

- ألن يغسل؟

رد أحد الرجال وهو يرفع التراب بالمجرفة من داخل الحفرة:

- قتله الاعداء... هو شهيد... والشهيد لا يغسل ولا يكفن.

يا للذكريات الجارحة... كم هو قبيح الشعور بالانكسار...

استرخت بين الوسائد ووجهها العتيق متجهم، وفمها القديم منطبق. همهمت بجفاف:

ـ احمل عنك اوجاعك...

فدتك عيوني تامبوت... أكمل سوسروقة... صوتك موجع بقدر ما هو رخيم... غن... غن سوسروقة يا ولدي.

سوسروقة بطلنا
سوسروقة ضياؤنا
ذو الترس الذهبي
المسربل بالحديد،
والشمس تلمع على قمة رأسه
ينطلق الى مجلس النارتيين
وتبقى ستناي
قلقة لا تدري ما تفعل
تشغل مقصها الذهبي
وتدعو سوسروقة ان يوفق في مسعاه

□ □ □

عندما يصل بطلنا سوسروقة
الى مجلس النارتيين
ترعد السماء

وتهتز الارض
فيجفل النارتيون
ويتراكضون ذعراً
ويقولون بصوت واحد:

ـ من الفارس القادم الينا
الذي جعل السماء ترعد والارض تهتز
وتصعد دماؤهم
غضباً الى عيونهم
ولكن عندما يرون الفارس
يقابلونه باحترام
وكعادة النارتيين القديمة
يصفون سبعة عمالقة لاستقباله:

يا بن سيدتنا ستناي
لقد عرفناك من مشيتك
عرفناك من طريقة ركوبكُ
لم نرك قبل الآن
ولكننا سمعنا باسمك
ما الذي جاء بك الينا؟
وما الذي اغضبك؟
وكيف جئتنا.
هيا تفضل الى مجلسنا، هيا ترجل
قل لنا ما بقلبك
ارنا كيف يرقص حصانك

واخلع جلدك الجميل[1]
وانظر الى مسابقاتنا
وحرك العابنا
لنجعل من يوم حضورك مجلسنا
يوما لا ينسى.
هيا حرك المطرقة
وجرب مقدرة « بنوقة » في الحدادة
واسكت « باكوج » النارتي
وهز النارتي الجبار « بشايا ».
اهلا ، اهلا سوسروقة
اننا نرحب بك
وقد كنا بانتظارك.
ويدخل سوسروقة مجلس النارتيين
محاطا بالعمالقة السبعة
ويبدأ النارتيون
بتقديم واجبات الضيافة
فيقوم النارتي « بنوقة » متعجلا
موحياً بأنه لا يهتز له جنان
ويقدم لبطلنا سوسروقة
كأس النارتيين
فيلقي سوسروقة الذي لا يهاب الموت
بلغة النارتيين القدماء

(١) يبدو ان المقصود هنا هو القميص المصنوع من الزرد والذي كان الفرسان يرتدونه للقتال وقد طلبوا منه خلعه لاشعاره انهم لا يريدون قتاله.

هذه الكلمة:
ـ انني ارفع هذا النخب،
من أجل ان يبقى كلام النارتيين مصوناً
وتبقى ضرباتهم صائبة،
ويبقى حاهم محمياً.
وتبقى شوكتهم ابد الدهر.
وبعد أن يشرب سوسروقة النخب دون ان يرف له جفن
يهب «كوكوج» النارتي
ويقدم الكأس الثانية:
ـ آه سوسروقة... ايها الند
هذه كأس النارتيين الثانية
وانت ابن الام الثانية
حصانك لم يعد يحتمل المزيد،
جبراً للخاطر يا سوسروقة
خذ مني هذا الكأس.
وبعد أن شرب سوسروقة
كأس النارتيين الثانية
قفز «بشايا» النارتي
وقدم الكأس الثالثة:
ـ سوسروقة، ايها النارتي الاسمر
يا من لا يتخاذل امام خمر العنب،
هذه كأس النارتيين الثالثة.
من يدخل الحرب لأول مرة،
من العادة ان يمسك برماح ثلاثة أعداء.

ومن يحضر المجلس لأول مرة،
من العادة ان يقبل ثلاثة اقداح
اذا كانت لديك يا سوسروقة الشجاعة، طبق عادات النارتيين
مع رنين جسمك الحديدي
وحرك بوابة النارتيين
وزلزل ارضهم
ودع كورسنا يرفع صوته [1].
هيا، هيا يا سوسروقة
اشرب الكأس الثالثة.
ويقف «نسرن جاكاه»
ويقول للنارتيين الذين وقفوا:
ـ يكفي، يكفي اذا شرب كأسين
وهل بيننا الكثير ممن يتحملون كأسين.
يكفي، يكفي ايها النارتيون
يا من يضيعون المبرزين.
ما هو الا فتى غض الاهاب
وما زال يخطو خطواته الاولى.
يكفي، يكفي ايها النارتيون
اذا استطاع ان يحمل الكأسين، فكثير.
ويعرف سوسروقة بقلبه
ما يريد «كوكوج» النارتي

(١) المقصود هنا ترديد اغاني المديح لتخليد مواقف وبطولات المبرزين في الالعاب التي كانت تقام ايام انعقاد مجلس النارتيين على غرار الالعاب الاولومبية عند قدماء اليونان كما يبدو من الوصف.

وما يحضر « بنوقه » النارتي،
وما يحضر « بشايا » النارتي،
وان هؤلاء النارتيين الثلاثة.
قد اتفقوا على،
ان يسقوه حتى يسكروه.
وانهم يأملون بقتله بعد ذلك.
لكنه يعرف،
أن من يخاف من الكأس التي مدوها له
ومن لا يشرب هذه الكأس ولو كانت مسمومة،
ومن لا يستطيع ان ينجو من ذلك السم
لا يعده النارتيون رجلاً.
سوسروقة فارسنا
يلقي كلمة ويشرب الكأس الثالثة،
دون ان يجلب عاراً.
ويصعد الى المائدة
ويرقص فوقها على عادة النارتيين
والمائدة لا تكفيه
فيصعد الى طرف الوعاء المليء
ويكمل رقصه.
ثم يقفز عن الوعاء دون ان يهتز الطعام
ويقول للنارتيين الجالسين:
- وي... ايها النارتيون، لكم السماء
ولي الندّ.
ايها النارتيون رضاكم

ايها النارتيون غضبكم.
سنلعب لعبة الفارس والراجل
لكم القفزة الاولى
ولي التالية

3

ليلة محفورة في ذاكرتي... اظن انها ستبقى حتى بعد موتي... ويضيق بها قبري..ايه... الجو منقبض والليل كئيب، ولقد تلبدت السماء فجأة. فمع مغيب الشمس بدأت الغيوم السوداء تتكاثف، ولمع برق باهر فملأ صفحة السماء الداكنة بالضياء...وهدر الرعد... ثم بدأ المطر ينهمر بغزارة وهو يملأ الصمت بهسيس حزين. بعض شقوق في السقف تسربت منها مياه المطر... ارتفعت الرطوبة، واجتاحني شعور بالصقيع فلم استطع النوم.

اذكر انك خرجت بعد دفن تامر. لقد اخذت مجرفة وامتطيت فرسك السوداء الاثيرة وانطلقت بها كالعاصفة، وانهمك من في الدار في تحزيم الامتعة. اخرجت امي ملابس تامر وفردتها كلها حولها ثم بدأت تغني وتنوح بصوت رفيع مهزوم متقطع... احسست بقلبي يهبط الى كعبي، وامعائي تنعقد بعقد مؤلمة، وشعرت بالخوف... مم؟ اعتقد من كل شيء. خوف لم اشعر به ابدا من قبل...

تمنيت لو تعود بسرعة لتنظر اليها نظرتك التي تجعلها تلملم فجيعتها وتلتف بها... ليتها تصمت.

اندسست بالفرشة. لم استطع النوم. اغلق اذني بابهامي لامنع نواح امي من التسرب الى دماغي، ومع ذلك يظل يضرب في الداخل كدمل ينبض بالقيح.

فجأة استيقظت... لقد زحف بجسده المحدودب تحت غطائي... صدره ممزق والدماء تملأ ملابسه، وجهه ويديه مخضبة بالدماء، وشعره الاشقر الضارب الى الحمرة ملبد بالدماء الجافة، عيناه مفتوحتان جفت فيهما نظرة دهشة حائرة، فمه مفتوح، صرخة ما انطلقت ثم تيبست واختنق بها، اطرافه جافة بتشنج.

لم اصرخ... عضضت شفتي السفلى... احسست بشيء مالح يسيل على لساني.

بدا وجهك صلدا جامدا كوجه ميت، ليس له علاقة بوجه انساني. كنت تنظف الدماء عن وجهه وشعره ويديه. اختلست نظرة الى عينيك، كانتا مفعمتين بالعاطفة المفجوعة حتى اعماق اعماقك...

صوت الرفوش وهي تضرب الارض، تنغرس في التربة السوداء الناعمة، فتنتفش بسرعة مذهلة، حفرة عميقة سوداء مستطيلة... صوت صلاة منغم حزين، مرة اخرى صوت الرفوش يهمهس ناعماً وهو يهيل التراب الطري الاسود.

بعدما اشتد الظلام ثمة طرق شديد على الباب، ضربات شديدة متسارعة، تسارعت ضربات قلبي، حاصرني شعور بالكآبة والتوجس، وتمدد الخوف في صدري. التففت على نفسي حتى اتصلت ركبتاي بكتفي، وخبأت رأسي تحت الغطاء. سمعت صوت خطوات، ولفحني وأنا تحت الغطاء هواء بارد، سمعت صوتك:

ـ هل انهيتم تحزيم الامتعة...

اخرجت رأسي ببطء كما تفعل البزاقة عندما تمد رأسها من داخل حلزونتها باستطلاع وحذر. كنتم اربعة رجال منقوعين بماء المطر حتى العظم، يحمل كل منكم في يماه كيساً ملطخاً بالوحل، وعبقت الغرفة برائحة الجلود عطنة رطبة، وتبادلت الحديث باقتضاب مع امي. قالت بذات الصوت الرفيع النائح المختنق بالغصات:

ـ هل تمكنتم في هذا الجو العاصف المعتم الماطر من اخراج...

وبترت جملتها. اجبت بهزة رأسك وحركت الكيس الذي في يمناك. سكنت امي وكانت تنظر الى الكيس مواربة مزروعة بشيء مثل الخوف... تمنيت ان تفلت يدك الكيس لأتسلل وانظر الى ما بداخله... شعرت بفضول لا يقاوم، ولكني مضطرة ان اتظاهر بالنوم حتى لا اصطدم بواحدة من نظراتك التي كنت احسها قاطعة كحد السيف الذي لا يفارق خاصرتك. سألك الرجال الثلاثة بغمغمة مبهمة:

ـ متى تتحرك القافلة؟...

ـ مع اول خيوط الفجر.. لا داعي للاصطدام بالقوات الروسية.

بعد منتصف الليل انتشر الدفء في اطرافي فاستغرقت في النوم. ولكن لم تلبث «نانا» ان ايقظتنا أنا و «جان». شعرت برغبة ملحة للبكاء، اريد ان استمر في النوم، انا تعبة حتى الموت. اردت ان اصرخ، ان اضرب الفراش الذي انتزعت منه بيدي وقدمي، ولكن عيني المغشيتين بالدموع ارتطمتا بوجهك الصارم الصامت، وحزنك الاخرس، فاختنق الصوت في حلقي... وانهمرت الدموع بصمت على صفحة وجهي. كان ضوء القنديل الباهت يلقي بظلال كئيبة على الوجوه، مددت يدك، مسدت على رأسي لحظة، احسست بأن وجعاً ما يقطر من بين اصابعك... انتشر الوجع في داخلي. نهضت بصمت، ناولتني امي معطفاً

ثقيلاً مصنوعاً من جلود الخراف الصغيرة، وانتعلت الحذاء المصنوع من الجلد المدبوغ الناعم، بلونه الاسود، وطرفه المعكوف الى اعلى من الامام.

كانت العربة الكبيرة المصنوعة من الخوص المجدول، تنتظر بعجلاتها الخشبية الضخمة، مربوطة الى ثورين اسودين قويين، ترتفع قرونهما الغليظة في الفضاء، كهلال خشن منطفىء. توقف انهار المطر الغزير... ولكن الجو كان مشبعاً بالبرودة التي يتحسسها الانف... والارض مملوءة بالطين. حملت انت وزاور ووسمان الصناديق الخشبية المرتفعة باغطيتها المزركشة في عربة، وفي الثانية مددتم جلود الخراف لنجلس عليها ونغطي ارجلنا بها، وكان هناك ما يكفي من المساحة للشعور بالراحة، ثم تكدست سلال المؤونة، اللحم المقدد والقاورما، أقراص الجبنة المستديرة المحززة بخطوط سلال القش، وقطع الحلاوة. جلسنا كلنا النساء والاطفال. سرحت بنظرة سريعة مرتعبة نحو الهضبة الصغيرة السوداء، القريبة منا... هل يبقى تامر هنا؟... الا يشعر بالخوف، بالبرد، بالوحدة؟... لماذا لا يصرخ من قبره منادياً «انتظروني... انتظروني... انتظ...

كنت امد اذني لالتقط صوت ندائه... ولكن لا شيء.

لماذا لا يزيح هذا التراب السخيف ويخرج من الحفرة منتصباً غاضباً ينفض التراب عن جسده وجراحه...

انحدفت امي بسرعة هناك قرفصت للحظة، تمتمت بشيء ما، وضعت شيئاً ما، صرته بسرعة ودسته في صدرها... ثم هرولت تلحقنا، كان كتفاها يهتزان بشدة، لم اسمع صوت نشيجها، ولكنها كانت تمسح انفها ووجهها باستمرار، احتضنت يلدار الصغير الذي اخذ يرغي كخروف صغير، اعطته ثديها ولفته جيداً.

جلستَ في المقدمة لتقود العربة، وامتطى زاور ووسمان فرسيهما

وامسك زاور بعنان فرسك السوداء الليلية الاثيرة...

التفتت « نانا » الى اسطبلات الخيل والماشية والمخزن الكبير الذي كان يطفح بالحبوب حتى السقف... ثم انتقلت انظارها الى أقنان الدجاج والبط والاوز والحبش. كانت الديوك قد بدأت تنفض اجنحتها بقوة، فيسمع لها حفيف قوي في العتمة والصمت، ثم يرتفع صياحها المبشر باقتراب الفجر.

دوى انفجار بعيد، وتبعه صوت اطلاقات، كانت تسمع بشكل متقطع، والتماعات سريعة كالبروق تبدو بين الحين والآخر تصاحب صوت الانفجارات والاطلاقات في الافق المعتم خلفنا... سألت « نانا » عن ذلك، ولكن لم يجبها احد، وتمتمت لنفسها بغضب:

ـ الآلة الجهنمية هذه... احرق الله وجه مخترعها ومستعملها، انها تنشر الموت اينما انفجرت!.

في الافق البعيد ظهر لسان وردي ناعم كلسان خروف صغير، بدأ يلحس العتمة ويبتلعها... الطريق الضيق يمتد بين الغابات. بدت الاشجار الضخمة في العتمة الشفيفة كأشباح عملاقة تراوح مكانها ناعسة. اينما مددت بصري ارى اشجاراً، اشجاراً، اشجار الجوز المنفوشة، اشجار الصنوبر المقشعرة، السرو الطويلة بقممة المدببة، عرائس الحور تهز اعطافها مختالة برشاقتها واخضرار اوراقها الزاهية... اشجار عارية بدأت تفجر براعمها الخضراء، اشجار التفاح والخوخ والدراق والمشمش واللوز باغصانه شبه العارية وينتشر على جسدها غلالة من النوار الثلجي والوردي والارجوان... عطر غامض فواح ينتشر في الجو... وقفت ممسكة باطراف الخوص وانا اتطاول على اطراف اصابعي... مررنا بشجرة هائلة في ارتفاعها وامتدادها وكانت الاغصان تنسدل جدائل طويلة ناعمة...

انها عروس تفرد جدائلها الخضراء للفجر... اينما مددت بصري ارى غابات وأحراشاً، وقمماً بعيدة شاهقة تبدو كتلة هائلة من الاخضرار... نظرت الى الارض فكانت بساطاً اخضر ندياً تتخلله بحيرات وجداول صغيرة من الماء.

بدأت تظهر العربات في الطريق من كل جهة... ولم تلبث ان انتظمت قافلة طويلة، وارتفع صوت نشيج منغم:

ـ اول شام... آخر شام...

لقد تمزقت الاسر، وتفرقت العائلات... ابنة متزوجة يرفض زوجها الخروج... اخ مع عائلته قرر البقاء... عجائز وشيوخ قرروا البقاء والموت على ارض الوطن... لم تبق اسرة لم تتمزق بين الخروج والبقاء... وتمزقت معها القلوب والعواطف... الكل ينشج نائحاً، انه فراق الموت... لا عودة الى الوطن بعد ولا رؤية للأهل.

ازداد طول قافلة العربات وامتد، وتبعثرت مجموعات المودعين تركض وراء العربات... النساء يلوحن بمناديلهن وينوحن، والرجال تحترق الدموع في مآقيهم... ومن بين العويل ترتفع الاصوات مختلطة نائحة، اصوات الرجال مع النساء مع الاطفال وكأنهم في يوم الحشر:

ـ اول شام... آخر شام.

ويبقى المودعون يركضون خلفنا حتى ابتعدت القافلة ولم نعد نرى لهم اثراً... واستمر الموكب الطويل الحزين يسير مع الفجيعة... وكان هناك عدداً من الفرسان يسيرون حولنا ولم نعرف أكانوا معنا او انهم يودعوننا الوداع الأخير...

شمس الربيع تتسلل الينا من بين الاشجار الكثيفة السامقة، ناعسة ذابلة، تتململ في خدرها بكسل، نحن منهوبون من وجع الاحداث

والفجيعة، والصباح يطل علينا جديداً فتياً ينبض بالحياة، والكون من حولنا يتفجر بالخلق... الاشجار الخضراء تتألق في الفضاء تطل علينا من اعاليها البراعم غامزة لاهية لعوب، تلعق قطرات الندى وتحدق في فجيعتنا باندهاش... فراشات تحلق من حولنا متباهية باجنحتها البيضاء الثلجية... وتحدق فينا ابقار امتلأت ضروعها بالحليب بحيرة وانتظار، ان تمتد الايدي تفرغ ثقل الضروع الطافحة. عنزات سمراء وبيضاء ذات أصواف حريرية تتقافز حولنا وتناطح الهواء بقرونها الصغيرة... تتعب العين وهي تلاحق كل هذا الاخضرار والتوهج والامتلاء بالحياة.

مهما كان الحزن ثقيلا، للحياة شروط لا تتنازل عنها...

انتصف النهار وبدأت الشمس تميل الى العصر. بدأت حركة القافلة تتباطأ ثم توقفت بين الاشجار وهبطت الجموع من العربات وعن ظهور الخيل. اخذ الكل ينفض الايدي والارجل ويتمايلون كدجاجات تزاحمت البيوض في احشائها.

تفرق الرجال يقفون عند جذوع الاشجار يبولون... وأما النساء فأمورهن اصعب، انهن يخضن بالوحول مبتعدات ليقرفصن خلف الاشجار الصغيرة المنتفشة وبين الاعشاب والحشائش الطويلة، والكل يتجه حيث ينابيع الماء تتدفق من بطون الجبال... هل الجبال تتبول ايضاً؟

تفرق الكل مجموعات بين الاشجار يمدون الطعام على الاعشاب وبين الحشائش، أكل الرجال قليلا... واقتطعت النساء بعض اللقيمات، اما الاطفال فقد اكلوا كثيراً وبشهية... ولاحقنا الفراشات، وركضنا خلف الضفادع، وقطعنا بعض الازهار الجميلة، ولم ينهرنا احد... كان الكل منهزمين حد الانهدام... فلم يقوَ احد منكم على أن يفتح فمه صارخاً بالاطفال المتراكضين كالارانب.

عدنا الى غرف الخوص المترجرجة... استندت بظهري مائلا الى خلف العربة.. اخذت ارقب قمم الاشجار السامقة وهي تتشابك في الفضاء او تمتد اغصانها وتطل علينا بعيونها الخضراء من فوق العربة التي بدون غطاء مئات من الطيور السوداء تماوج فوق قمم الاشجار... استسلمت لاهتزازات العربة الرتيبة، ولقعقعتها المتواصلة.

استيقظتُ عند منتصف الليل، كانت العتمة حالكة، خيل إليّ أن النجوم تفتح عيونها على اتساعها لتحدق فينا متجهمة عابسة... كان اتساع الفضاء وبعده مخيفاً، على طرف من هذه السماء اللامتناهية كان هلالاً هزيلاً ينوص بضوئه المتلاشي، أحسست حولي انفاساً تتردد، وازداد احساسي بالخوف. كان علي ان اتذكر كل الاحداث التي مررنا بها لأعرف اين انا... رفعت رأسي وانا طافحة بالخوف لأتبين مصدر الانفاس... هل هي اشباح؟... لم استطع ان اتبين اى وجه. تسمرت لحظة من الخوف وانا لا استطيع ان اتحرك... ثم مددت يدي بحذر، هذا جسم يتكور بجانبي، تحسست الوجه، هي ذي جدائل جان... تنفست الصعداء...

امسكت بموجة من الشجاعة...

مددت يدي الى الخلف بحذر اقل، وخوف اخف... رأس حليق... رأسان... انها اولاد العم زاور... وترتطم قدمي التي مددتها بجسم صغير طري... اتحسس باطراف اصابعي امتداده... انه صغير... هو يلدار... وتامر؟... وانتصب امامي بصدره الممزق الدامي وفمه المفتوح بتساؤل، وعيناه المندهشتان... قال بعتب «انتم تركتموني... ولكن لم استطع البقاء وحدي... ها انا قد عدت... قد عدت... قد عـ...
خبأت رأسي تحت الغطاء، والصقته بظهر جان، ونمت.

ولكن لم اشعر الا والغطاء يرتفع عن وجهي. سمعت صوتاً يناديني:

مسره خان... ناشوخة... ناشوخة... افتحي عينيك.. انظريني... هل انت خائفة مني... انا بردان ونعسان وخائف من ظلمة القبر... ابتعدي قليلا... لانام بجانبك... اريد ان احس بجسم دافيء قريباً مني... لا تدعي الوالد يعرف شيئاً... سيغضب ان عرف انني شعرت بخوف... افسحي لي مكاناً لانام بقربك...

ابتعدت، وتمدد بيني وبين جان... سألته وانا أغالب دموعي:

ـ ولكن... لماذا جسمك هكذا محدودب؟...

ـ عندما اصابت الرصاصات صدري تمزق جسمي واحسست ان روحي بدأت تخرج من هذه الفتحات... انحنيت احاول اغلاقها لأمنع روحي من الانسلال بعيداً عني... لماذا تتوق الروح الى الانطلاق بعيداً عن الجسد؟... لا اعرف... اردت ان امسك روحي ولكنني لم استطع... انسلت بعيدا وتركتني غريباً يبحث عن خيط من الضياء... دفئيني «ناشخوه» ها انا قد عدت... قد عدت...قد عـ..

حاولت ان المس جسده، كان بارداً، بارداً... رياح من اصقاع جليدية انجمدت تحت جلده...

استيقظت وانا ارتعش، تكورت على نفسي ونمت.

مضى اسبوع على هذا الحال، في النهار عندما ننزل من العربات اركض وراء الفراشات واتبع نقيق الضفادع واقطف الازهار ويذهلني الاخضرار الممتد اينما نظرت... وفي الليل يوقظني يلدار بالدهشة التي انجمدت في عينيه، والصرخة التي تيبست على فمه المفتوح يحمل وحدته وخوفه ويطلب مني ان ادفئه وأنومه...

في اليوم السابع كنت اقف على اطراف اصابعي واطل برأسي وانا

اتشبث بحافة القصب المجدول، والعربات تنحدر عن طريق جبلي متعرج ممتلىء بالاشجار المثمرة وغير المثمرة بينما بناتات ذات اوراق كثيفة تشبه اوراق الدالية، ولكن بوريقـات اصفـر، يـانعـة الاخضرار تتسلـق على الاشجار الضخمة ثم تتهدل اطرافها خضراء متماوجة تملأ البصر... ومن بين الاذرع الخضراء المتشابكة هناك في السفح لاحظت وجود بقع زرقاء ضيقة، اخذت تتسع وتمتد... هل تثاءبت السماء ضجرة ومددت اطرافها على اليابسة؟... ولكن هذه الاطراف الزرقاء تتسع وتقترب... انها تتماوج؟... يا للهول... هذا هو البحر... لقد وصلنا... لقد وصلنا... كم هو وسيع هذا البحر... انظروا... انظروا... انه كصدر الرب، واسع بلا نهاية... لقد اقتربنا... وصلنا... وصلنا... اريد ان اتدلى... اتدلى قليلا... سوف أكمش من عرفه الابيض المتطاير كمشة واخبئه في صدري...

بدأت اقفز واصفق، واصرخ «انظروا... انظروا...»

نهرتني امي ولكني لم اسمع... كان انفعالي أكبر بكثير من ان يوقفه انتهار.

قرصتني امي في ساقي... احسست انها اقتطعت قطعة من لحمي... انخرست، وانا انظر اليها بحدة.. لم أعرف ماذا فعلت لاستحق هذه القرصة اللعينة... استدرت وانـا اتشبـث بطـرف الخوص وانـا ابـربـر بالسباب بصوت خافت... لقد تحول فرحي الى غضب.

شاع الدفء في الجو ، والشمس تسطع ببهاء تنظر الينا باسمة من خلال خارها الذهبي المتوهج. كنا نسير بقرب البحر اكاد اجن، لو انني كنت اكبر قليلا إذن لانثنيت خارجاً واختطفت قطرات اللؤلؤ الذائب ذاك... لقد اتسع صدر الله وامتد حضنه بلا حدود... ليتني اقفز الى

اعماق هذا الحضن المتماوج واتمدد في دفئه... كتلك المخلوقات الوردية التي تشبه حبات فطر ضخمة شفافة متماوجة تنسل نابضة متماوجة بين امواج البحر.

وصلنا الى الميناء، نزلنا إلى ساحة واسعة، على طرفها الغربي مبنى خشبي فيه بضعة اشخاص وجوههم صارمة لا تنفرج اساريرها لاحد، ولا يتوقفون عن الرواح الى الساحة الكبيرة المليئة بالامتعة والصناديق والصرر، ورجال ونساء يجلسون بين الامتعة بوجوه شاحبة متعبة ... وفي البحر على بعد غير قليل يربض جسم مستطيل مرتفع له اشرعة بيضاء وصوارٍ، وعلى الجسم الطويل كوى صغيرة مستديرة متتابعة. كانت المياه تحيط بها من كل جانب وهو طاف على السطح.

بقينا ثلاثة ايام بلياليها، في الليل تشتد البرودة، ويتساقط الندى فيترطب كل شيء. يبقى الرجال وبعض النساء جلوساً بين الامتعة وهم يلتفون بالبرانس الصوفية «الشاكوْه». واما الصغار فكنا ننام بالعربات التي اطلقت ثيرانها، فصفت بمقدماتها المائلة، مما كان يسبب اوضاع متعبة عند النوم. كان الندى يتساقط على وجوهنا واغطيتنا، فيتشبع الجو بالرطوبة والبرد القارس فلا ندفأ الا عندما نتلاصق كالقطط الوليدة، على بعضنا فنغفو.

في النهار كنا نستمتع بالشمس وبالدفء، نركض الى الغابة التي لا تبعد الا بضعة امتار عنا، ولكن الطعام كان شحيحاً... ولهذا لم يقلقنا كثيراً التخلص من الفضلات... فلم يكن في الجوار اى مرحاض، وكان الكل يتخلص من اموره تلك عند الاشجار وخلف الشجيرات ثم نغسل ايدينا ووجوهنا بماء الينابيع ونستقي منها.

في اليوم الثالث نقلتنا قوارب صغيرة مترجرجة الى السفينة. تكدست

الامتعة والاجساد على السطح، وفاحت رائحة الاجساد القذرة، والملابس المتسخة والانفاس المحشورة جعلت رائحة الباخرة كلها نتناً وزنخاً.

عندما نقلنا بالقوارب عاد الغناء النائح يرتفع: «اول شام... آخر شام...»

جأرت السفينة، ثم تحركت ببطء وبدأت تبتعد شيئاً فشيئاً عن الشاطىء وهي تجر خلفها ذيلا من التخاريم البيضاء ومن الزبد...

السفينة تبتعد، صوت بكاء المودعين وعويلهم يخفت تدريجياً ويبقى الرجع وصورة الايدي ترتفع تارة ملوحة بالوداع واخرى تخفي الاعين الماطلة دمعاً.

وابتعد القبر الجماعي العائم ذاهباً في عرض البحر، وابتعدت الصورة رويداً رويداً... وتغبشت الرؤية... تضببت، تراجعت... تراجعت، ثم اختفت.

وقفتَ بقامتك المديدة على ظهر السفينة، وللمرة الاخيرة التفت مفجوعاً تلقي نظرة الوداع على ارض الوطن... انحبست الدموع تملأ عينيك، وانحدرت متلاحقة تنسكب كينبوعين متواصلين ثم تختفي بين شعر لحيتك الطويلة الممسدة الشهباء التي تبللت كلها بالدموع... وتلك كانت المرة الثانية التي اراك فيها تبكي في هذا اليوم النحس... والوحيدة التي رأيتك فيها تبكي دون ان تأبه بوجود الناس حولك...

في الصباح الباكر عندما ذهبت مع فرسك «فتسه» ـ السوداء ـ للمرة الاخيرة الى الغابة تبعتك خفية، مسدت النجمة البيضاء قبلتها، قلت لها مفجوعاً:

ـ لا بد من ذلك فتسه... لا بد من ذلك... يدي تأبى ان تنصاع،

وقلبي ينسحق... ولكننا كسرنا من وسط الظهر... لا استطيع ان آخذك معي يا رفيقة الرجولة... ولا استطيع ان اتركك لايدي الغرباء والاعداء... نحن نمضي الى المجهول، حيث ننسل من اكفاننا ونضيع شواهد قبورنا... ارقدي هنا بسلام، وسألتقي بك هناك ذات يوم... لا اعرف متى آتي اليك... ولكني آت... آت أكيد... فلا تسبقيني ان تأخرت عليك فتستبدليني بفارس آخر... رفيقتي فتسه... سامحيني...

كانت الدموع تسح على وجهك وكأنها تندلق من فوهات قِرَب، خفضت رأسها، وكأنها تستعجل مصيرها. اطلقت رصاصة على النجمة البيضاء... انفجرت الدماء من النجمة وتمددت بجسمها الكبير الرشيق، نظرت اليك بامتنان وجسدها يختلج، ثم همدت وفي عينيها دموع... اجهشت بالبكاء كطفل.

انسللت انا بهدوء، وتركتك وحدك معها قبل ان تلحظ وجودي... وها أنت ذا تبكي الآن امام كل اولئك الرجال والنساء والاطفال فلا ترفع يدك حتى لتخفي دموعك... على كل كان كل الرجال يبكون، ولم ينتبه احد لآخر، كانت الخسارة أكبر من الحرص على الكرامة والرجولة.

السماء زرقاء... البحر ازرق... اعراف بيضاء مخرمة تمتطي رؤوس الموج... دلافين عابثة تتقافز فوق الموج... مياه زرقاء ماسية بدون مدى وبلا حدود...

مر الاسبوع الاول، ثم الثاني، كنا نصل الى موانىء ثم نبتعد دون ان يسمحوا لنا بالنزول... اصفرت الوجوه وهزلت الاجساد، وتشعثت الرؤوس... الوجوه تطفح بالقذارة، والايدي متسخة زنخة والاظافر مسودة...

اصيب احدهم باسهال وتقيوء لمدة ثلاثة ايام، ثم شاهدت جسماً

ملفوفاً بخرق يقذف بالبحر... وانتشر الذعر... وانتشر المرض... قيء، اسهال، واجساد تتلوى من الالم والحرارة... ثم جثث تقذف في البحر... واخذت الوجوه المألوفة تختفي.

لاحظت جسد امي منحنياً ذات صباح، وجهها في اصفرار ورقة جوز جافة. انقبض شيء ما في داخلي واحسست بقلبي ينسحق عند كعبي، وانا اراها تتحرك كشبح وهي تضم يلدار الى صدرها وكأنها تحيل كل جسدها الى رحم يحيط به. فمه ومؤخرته يسيلان بسائل اصفر لزج برائحة منتنة... ازدادت استدارة جسدها حوله، وازداد تشبثه بها... وبدأت تتقيأ وتركض الى المرحاض... حاولت ان تبعدنا عنها، ولكني لم استطع ان امتنع من التلصص عليها وانا اتفتت من الفزع... كنتَ تغسل وجهها ووجه الصغير وتسقيها ماء وكانت تلوح بيديها متوسلة ان تبتعد. سمعتها تتوسل اليك:

- بحق الله انج بنفسك... نحن انتهينا... إعتنِ بجان ومسره خان، سأعتني أنا بالأولاد، تامر ويلدار... كنت ابكي وانا اراقبكما من بين الامتعة... يبدو ان يلدار قد مات. كان جسدها يتقلص وينتفض... بقيت فترة كذلك... لم تبتعد عنها... وكانت «نانا» والعم زاور ووسمان يحيطون بها ايضاً... ابتعد عم وسمان عنكم قليلا شاهدته يتقيأ وجسده ينتفض بتقلصات عنيفة... سيرافقها إذن...

اشتبكتم مع القبطان. اثنان من البحارة ارادا ان يرميا امي مع يلدار قبل ان تموت، ولكن ايديكم امتدت مرعدة الى ال«القامات» المعلقة وسط خصوركم وبرقت عيونكم غضباً، فتراجعوا وهم يرطمون شتائم لم نفهمها باللغة التركية. عند منتصف الليل صليتم عليها وهما ملفوفان «بالبرنس». اغمضت عيني بفزع وانا اسمع صوت الصلاة المنغم مرعوبة، ثم سمعت

صوت جسم ثقيل يرتطم بالماء.

لم أسأل عنها بعد ذلك، كنت اتحاشى ان اتذكر، ولكن الحوادث المفجعة تحولت الى كوابيس تملأ ليلي رعباً.

بدا واضحاً ان العم وسمان في طريقه للانضمام الى سكان البحر... بعد ثلاثة ايام، وعند الفجر، استيقظت على صوت الصلاة المنغم، ثم صوت ارتطام جسم ثقيل في الماء. اخفيت رأسي تحت الغطاء وعدت للنوم... رأيته يتخبط وسط اعماق مظلمة عميقة. كانت اسماك كبيرة تفتح افواهها وتحدق بعيون مستديرة لا تطرف وهي تحيط به... كان يصرخ وينادي عليك وعلى عم زاور وهو يهذي:

ـ انا لم امت... وتدفعونني الى الماء وانا حي... اللعنة... اللعنة... انقذوني... السمك... السمك المتوحش ينهش جسمي... هذا مؤلم يا اخواني... هذا مؤلم.

شاهدت الدماء نوافير، نوافير، كما تدفق من جبهة «فتسه». تلطخ الماء... اخذت اصرخ واصرخ... واصرخ... استيقظت ونانا ترطب وجهي وعنقي بقطعة قماش مبللة، تجمدت من الفزع... انها قطعة من ملابس يلدار... تراءى لي وجهه الشاحب وخط القيء الاصفر يسيل من طرف شدقه ويتساقط على كتفه الايسر... كانت عيونه مستديرة لا تطرف كعيون السمك... فتح فمه، كان مليئاً باسنان صغيرة رفيعة حادة... عدت اصرخ من جديد، نانا تقرأ اية الكرسي، وتنفخ على وجهي، امتدت اصابعك كبيرة تتحسس جبهتي ثم تنهدت ببعض الراحة. ويشوب صوتك القلق وانت تتمتم:

ـ لا توجد حرارة... جسدها قوي، وروحها كالعاصفة... لا اعتقد انها مصابة بالمرض... ربما كوابيس... كوابيس من شدة العناء...

ونمت بهدوء وانا استسلم للمساتك على جبيني ووجهي ويدي.

لم يبق الا ربع المسافرين، والموانيء ترفض نزولنا خوفاً من الوباء القاتل... واخيراً سمحوا لنا بالنزول بعد ان توقفت الاصابات... وجمعونا في احد مستودعات الحبوب الفارغة. بقينا مدة شهرين في حالة من البؤس والتشرد... استنفدنا كل المؤونة المتوفرة، وبدأنا ببيع بعض الامتعة... ملابس امي ونانا، الاحزمة الفضية والذهبية المشغولة بصناعة رائعة، ثم امتدت ايديكم الى الامتعة: الاباريق الفضية والاواني النحاسية والاطباق ثم الى البنادق... والاسلحة واحداً بعد الآخر...

استطعت ان اجد، في احد الايام، ذلك الكيس الملطخ بالوحل الذي حملته ليلة سفرنا في تلك الليلة الماطرة، عندما عدت منقوعاً بماء المطر، ولاحظت انك شديد الحرص على اخفائه دائما بين الامتعة بعيداً عن اعيننا وأسئلتنا... وعندما تحاصرك الفواجع تمسك به في الليل، عندما تكون وحدك، تضغط عليه بصدرك العريض القوي...

احسست كمن وجد كنزاً... فتحته باصابع ترتجف من شدة الانفعال... فاجأتني جمجمة بيضاء خالية من اي سوء، بمحجرين معتمين، وفكين عاريين حتى آخر ضرس فيهما... وفاحت رائحة جلد عتيق... قفزت صارخة برعب، ولكن لم البث ان عدت اتفحص المحتويات: انها عظام... عظام ميت... ذلك هو الكنز الذي حملته معك من البلاد، وتحرص عليه حرصك على حدقات عينيك. وانضم الى كوابيسي الليلية جدك يأتيني عظام عارية تقرقع مفاصله ويضحك هازئاً بشدقيه العاريين البيضاوين واسنانه الكاملة المكشوفة تطقطق، ويحدق بمحجريه الفارغين المظلمين وهو يقترب مني ماداً الي ذراعيه العنكبوتيين، فأصرخ... واصرخ... واصرخ... فتقرأ «نانا» آية الكرسي» و «الفاتحة» و«قل

هو، وتنفخ على وجهي حتى اهدأ وانام.

مات الاكبر سناً بيننا من قلة الاكل... ومن الآلاف الذين هجّروا لم يبق الا بضعة مئات اخذوا يتناقصون من الموت جوعاً. وانتشرت القبور التي ضاعت معالمها مع الزمن هنا وهناك... فضاع موتانا. اما عظام الاجداد التي جئت بها معك، فقد بقيت في حرز امين، تحملها معك في تنقلنا القاسي في جنة عدن العثمانيين.

4

- وروح امي اثقلتني الذكريات... فلنتوقف قليلا عن اجترار الالم... تامبوت... فدتك عيوني... اروِ لي شيئاً جميلا... شيئاً من اساطير الاولين... متشوقة لسماع شيء يبهج القلب.

- يروون يا ناشخوه الجميلة، ان النارتيين كانوا يملكون شجرة ذهبية.. تلك الشجرة الذهبية لم تكن عادية، كل يوم كانت تحمل تفاحة تنضج في المساء. ولتلك التفاحة صفات عجيبة، كان نصفها احمر قانياً، والنصف الآخر ناصع البياض[١]

المرأة العاقر
ما ان تذوق النصف الابيض
حتى تضع بنتاً
شعرها بلون الحرير الذهبي
وما ان تذوق العاقر
من النصف الاحمر
حتى تضع ولداً ابيض

---

(١) قصة مولد «وزومج ويمس» ملاحم النارت الشركسية.

ولداً نارتياً.

ولكن النارتيين لم يتمتعوا بتلك التفاحة، فقد بدأت تسرق ليلا، ولم يستطيعوا معرفة السارق.

- ما الذي ينبغي عمله الآن؟ تساءلَ النارتيون في المجلس الذي عقدوه.

- يجب ان نضع حارساً - قرروا...

وضعوا حارساً، ولكن ذلك لم يجد شيئاً؛ فقد استمرت التفاحة في الاختفاء كل ليلة.

سياجاً من الشوك يجب ان نقيم حول الشجرة. - قالوا، وبنوا سياجاً من الشوك حولها ولكن ذلك لم ينفع ايضاً، فقد استمرت تختفي كل ليلة.

- سنحيطها بجيش من الفرسان. - قالوا

وأحاطوها بجيش من الفرسان، ولكن دون فائدة، فلم يستطيعوا ان يروا، لا قدمي السارق، ولا آثار اقدامه.

وهكذا استمر الحال طويلاً.

«تاتموقه» النارتي كان له ولدان، أكبرهما اسمه «بجه»[1] والاصغر اسمه «بزغش»[2]. وقد اشتهر الاخوان بسهميهما اللذين لا يخطئان هدفاً وسيفيهما البتارين. وذهب الاخوان ذات ليلة ليحرسا شجرة النارتيين الذهبية، فنام الاكبر الذي ربما كان متعباً اكثر، بينما بقي الاصغر يقظاً وقد هيأ سهمه في قوسه. فجاءت ثلاث حمامات وحطّت فوق شجرة

(١) يفيد الاسم معنى الطاعن.

(٢) معنى الاسم (القاطع).

النارتيين الذهبية.

ـ ما الذي ينبغي عمله الآن؟ قال لنفسه، ولكنه اطلق سهمه دون ان يطيل التفكير. جرح واحدة من الحمامات.

طارت الحمامات الثلاث واختفت معهن التفاحة الذهبية.

ومسح «بزغش» النارتي الدم الذي سال من الحمامة الجريحة بمنديله الابيض وايقظ اخاه الاكبر، هذا ما حدث. ثم اخبر اخاه بما جرى، وتبعا اثر الدم الذي تركته الحمامة الجريح في طريقها حتى وصلا الى شاطىء بحر «وطو»[٣] حيث ضاع الاثر هناك.

ـ قال ها. قال «بزغش» ـ انت وانا ولدتنا ام واحدة واب واحد. اذا عدنا دون ان نكتشف السارق فليس ذلك بحقنا ولا بحق امنا وابينا. الحمامات الثلاث اختفت في هذا البحر، سألحق انا بها. اما انت فانتظرني على الشاطىء. انتظرني عاماً ـ فاذا لم اعد اعتبرني ميتاً.

ـ حسناً. اذهب وابحث في صدر البحر وقعره. رافقتك السلامة ـ قال الاخ الاكبر.

ضرب «بزغش» النارتي البحر ففلقه ونزل الى قاعه. وانطلق يبحث طويلا حتى صادف بيتاً جيلا محاطاً بفناء كبير. وما ان دخل البيت حتى استقبله سبعة اخوة متشابهين كأنهم صبوا في قالب واحد.

ـ تحية ـ قالوا له ـ ووقفوا قبالته لخدمته.

ودخلت فتاتان، احدهما تحمل ابريقاً ووعاء، والاخرى تحمل منشفة بيضاء وقامتا بخدمته ليغتسل.

---

(٣) الاسم الشركسي القديم للبحر الاسود.

وعندما احضروا المائدة تبين ان عليها، الى جانب الاصناف الاخرى المثيرة، تفاحاً من شجرة النارتيين الذهبية.

ـ « ها، ان ما يحدث الآن لحسن جداً ». ـ قال الشاب النارتي لنفسه وهو في مجلسه... يبدو انني وصلت الى المكان الذي ابحث عنه».

اطعموه وجلسوا معه، وقضوا وقتاً ممتعاً؛ وبعد ذلك:

ـ نحن ابناء الحورية « بسه تحه »[1] عددنا سبعة اخوة وثلاث اخوات.

ـ قالوا للنارتي ـ هاتان اللتان تراهما اختانا، اما الثالثة فلا تستطيع ان تقابلك الآن.

ـ ما بها؟ ربما أستطيع مساعدتها. قال « بزغش » النارتي.

سنخبرك عن امرها ايضاً اذا لم يكن ذلك غير لائق. ـ قال ابناء الحورية « بسه تحه ».

ـ اخبروني. ـ قال الضيف.

ـ كان من عادة الاخوات الثلاث الطيران في هيئة حمامات نارتية لتبحث كل واحدة عن شريك لحياتها. وقد دأبن على احضار التفاحة اليومية التي تنمو على شجرة النارتيين الذهبية، ولكن احداً لم يلحق بهن حتى الآن. وفي آخر مرة طرن بها، جرحت الحورية « مغزش »[2] وهي ترقد الآن في فراشها وجرحها ينزف بانتظار دوائها. ـ قالوا له.

ـ وما هو دواؤها؟ ـ سأل النارتي.

ـ من الصعب ان تجد دواءها. ـ قالوا ـ فدواؤها قليل من دمها الذي سال في ارض النارتيين.

(١) آلهة المياه.

(٢) الاسم يفيد معنى طاردة السأم.

ـ اذن ـ قال النارتي ـ انا املك (شيئا) من دمها الذي سال منها.

ومد يده الى جيبه واخرج المنديل الابيض الذي كان قد مسح به دم الحمامة. وعندما بلوا المنديل ووضعوه على جرح الفتاة، شفيت الحورية الجميلة «مغزش» تماماً.

وفرح ابناء الحورية «بسه تحه» لذلك:

ـ اعماق البحر ووجه الارض سيان لديك.

لم نر رجلا من قبل مثلك. ـ قالوا.

اختر واحدة من اخواتنا الثلاث وسنزوجك بالتي تعجبك.

ـ اذا كان الامر كذلك ـ قال النارتي ـ فأنا افضل التي شفيتها.

ـ التي شفيتها هي الحورية «مغزش». الحورية «مغزش» حلال لك ـ هكذا قالوا له، وزوّجوه اصغر الاخوات الثلاث.

وهكذا التقى الشابِ القادم من الارض، والحورية التي تعيش في المياه العميقة، وصارت بينهما قرابة نسب.

اكرموا «بزغش» النارتي ثانية، واقاموا له الولائم تقديراً له، وودعوه مع الحورية «مغزش».

عندما صعد «بزغش» النارتي من اعماق البحر، وجد «بجه» النارتي بانتظاره فقال له: «كل شيء يهون بعد ان عدت حياً». واحضروا معهما العروس، وعاد ثلاثتهم الى بيتهم. وأقام النارتيون لهم الاحتفالات والولائم وحلقات الرقص سبعة ايام متواصلة بلياليها، وقدموا لهم كل ما امكنهم تقديمه من آيات التكريم.

عاشا معا، ووضعت الحورية «مغزش» ولدين توأمين: احدهما سموه «وزرمس» والآخر اطلقوا عليه «يمس».

ويروي الشراكسة القدماء ان وزرمس ويمس كبرا وصارا رجلين بارزين يحتلان الصدارة في ارض النارتيين.

استلقت بين الوسائد، مسحوبة الى اجواء غير مرئية، بدت وكأنها تحاول ان تلتقط الصدى، بعد ان ضاع الصوت. ولكن فجأة انتفضت كمن استيقظت من حلم، اصاغت السمع بتبرم وقالت مبرطمة:

- ايـ...ـه الا تستطيعوا اسكات هذا البكاء... ارجوك «باباج».

لانت تعابير وجهها وهي تقول بتوسل:

- انت تتقن ذلك... نعم. تتقن ذلك... الا تذكر، عندما كنت تأتي اليَّ متسللاً هاربا من زوجتك... كانت تمنعك من المجيء عندي.. وكنت أنا دوماً منهكة مرهقة حد الموت.. كان ذلك «حسن» الصغير، فتتلقفه بين ذراعيك، كان يغفو بعض الوقت، فأنام قليلا... كم كان بكاء صغيري المتعب... عندما جاءت النسوة لتعزيتي كنت اخطف نفسي الى المرحاض... وكما هي العادة كان في آخر الحوش... اخطف نفسي هناك، وبعد ان اغلق الباب، امسك فمي وحلقي لأمنع قهقهاتي من الانطلاق، واتمتم فرحة وانا اخض نفسي بجذل... «استطيع ان انام الآن... استطيع ان ... انام... الآن. وكنت اكتم ضحكي لانك لا تستطيع ان تراني.

ارجوك «باباج» اسكته... انت تستطيع ذلـك...انـا اعـرف انـك تستطيع... انا تعبة... تعبة جدا... اريد ان انام قليلا... ولكن من هو هذا الصغير البكاء... واين امه الحمقاء؟.

انزور! من يكون هذا الطفل البكاء الذي تحمله؟ قل لي، هل هو ابنك؟. اين امه الكسولة؟. لماذا هو وسخ... ولماذا ملابسه ممزقة؟. ياوي جشه[1] اي ام هذه التي تهمل طفلها هكذا... كيتيم... وحق السماء، كيتيم... ياوي جشه ايه... ماذا... تقول؟. هو «حسن»... صغيري «حسن» البكاء؟...

طق... طق... وضرب الارض بطرف عصاه، ثم رفعها وشهرها كسيف في وجهها متوعداً... ثم هز رأسه معاتباً:

ـ هذا لانك كنت تتذكرينه... هذا لانك استفقدتيه، هذا لانك بخرت بعض صباحات ايام الجمعة برائحة قلي فطيرة او خبز ارغفة او سلق لحم ومرق تفرحين به جائع يدعو بالرحمة لاحيائك وامواتك... ازرانا نحن الكبار نسيانك واهمالك، الكل كان يصله بعض الزاد من الذين هنا الا نحن... اخجلنا واربكنا نسيانك واهمالك وانهماكك في أمور دنياك... ولكننا تحملنا... اما هذا الصغير، الا يكفي انه فقدك... وترقصي لأنك استطعت ان تنامي... ثم نسيتيه... ولم تتفقديه برائحة قلي فطيرة توزعيها عن روحه الصغيرة الضائعة.

ـ حسناً... حسناً... بدون لوم... اعطنيه... سأحممه والبسه وارضعه... هاته لي ... هاته. سينام معي سينام... لا بد انه يفتقدني.

تسمرت نظراتها نحو السقف، وتشنجت عضلات وجهها. كانت ترفع رأسها باستمرار، وكأنها تحاول النهوض دون توان... وحاولت ان ترفع يدها الى صدرها لتتشبث بالازرار.

ـ هاته سأرضعه... سأرضعه...

(١) يا حسرتي.

قالت الابنة الكبرى شاكية:

- حتى انها لا تموت كبقية الناس... ما الذي تحاول ان تفعله!. اللهم يارب، هون الامر عليها وعلينا... لماذا تشد صدر الثوب... هل تريد ان تمزقه!. ما الذي يكدرها!.

قالت الابنة الوسطى بخبث:

- تريد ان تخرج ثديها الذابل الجاف... انه يتدلى كحبة كوسا مفرغة مسلوقة... من تتوهم انها سترضع يا ترى؟.

قالت الحفيدة الكبرى «منور» وهي تنكمش على مقعدها، وتنظر نحو الجدة مواربة وكأنها تخشى ان يرتطم بصرها بتيار صاعق:

- يبدو انها ترى شيئاً ما... انظارها معلقة ببعد خفي لا نستطيع ان ندركه نحن... اشعر بوجود اجسام خفية لا نستطيع رؤيتها... هناك اصوات ووقع اقدام خفية اسمعها، وانفاس تلفحني كيفما اتجهت، واعين ترقبنا. الحظها تتوامض حولنا كنجوم تبرق للحظة ثم تختفي... هناك اصوات، كهمس خفي او كحفيف الشجر يدور حولنا... انا خائفة... ما الذي يحدث، هل نستطيع ادراك ذلك؟.

طرقات سريعة على الباب.

يخيم الصمت، تتعلق الانظار والانفاس باتجاه الباب.

تتتابع الطرقات بالحاح.

يتسمر الجميع في اماكنهم وقد ابتلعوا السنتهم. يرتفع صوت نسائي:

- يسرى... اين انتم... الا يوجد احد؟...

وتنفس الجميع الصعداء. ردت يسرى - الابنة الكبرى - وهي تنهض نشطة وتتجه نحو الباب. انتشرت خطوط ارتياح على جبينها وحول

شفتيها، وبان تعبير عابث في عينيها، وكأنها هرة تحاول ان تمسك خيطاً من شعاع الشمس يمر عند انفها... وكانت تتمتم بصوت هامس محاذر:

ـ اعتقد انها بهية... كاد قلبي يتوقف من الخوف.. هل من المألوف ان يطرق عزرائيل ابواب الناس هكذا نهاراً جهاراً؟

واسترقت نظرة جانبية عابثة عجلى نحو الام.

دخلت بهية بخطواتها السريعة ووجهها المدور الصغير بذقنها الدقيقة التي تبدو وكأنها الصقت بشكل عشوائي الى الوجه المدور، وعينيها الضيقتين المتقاربتين، بنظراتها السريعة الحركة وغير المستقرة.

كان وجهها محايداً، جاهدت ان تكسوه بتعبير من الفجيعة، وهي تقول بسرعة وبابتسامة صغيرة ضيقة تحاول ان تجعلها مشفقة، تعانق الموجودات وتتبادل معهن قبلات سريعة، باكية.

ـ سمعت ان امك تحتضر. جئت اليوم لزيارة اهلي، زيارة ليتها لم تكن.

وتمطقت بلسانها وهي تهز رأسها المدور كبطيخة صغيرة بتتابع:

ـ في الاوقات القاسية، انت دائماً تمدين يدك لتساعدي في رفع بعض اثقال الزمن والحدث. قلت، آتي واشارك في حل ثقل كهذا... لم تعرفي اي مصيبة حلت بي.

يختنق صوتها. تتكلم بسرعة وتتابع وانتقال بدون فواصل بين الأحداث.

ـ اي شيطان دفع بي الى المجيء اليوم؟ ... منذ متى امك على هذا الحال... ارجو ان يهونها الله عليها وعليكم... يا يسرى انا بائسة!. واجهشت بالبكاء. ثم مسحت دموعها واكملت: «اليوم كنت في السيارة

مع حامد، ونسيت ان اضع غطاء على شعري... انت تعرفين. انا لا استعمله الا عند زيارتي لدار اهلي... لست غشيمة عن ابي... لقد نسيت. كان وضعي سيئا... ركبتني كآبة قاتلة... لقد عاودتني تلك الحالة، عند الضحى بعد ان ذهب الاولاد الى المدرسة، وذهب حامد الى مكتبه. كنت ارتب اسرة الاولاد عندما اصابني الدوار والطنين المتواصل في اذني. في هذه الحالة اتمدد اينما اكون ويغشاني نعاس ثقيل اقرب الى الغيبوبة. وعلى اطراف الصحو وحافة الغفوة، سمعت ذلك الصوت الهادىء الرخيم ناداني ثلاثاً وهو يقول مشددا على مقاطع الكلمات:

- اسمعي بهية، اسمعي بهية، اسمعي بهية... ستقفي على حافة الطلاق، احذري...

ثم تلاشى كل شيء، واستيقظت من تلك الاغفاءة الثقيلة، الشبيهة بالغيبوبة. جسدي منهك ورأسي يدور وبه صداع خفيف. عيناي مغشيتان بضباب خفي... لم استطع ان اقوم بأي عمل، وكان هاجس قاسٍ يزن في داخلي كالنحلة:

هل يطلقني حامد؟... هل يتزوج اخرى؟...

وبدأت وجوه انثوية تتزاحم في مخيلتي... اي فتاة نظر اليها حامد نظرة اعجاب، او ابتسم لها، او تكلم معها؟! ويبدو ان الصور كانت مطبوعة في ذاكرتي وتتحين الفرصة لتتزاحم في مخيلتي: سها... سميرة... ريما... عيشة، وداد... آه!. وجلست امسك رأسي بين يدي وانا احس انه سينفجر. وعاد حامد، ورآني على تلك الحال. لم اجرؤ ان اخبره بشيء... واصر ان ازور اهلي... وركبتني الهواجس، لا بد انه سيوصلني لدار اهلي ولن يعود بعدها... بل سيرسل ورقة الطلاق... ماذا سيفعل ابي؟... ماذا ستقول امي.. ربما ورقة الطلاق في جيبه، وسيدسها في

يدي عندما نصل... لن يدخل معي الى البيت... سيتحجج بعمل ما... لا لن اذهب... لن اخرج من البيت... ولكن حامداً اصر، امسك بيدي، وقادني كالمنومة الى السيارة، بملابس البيت، وضع على كتفي معطفاً خفيفاً، ونسي كلانا الغطاء. رحت حاسرة.

عندما مررنا عند الجامع الحسيني وسط البلد، قبل صيدلية يعيش، احسست بنظرات تثقب رأسي من الجانب الايمن. وعندما التفت الى الخلف مذعورة، انطلقت جمرتان من بين الوجوه المتراصة عند صلاة الظهر، احستها تخترق وجهي المكشوف كصليتين من سلاح ناري... احسست ان قلبي معلق بخيط رفيع في صدري، وان الخيط تهزه ريح خفية، وانه قد ينقطع في اية لحظة. قلت لحامد وانا ملهوجة ارتجف:

- لا بد انه شاهدني...

رفعت يدي الى راسي. اكتشفت انني لم اضع الغطاء. قلت بصوت نائح:

- تلكما العينان ثقبتا رأسي... تلكما الجمرتان اشتعلتا في كبدي... انهما عيناه، كانتا هنا، لقد زودته زينب بقوى خفية... هذه حقيقة...

وبقيت اهذي في السيارة حتى وصلنا بيت اهلي. دفعت باب الحديقة الحديدي الكبير، وعندما دخلنا، رأيته يجلس على كرسيه الهزاز في الشرفة، وهو يرتدي دشداشته البيضاء، وينتعل خفيه البنيين، ويأكل من صحن امامه على الطربيزة المصدفة قطعاً من الحلوى. تنفست الصعداء. ملأت صدري بالهواء الذي انغلق على بقايا منه، وكنت اختنق... الآن استطيع ان اتنفس... اذا... كان في البيت... ولكن، تلكما العينان... الجمرتان!. وصعدت الدرجات الثمانية بحذر، ثم هرولت اليه منحنية لاقبل يده، ولكنه قدّها ليلطمني على وجهي وهويصرخ:

- « وتجرؤين ان تقفي امامي مثل العاهرات... اين غطاء شعرك...

قلت وانا اتراجع للخلف.. لا بد انه سقط عن رأسي عندما ارخيته على كتفي بعد ان دخلت، والتفت الى الخلف. كان الكلب القفقاسي الضخم يعبث بشيء ابيض يمزقه بين انيابه... قلت وانا احلف اغلظ الايمان:

- ها هو مع « هرشو »، يمزقه... انه بحجم حمار، ولكنه يلعب كجرو... انه يلعب به. نهض، وانهال علي صفعاً، وهو يدمدم من بين اسنانه:

- رأيتك يا... هناك، عند الجامع... الم تريني؟...

طرد حامد وهو يصرخ به:

- اذا كنت قواداً اجعل من امك عاهرة... ابنتي من بيت رجال يحفظون عورات نسائهم... لن تكون ابنتي امرأة لقواد مثلك...

وقبل ان يخرج حامد التفت اليّ وقال:

- فقط لأجلك انت، اتحمل عنجهية مخرف مثله... انت زوجتي ولا توجد قوة تستطيع ان تجبرني على طلاقك.. ستعودين يا بهية الى بيتك... اعدك بذلك...

قفز الوالد الى غرفته وسحب المسدس من درج الكومودينا المقفول، وركض خلف حامد الى الشارع، واطلق الرصاص على السيارة المبتعدة.

ضربني، شتمني: يا ابنة العاهرة، لن تكوني حارة لكذا... سأطلقك منه... اطلقك منه، ولو اضطرت لقتله. واتقدت عيناه كجمرتين. ادخلتني امي الى غرفة الخادمة واغلقت الباب.

عند العشاء فتحت الباب، وكان صوته الهادر قد انقطع. جلسنا للعشاء انا وهي، بدأ الليل منذراً بالشر. قالت امي وانا آكل بصمت:

ـ حمقاء... حمقاء... الا تعرفين الظهر الذي قذفك... حمقاء.. لماذا لم تضعي الغطاء حول رقبتك.. ها؟...

قلت والهلع يخنق صوتي:

ـ ولكن... كان هناك عند الجامع في السوق... ورشقني بجمر من عينيه... كانتا بركتي دم... واطل بوجهه عليّ من بين ضباب مسحور... كدت اموت من الخوف... كدت اموت...

ردت امي وابتسامة صغيرة مشفقة تتلاعب حول فمها وعلى فكها العريض الابيض:

ـ بلهاء... يا لك من بلهاء... كان نائماً، وقبل وصولك بلحظة استيقظ وجلس بالشرفة على كرسيه الهزاز يأكل «الحلبة» المفضلة عنده.

ـ ولكنه قذف صحن «الحلبة» الى الارض ولطمني على وجهي مباشرة... مباشرة هكذا... دون ان يقول كلمة.

قالت تهدهدني:

ـ حسنا... حسنا... اهدئي.. اذهبي الى الحمام، واغسلي وجهك... ضعي كمادات الشاي على عينيك... سيخفف آثار البكاء عنهما... بلهاء... اذهبي الى الحمام ...سيوصلك «طارق» عند دار اهل «يسرى». امها تحتضر. اذهبي. الوقت يتحول الى جبل في مثل هذه الاحوال. اذهبي... بلهاء.. ها. لقد استأذنت أباك، لقد هدأ قليلا. جاهة من الشيخ جابر والد حامد ستأتي بعد قليل. ابقي مع امرأة اخيك... هيا...

الحفيدة الصغرى «ياسمين» تجلس بين امها وخالتها تنظر في الفراغ بعينين مستديرتين. تتحرك حدقتاها بالتماع يشي بفزع مسحور ممتزج بلذة

الاستسلام لذلك الخوف المجهول، والترقب... وفجأة قالت بلهجة ملهوفة:

ـ ولكن عميمة... ما هي تلك الحالة... وكيف ظهرت لاول مرة... قولي... قولي لنا ارجوك... ارجوك عميمة.

فوجئت بهية بالسؤال، تحركت عيناها المتقاربتان بسرعة واضطراب وتدلت شفتها السفلى، فبانت اسنانها بيضاء منضودة... قطعة صغيرة من ورق البقدونس الاخضر عالقة على السن اليسرى السفلى، تلتمع مع اللعاب. قالت بشرود:

ـ اي حالة؟.

قالت ياسمين وهي تقترب بوجهها من عمتها بهية بصوت خافت مهتاج:

ـ تلك الحالة التي تشبه الغيبوبة وتسمعين خلالها الصوت...

كانت حدقتاها متسعتين، وبياض العينين شديد الصفاء، والبؤبؤ قاتم يتسع وينقبض بتوتر يحيط بهما دائرتان من العسل الذائب الشفاف يختلط بهما خطوط داكنة رفيعة.

ضحكت بهية: آه... ذلك...

كانت تفرك يديها بانفعال، واكتسى وجهها بفضول طفولي مذعور، متشوق، وهمست بالحاح محاذرة الا يجرح صوتها اجواء التلاشي المتجمدة في الغرفة:

ـ ارجوك، ارجوك... قصي علينا! . ارجوك...

سرحت بهية. كان رأسها يميل قليلا الى الخلف باتجاه الكتف الايسر. بدا وجهها كقرص عباد الشمس يميل بوجهه المشرق بترقب. وسرحت

عيناها الضيقتان المتقاربتان نحو كتل الثلج الاسود الهاطل في الخارج، ثم قالت بصوت خفيض، بدا وكأنه يأتي من ضباب الاحلام:

ـ كان ذلك قبل سنوات... كنا نسكن بالقويسمة في بيتنا العتيق، وكان يطل على مقبرة قديمة مهجورة، صامتة ساكنة دوماً، لا ترتبط بالعالم المحيط بها. في احدى الليالي استيقظت عطشى ـ عادة اضع بجانبي كوب ماء على الكومادينا، انني استيقظ عطشى دائماً ـ كنت قد نسيت وضع كوب الماء بقربي ـ وقلما انسى ـ حاولت العودة الى النوم متجاهلة عطشي... ولكن جفاف حلقي الح علي. نهضت متثاقلة، شبه نائمة الى المطبخ، فتحت الثلاجة، وكانت ليلة صيف رطبة ناعسة... استنشقت ملء صدري الهواء الرطب، واخذت ابتلع الماء البارد بجرعات كبيرة، مستسلمة للاحساس الممتع بالبرودة تنتشر في انحاء جسمي.

فجأة احسست بسيخ جليدي يخترق عمودي الفقري حتى النخاع الشوكي، وصحوت تماماً... مجموعة هائلة من اصوات الرجال والنساءوالاطفال كلها تصرخ بصوت واحد يخرج من جوف الارض وينطلق هادراً الى السماء، وكأنه ينطلق من بوق خرافي، وبصوت واحد، مكبر بخشوع: «الله أكبر»!.

ثم ينفرد صوت قوي رخيم يخرج عميقاً من بطن الارض ينطلق بدعاء متواتر خاشع، ثم ينطلق بوق الاصوات الضارع بنغمة واحدة: آمين... ثم الصوت المنفرد الضارع بالدعاء... ويليه اصوات المجموعة مكبرة، ويرتفع صوت الاطفال ضارعاً يعلو على باقي الاصوات.

تملكني الرعب والفضول!. ما هذا المهرجان الديني في منتصف الليل بمقبرة مهجورة؟! هل هناك مناسبة دينية لم ننتبه لها؟... تسللت الى النافذة، يمسكني خوف، ويدفعني فضول. كانت المقبرة كما هي، فارغة

مبتعدة معزولة عن كل مظاهر الحياة، يتمدد الاموات في قلب حفرهم المستطيلة الساكنة، ولكن الاصوات انبعثت من باطن الارض من وسط القبور الساكنة. اخذتني رعشة وارتجفت كل خلية من جسدي منتفضة. اندفعت بجنون الى غرفة النوم واندسست في الفراش. التصقت بحامد وكأنني قطعة من جلده. كان غارقاً في النوم فلم ينتبه لي، ولكنه تململ وتقلص جسده قليلا. لم آبه لذلك، ثم لم يلبث ان تراخى جسده وانتظم تنفسه، وغفوت انا مباشرة وانا اخفي وجهي بين كتفيه. تسربت سكينة مخدرة الى تلافيف دماغي ببطء ثم استسلمت لنوم عميق.

فجأة انتفضت على صوت طرقات خفيفة انبعثت من النافذة. فتحت عيني على سعتها، واذا امامي مِلء النافذة وجه القمر، ملتصقاً على الزجاج. كان ينظر اليّ بعينه الكبيرة الواسعة الضيئة مشجعاً... همس بصوت هادىء رخيم:

ـ سآتيك عند الأحداث الفاصلة، كوني بانتظار مجيئي... لا تخافي.

كاد قلبي ان يتوقف من شدة الخفقان، وانا اشعر بذلك الخيط الجليدي يخترق نخاعي الشوكي. كان ذلك الصوت المنفرد الذي سمعته يرتفع بالدعاء من المقبرة...

ومنذ تلك الليلة، وقبل ان تمر الأحداث الكبيرة، اشعر بدوار متواصل في رأسي، ثم اسمع طنيناً حاداً يملأ اذني، ويمسكني نعاس ثقيل، فاتمدد اينما كنت، وفي حال اقرب الى الغيبوبة، وبين اطراف اغفاءة وحواف صحو ساكن يأتيني ذلك الصوت الرخيم الهادىء... وينذرني بما سيحدث.

كان حامد مع مجموعة من الضباط يحضرون لأمرٍ خطير. جاءني

الصوت وقال لي:

اخبري حامد، سُيكشَفون، وتفشل الخطة.

كررها ثلاث مرات بصوته الرخيم الهادىء. لم اخبر حامداً، نسيت. بل الحقيقة لم اعتقد بما سمعت... ما الذي سينكشف؟... وما هي الخطة التي ستفشل... ايعني ان حامداً متورط بأمرٍ ما؟ لا يمكن...

شعرت بخوف سري يتكوم عند اسفل معدتي، ولكني لم امتلك الشجاعة لاخبر حامد بذلك الامر، سيسخر مني... ولكن كم ندمت وعضضت اصابع الندم، لان ذلك ما حدث فعلا.

ولقد انبأني الصوت كذلك قبل ان يأتيه العفو بعد سبع سنوات في السجن... وكذلك بالمركز الجديد بعد خروجه من السجن بثلاث سنوات... واليوم اخبرني انني سأقف على حافة الطلاق... وانا البلهاء اعتقدت ان حامداً ينوي الزواج بأخرى ولذلك سيطلقني... وقد جاء الامر عكس ذلك تماماً.

كتمت يسرى ضحكتها وهي تضع اصابع يدها اليمنى على فمها وتقترب برأسها من وجه بهية وهي تخفضه وتهمس عابثة:

- اخوة زينب، اصايل... لا يهملوا نسل اختهم!!.

هزت بهية رأسها ببطء، اختلست نظرة حذرة الى الام، ثم خفضت رأسها قليلا رافعةً حاجبها الايمن بخفة وبحركة عابثة، ثم تبادلت مع يسرى نظرة تحتية متواطئة تشي بفضيحة، وهي تكتم ابتسامة لعوب:

- اعتقد ذلك... لا شك ان الامر كذلك... الا تذكري العمة لطيفة؟. لقد التفوا حولها... ما اسهل ان يباغتها الاهل وهي تجلس «تؤشر وتشوبر» بيدها منشرحة مبسوطة منهمكة في احاديث سرية مع

«اخوتها».

لقد فعلوها... واتوا لها بالعم شريف.

هتفت الحفيدة الصغرى «ياسمين» وهي تندس وسط الحلقة الضيقة، منكمشة، تكتم ضحكاتها المنفعلة، تتستر بأجساد الاهل الملتفة حول بعضها، تحتمي من خطر مجهول غير مكتنه. يشد المجموعة خيط خفي، يتأرجح بين متعة المغامرة، واستشعار الخطر في محاولة لاختراق ذلك الساتر من عالم محجوب... انه حائط خفي مكهرب ذلك العالم الشبحي.

غاصت بين الوسائد، وتوقفت نظراتها في الفراغ. ارتفع شخير ضعيف من اعماق صدرها، يخر متقطعاً وكأنه شخير نائم قلق. شفتاها تتحركان بتشنج، تقول يسرى الابنة الكبرى بصوت هامس مضطرب، وذعر مجهول يتأرجح في عينيها الواسعتين:

- انها تتكلم... مع من تتكلم؟

- باباج... ارجوك... احمله قليلا، ودعني فقط آخذ غفوة صغيرة... غفوة صغيرة فقط. انا تعبة، اريد ان انام قـ.لـ.. يـ.. لا.. نومة صغيرة فقط. لا استطيع التحامل على نفسي وانهض... يجب ان احممه والبسه ثياباً نظيفة وادفئه... ثم سوف ارضعه حتى التخمة، حقاً حتى

التخمة. سيهدأ وينام، ينام طويلا. عندها سأجلس معكم، ونتحدث كثيراً، ما دمتم قد جئتم، سوف نتحدث... اعرف اخباركم، اخبار عالمكم، كيف هي حياتكم... بماذا تشتغلون.. وكيف تنشغلون.. كيف تمضون اوقاتكم!. كيف هو ذلك المكان... ضيق، متسع!. عميق، مسطح!. مفتوح، مغلق!. معتم، مضيء!. ثقيل، خفيف... اغبر، مخضوضر!. لحظة... لحظة فقط.

تتسع حدقتاها، تحاول ان ترفع جذعها:

ـ هناك قادمون جدد!.

يحرك عصاه مداعباً:

ـ ابـ.. نـ.. ـه.. الـ.. كـ.. لـ.. ب مصرة على التهرب... ولكن لا مفر لا مفر...

يربد وجهها، تحرك اصبعها امام وجهه:

ـ لا... لا... ولكن... من هذه باباج... أأنت ز.. ينـ.. ب؟

يحيط وجهها الابيض غطاء من النوع الخفيف الناصع البياض، تقاطيع الوجه متناسقة، جسم متناسق مشدود، تؤلول بُنيّ على أرنبة أنفها، كأنه قزم صغير عابث يقف متأرجحاً على حبة بطاطس.

لامس تقاطيع وجهها ظل إبتسامة وهي تنظر الى الثؤلول يتحرك عابثاً، وتمتمت متقلقلة وهي تبحث بعينيها عن مكان تُجلس فيه القادمة. ردت القادمة وهي تحرك رأسها باشارة لا تعني النفي ولا التأييد:

ـ مولى خان... مولى خان.

التصقت نظراتها بالثؤلول العابث وهمهمت تعيد السؤال:

ـ زينب؟...

حركت القادمة رأسها، فتجعد الغطاء بثنيات رقيقة ناعمة كلمسات يد رقيقة:

ـ ايوه... ايوه... مولى خان

القت القادمة نظرة سريعة نفاذة تصل الى الاعماق:

ـ اردت ان اراك... سمعت الكثير عنك من «تحادة»[1]. لا يكف عن الحديث عنك وكذلك الاولاد.

استرخت بين الوسائد.

ـ اجلسي... اجلسي هنا على السرير... الاولاد لا يتفقدون مثل هذه الامور... لم يضعوا مقاعد حولي... اجلسي هنا، ارجوك... وانا سمعت عنك الكثير... كنت في شوق لاعرفك... ها نحن نلتقي... هل تزوجت هناك من باباج؟ ارى ذلك مناسباً... نعم، اراه مناسباً... ولكن... هذا الصغير يبكي. انه متسخ وجائع، ملابسه ممزقة، يجب أن أرضعه. ولكن يجب أن يستحم أولاً.. رائحته منتنة مقززة، لا تحمليه قبل ان يستحم.

تحمل القادمة الصغير، وتلملم حول جسده اسماله:

ـ لا بأس... لا بأس... سأحممه، واغير ثيابه، لا تبالي كثيراً بهذا الامر...

تلتفت نحو بناتها تهمهم بصوت أخن:

ـ طشت، ماء... ملابس من «حسين».

(١) الزعيم. وتستعمل تعبيراً عن الاحترام وهي شائعة حتى ايامنا هذه.

تنهض الابنة الصغرى:

ـ اعتقد انها تريد ماء.

تأتي بكوب من الماء مع ملعقة، تقترب بحذر، تضع الكأس والملعقة على الكومودينا وتحاول ان تساعدها لتسترخي. ولكن الام تحدج ابنتها بنظرة صاعقة وتحاول ان تستقيم في جلستها. تتراجع الابنة حائرة خائفة، يتوزع وجهها تعبير من الاشفاق والرهبة الممزوجة بخوف مستتر. تتراجع للخلف حتى تصطدم يدها الممدودة بمسند الكرسي. تتوقف للحظة وهي تحملق بالام معقودة اللسان، واصابعها تمسك بالمسند دون ان تستدير، وتنزلق ببطء على الكرسي وهي تهمس بصوت هامس:

ـ ارعبتني... نظراتها!. لا اعرف ماذا اقول!. وكأنها تطل علينا من عالم غير عالمنا هذا... وكأنها بعيدة... بعيدة... تطل من بين ضباب.

ـ هؤلاء بليدات، لا يفهمن بسرعة... لا اعرف لماذا تحولن الى مجموعة من الغبيات، ينسين البديهيات... سأحضر انا بعض ملابس «حسين»... انه من نفس العمر تقريباً... ومن نفس الحجم... سأحضر انا الماء الفاتر والطشت، لحظة... لحظة... فقط. اربكتك زينب...

التفتت اليها القادمة بحدة وهي تنزع ملابس الطفل الذي لا يكف عن البكاء.

ـ مولى... مولى خان... استريحي انت... سنحضر كل ما يلزم، لا تخافي سنقوم بكل ما يلزم، انزور... هات الماء الساخن والابريق والطشت.

يخرج انزور ثم يعود بعد لحظة حاملا كل ما طلب منه. تقرفص مولى خان وهي تحمل الطفل بين يدين كبيرتين قويتين، تحممه. ثم تضعه في حجرها وتنكش بين كومة من الملابس، ترفع بين يديها قطعة، تصرخ: انها ممزقة. تحمل اخرى: انها بالية. وهذه، وتلك. والاخرى.

تنفل قطع الملابس وتقذف بها، تتطاير كبالونات حائرة في ارجاء الغرفة.

- خذي هذه سليمة... قال بباج

- نعم سليمة.

- ولكن، انها تتمزق عندما تصل جسده!. يا رب السموات... لماذا طفلي مسكين... مسكين... مسكين...

- اهدئي انت. لا تبدئي بالعياط... كيف يمكنني اسكاتكما معاً!. سأحكي له حكاية... حكاية مولد «سوسروقة»... انت لم تعرف شيئاً من تلك التي تسمى دنيا يا صغيري... هيه، ربما كان ذلك افضل... ماذا جنينا نحن مثلا؟. ولكن هنا، ماذا يمكن ان تعرف؟. ولكن فيم تفيدك هذه المعرفة. لقد انتهى كل شيء... كنت كائناً تتعرف الحياة من الثدي، تبكي عندما تجوع وتضحك عندما تشبع. عضوان كانا يعملان بنشاط عندما كنت هناك... فمك ومؤخرتك. الاول يشفط الحليب والآخر يتخلص من الفائض... كان عقلك سينمو بين نشاط هذين العضوين لو اتيحت لك الفرصة... وها انت ظل ذاك الصغير، بقيت... ولن تكبر قط. ولذلك لا تعرف حتى من انت... فكيف بك لتعرف قومك، حياتهم نوعهم، نمطهم... افكارهم معتقداتهم سلوكهم... ماضيهم حاضرهم مستقبلهم... إمكاناتهم قدراتهم فاعليتهم... كيف لك ان تعرف كل ذلك يا صغيري؟.

كانت تتكلم بصوت هادىء منغم، رخيم. وضعت الصغير شبه عار في حجرها واخذت تهزه ببطء.

بدأ يهدأ مستسلماً لإهتزازات صوتها وحجرها ثم استرخى. لاحظ الثؤلول على انفها، ذلك العفريت القزم كان يتقافز عابثاً على قدم واحدة، متوازنا على حبة البطاطس، ومذراته الصغيرة المضيئة تنتقل بخفة من يد الى أخرى. مد لسانه وغمز بعينيه، وهز قرنيه مداعباً. ابتسم الصغير راضياً ومد يده يحاول امساك الثؤلول.

كان صوتها بتموجاته الرتيبة المتابعة يبعث خدراً لذيذاً في الدماغ.

« كانت ستناي تغسل على ضفة نهر الكوبان[1]. وكان راعي النارتيين واقفاً الى الجانب الآخر من النهر، وهو يرعى الابقار. وعندما رآها اقترب من الضفة المقابلة وأخذ ينظر اليها. كانت فائقة الجمال فجمدت نظراته عليها، هيه، يا ستناي الجميلة. يا اجمل من رأت عيناي. انظري نحوي ولو مرة واحدة ـ ناداها الراعي.

وعندما نظرت نحوه رأته متقداً كالنار، واحست هي الاخرى بأن شرارة قد اشتعلت في قلبها، ولم تعد قادرة على الوقوف فجلست على حجر عند ضفة النهر.

وعندما انهت غسيلها وارادت الانصراف، ناداها الراعي مرة اخرى:

ـ ايه يا ستناي الجميلة، يا اجمل الجميلات، بذكائك يهذي الرجال. لماذا تتركين الحجر الذي كنت تجلسين عليه؟ خذيه معك.

اطاعت ستناي كلام الراعي واخذت الحجر معها وخبأته في نخالة الذرة.

---

(١) ملاحم نارت الشركسية « مولد سوسروقة ».

ولم تمض مدة طويلة حتى اخذت تسمع صوتاً غريباً. «ما هذا الصوت». - قالت لنفسها وبدأت تبحث حولها. كان الصوت يزداد عندما تقترب من الحجر، ويخف عندما تبتعد عنه. - اي شيء عجيب هذا؟ - قالت ستناي ووضعت اذنها على الحجر. كان باطنه يغلي، ومنه كان ينبعث الصوت. وعندما تأكدت من ذلك، لفت الحجر بخيط من الصوف، وما كادت تمضي ايام ثلاثة حتى انقطع الخيط. وربطته مرة ثانية فانقطع الخيط ثانية.

- «بسحاته»[٢] يا الهي. ان هذا الحجر يكبر يوماً بعد يوم... - قالت ستناي واخرجت الحجر من بين النخالة ووضعته في مكان دافىء قرب الموقد حيث بقي مدة تسعة اشهر وتسعة ايام. كان قد كبر واخذ يغلي وقد احمر لونه.

ركضت ستناي الى «لبش»[٣] وسألته:

- هل استطيع ان اثق بك؟

- اذا كنت لا تستطيعين الثقة بي، واذا لم تكن «الكهاشة» اداتي والمطرقة سلاحي فلماذا اعيش. - اجابها «لبش» وقد ساءه سؤالها.

- عندي مشكلة لم تصادف احداً من قبلي. اذا حكيتها لا تصدق ولا استطيع السكوت عنها، فماذا افعل؟ قالت مرتبكة.

- من يسأل لا يخطيء. والخطأ لا يمكن اخفاؤه. لا تخجلي مني واخبريني ماذا حدث. مهما يكن الامر فأنا مستعد لمساعدتك.

- لماذا اتعب نفسي في الحديث عن شيء يمكن ان اريك اياه؟ تعال. سأريك شيئاً عجيباً.

---

(٢) آله الروح.

(٣) آله الحديد

ـ اذا اردت فأنا رهن اشارتك. الرجل لا يرجع في كلامه. ـ قال «لبش» وحمل ادواته وذهب معها. وعندما رأى الحجر المتقد عند الموقد قال متعجباً:

ـ يا الهي!. ما هذا؟. في حياتي رأيت الكثير وسمعت الكثير ولكنني لم ار شيئاً كهذا، ولا سمعت احداً يقول انه رأى مثله. يا «واشخوه»[1]... ما اعجب هذا الشيء.

وبدأ يحطم الحجر واستمر في عمله سبعة ايام بلياليها. وكان قلب ستناي يتقد كلما ضرب الحجر. واخيرا انفلق الحجر ووقع منه صبي. كان جسم الصبي مشتعلا كالنار والشرر يتطاير منه كما يتصاعد منه البخار. امسكه «لبش» بكماشة متينة من فوق ركبتيه وغطسه في الماء سبع مرات. وكان الماء يغلي في كل مرة من شدة الحرارة الخارجة من جسم الصبي. وبعد ذلك اصبح جسمه كالفولاذ، ما عدا المنطقة التي كان «لبش» يمسكه (منها) بالكماشة.

واخذ الصبي ينمو بسرعة عجيبة. كان ينمو في يوم واحد ما ينمو غيره في شهر. استغرب النارتيون ذلك واخذوا يتناقلون طريقة ولادة ابن ستناي العجيب. وعندما سمعت «برنبوك» بالخبر جاءت غاضبة وقالت:

ـ هكذا إذن، اول عابر سبيل يجعلك تلدين ككلبة، الا تخجلين من نفسك.

ـ انه ليس ابني، ولكنه ليس كغيره من الاولاد. لو كان لك مثله ما جئت تتكلمين بهذه اللهجة.

ـ اذا لم يكن ابنك، فلماذا هو في بيتك؟ ولماذا هو لصق صدرك ـ

(١) آله السماء.

صاحت غاضبة.

- هذا الصبي جاء من بطن الحجر. والذي سقاه هو «لبش»، وقد اسميناه سوسروقة نسبة الى الحجر الذي ولد منه.

في هذه الاثناء، كان سوسروقة جالساً بجانب الموقد يلعب بالجمر، يمسكه بيديه ثم يلقيه في فمه ويلفظه وقد انطفأ. وعندما رأت «برنبوك» ذلك قالت:

- هذا مولود رهيب. سيكون وبالا على النارتيين. ان في ولادته نهاية لكثيرين. يا ليته لم يولد. - وغادرت الدار غاضبة.

ومنذ ذلك الحين سمت ستناي ولدها «سوسروقة».

- آه ارجوك، ... ارجوك...

كانت كقطة تبحث عن الدفء، تندس داخل الحلقة لتستشعر بالامان، وتطلب من بهية بصوت هامس متوتر:

- احكي... احكي لنا كيف رأت «شريف».

ابتسمت بهية بحذر. اتسع بؤبؤاها فبدت عيناها قاتمتين، وتسللت نظراتها بطيئة ساكنة لتستقر بين طيات الظلام، تحاول استكناه المجهول من بين كتل العتمة. اقتربت الاجساد وانخفضت الاصوات أكثر... كانت العيون تومض باحساس من خطر خفي ومتعة الوقوف على حافة هاوية الاسرار المخبوءة.

- تسكن العمة لطيفة في صويلح، على خاصرة جبل اجرد. يقع البيت بالقرب من الجامع على الشارع العام. تسكن هي في غرفة مع مطبخ على

الطابق العلوي، واما الطابق الاسفل فانه يتكون من غرفتين ومطبخ ومرحاض، وفي العادة يستعمل المطبخ عند الاستحمام.

يمتد امام بيت العمة لطيفة سطح الغرفة الثانية من الطابق الاسفل، مشكلا شرفة متسعة للبيت الصغير.

« قالوا » لها ذات يوم خميس، بعد ان انتهت من صلاة المغرب: « لا تخرجي غداً الجمعة... سوف نريك « شريف ».

نفضت صدر ثوبها وبسملت وهي تقول بحدة:

ـ هيه... هيا، كش...، كش... بسم الله الرحمن الرحيم... اذهبوا عني... هل قلت لكم اني اريد رؤية « شريف »... كـ.. ش.. هيا اذهبوا عني.

وفي اليوم الثاني ومنذ الصباح الباكر، لبست ملايتها وارخت النقاب على وجهها، وتوجهت الى دار اخيها « بكر » في عمان، ولم تعد الا بعد ثلاثة ايام.

ويوم الخميس التالي قالوا لها:« غداً الجمعة... لا تخرجي... قلنا لك سنأتي « بشريف ».

وفي اليوم الثاني ارتدت ملايتها باكراً وخرجت ولم تعد الا بالليل.

وفي الخميس الثالث لم يقولوا لها شيئا. ولكنها توجست شراً، فخرجت منذ الصباح وعادت بالليل.

واما الخميس الذي تلاه، فلم يقولوا لها شيئاً. ونسيت، ولم تعد تفكر بالامر. وفي اليوم التالي ـ اي يوم الجمعة ـ بقيت في البيت، ومنذ الصباح رتبت غرفتها ووضبت المطبخ، واعدت « شوربة العدس ». وعند الضحى كانت قد انهت امورها، فقطفت عنباً من العريشة الكائنة خلف البيت، غسلته ووضعته في طبق ثم جلست على حشية مسندة ظهرها الى

الحائط وقد مدت ساقيها براحة، تأكل العنب متمهلة متلذذة وهي تراقب الطريق الذي يبدو من مكانها وهي خالية البال.

ارتفع صوت المؤذن فقالت لنفسها مندهشة: باه يا لطيفة... لقد تأخرت اليوم في النوم دون ان تدري... ها هو المؤذن ينادي لصلاة الظهر. اشهد ان الا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله.

ثم ارتفعت اصوات بالتكبير. قالت باشفاق.

- احدهم قد مات... فليرحمه الله... هذه صلاة الجنازة... ترى من يكون الميت؟ البلدة صغيرة، لا بد ان اعرف... سأسأل ام اكرم... لو كان من الاقرباء لأخبرت... ولكن كل العائلات هنا تربطنا بها معرفة وجوار... سأنادي على ام اكرم، لا بد ان نذهب للعزاء. وارتكزت على يديها محاولة ان تنهض، ولكنها تسمرت في مكانها. ان المشاركين في الجنازة يمرون امام الباب. افواجاً من الرجال يمرون بصمت. تمتمت وهي تحدق امامها:

- لا بد ان الميت من كبار القوم... والمشيعون لا يحصون...

ثم ظهر النعش مغطى بشرشف اخضر من المخمل، محمولا على الاكتاف. وخبطت على فخذيها وهي تصرخ:

- بكر ... عمار... محمود... حسين... انهم يحملون النعش...

ولطمت وجهها:

- انه «شريف» إذن... لم اتحمل رؤيته مقتولا... ولكن ها انتم تنكأون الجرح الذي كاد ان يندمل!. اللعنة عليكم... هل طلبت منكم رؤيته!.

توقف المشيعون عند الباب، انزلوا التابوت عن اكتافهم، ثم امالوه باتجاهها. رفعوا الغطاء الاخضر حتى الخصر. كان الكفن مرفوعاً عن

الوجه، وبقعة كبيرة من الدماء متفشية على الكفن عند الصدر. كان وجهه ساكناً سكوناً جارحاً. بدأت تولول وتنوح وتضرب صدرها وتنتف شعرها.

بهدوء، اسدلوا الغطاء ورفعوا التابوت على اكتافهم واستأنفوا سيرهم الصامت. اندفعت نحوهم صارخة وركضت خلف النعش، ولكن الرجال كانوا يختفون عندما يصلون حافة السطوح.

لتطعم قلبي تامبوت...روحي عطشى، اسقني من نبع الاقدمين... شيئاً عن عاداتهم، شيئاً من سلوكهم...

تنحنح «تامبوت» وهي يجلي صوته وعبثت اصابعه باوتار الـ «شكه بشنه». شد شعر القوس باصابعه الثلاث وهو يقول:

ـ حسناً «ناشخوه»، سأنشد لك عن «سوسروقة ووزرمج»[1]. كان الشركس في القديم القديم، يقتلون من يطعن بالسن، وقد انهى سوسروقة تلك العادة الرديئة:

كان من عادة النارتيين القديمة
ان يقتلوا من يطعن بالسن.
وعندما طعن «جادو» في السن
رافقه العازفون على القصبات
وقارعوا الطبول وقد كادوا يثقبونها بضرباتهم
ومعهم الكورس يغني
واوصلوه الى دار الزعيم «الاد»

(١) كتاب ملاحم نارت الشركسية.

وعندما استعد وزرمج
وهم بالانطلاق الى المجلس
قالت له ستناي
دون مواربة بضع كلمات:
- « دون ان تقاطعني بقولك،
انا لا اسمع كلام النساء
لما اقوله انا،
استمع قليلا يا زعيمي:
الحارس الواقف فوق البرج على التل
اقترب منه خلسة
واخنقه بهدوء.
لا تربط حصانك الى المربط،
ولنما اربطه قريبا (من البيت).
وعندما تدخل المجلس
اجلس قرب النافذة
وعندما يقدمون لك القدح
دون ان تلمسه
قل لهم هذا، واعده اليهم:
« الهنا ايها الاله الكبير »
يا من خلق السماء الزرقاء والارض الخضراء
يا الهنا الكبير
اجعل شابا نارتيا يدخل هذا المجلس
ليشغل سيف الاله
وليحطم هذه العادة القبيحة،

عادة قتل المسنين
الموجودة في بلادنا
قالت ستناي ذلك
وخرج وزرمج.
وعاد سوسروقة
الذي كان غائبا عن الدار
ودون ان تمهله ليلتقط انفاسه
لاقته ستناي:
« يا حبيبي، ولدي
الى مجلس النارتيين (المكرس) لقتل المسنين،
قادوا « جادو » العجوز ليقتلوه،
فالى مجلس النارتيين توجه
دون ان تترجل عن حصانك.
ابوك ايضاً هناك فراقبه
والحارس في المرقب، تقدم منه خفيه واخنقه
وعندما تدخل الدار،
في غمرة الهرج
وتطاير قطع الثلج (تحت الاقدام)
سيدخل الناس الى المجلس
فادخل معهم واختبىء وراء الباب.
وعندما يبدأ الاجتماع،
تقدم قليلا وواجه المجلس، وانت تعصر مقبض سيفك.
وقل لهم ما اقوله الآن:
- يا « (اعضاء) مجلس النارتيين، اسمعوا ما اقوله

فعندي ظلامه،
عندما تبعثون بفارسكم النارتي
ليدعو الى الاجتماع،
ولا ترسلونه اليّ
فلن تستطيعوا بذلك
اعتباري غير نارتي، ايها النارتيون
لانني اعبّر
عما يجول بخاطر النارت».
قل لهم هذا غاضباً، واعمل سيفك فيهم
بدءاً من عند الباب الى صدر المجلس
حتى تجبرهم
على ترك عادة قتل المسنين،
قالت ستناي ذلك
فحث سوسروقة بعقبيه
حصانه «تخوجي» الذي كان يحفر الارض بحوافره
وانطلق في طريقه.
مجلس النارتيين الذي انعقد
طلب «جادو» الى جانب دن خمر العنب
وعكروا اسفل الدن
وقدموا له النخب
وعلى عادة النارتيين
قال كلمة في المناسبة
وبلع محتويات قدحه.
فأعجب جادو بالخمرة

وقال راجيا المجلس
وغدا كتفاه عريضين ككتفي شاب.
وعندما اعطوه القدح الثاني
من اقداح البطولة النارتية:
« ابلع القدح الاخير
وارجو ان اكون الاخير من بين النارتيين
الذي يلقون به الى الجانب الآخر من الجبل
وان يخرج من بين النارتيين
شاب يأخذ بثأري».
قال وشرب القدح
فتغير لونه بسرعة وقادوه جانبا
ودفعوه فألقوا به
وتخلصوا من « جادو ».
وبدأ النارتيون احتفالهم
بالطعام والشراب.
الشاب النارتي سوسروقة،
دخل الى المجلس
وتوجه الى المجلس النارتي
وهو يعصر مقبض سيفه:

(١) يبدو انه كانت طريقتان للتخلص من المسنين.

5

مع بدايات النصف الثاني من القرن التاسع عشر بدأت موجات هجرة الشركس. كان ذلك نتيجة لاتفاقية سرية بين القيصر الروسي والباب العالي، ولم تعرف بالتفاصيل بنود تلك الاتفاقية، ولكن من المؤكد ان الجانب العثماني تعهد بدفع قبائل الشركس والشيشان والداغستان الى الهجرة. وكان ذلك يعني بالنسبة للطرف العثماني ضم هؤلاء الفرسان الذين عرفوا بقدراتهم القتالية العالية وشجاعتهم وجرأتهم الفائقة الى الجيش العثماني، بينما اتخذ القيصر الروسي سياسة التهجير (بكل الوسائل) للتخلص من هذه القبائل المقلقة بشجاعتها وقدرتها على القتال.

بدأت تظهر البيوت الطينية الصغيرة، وثيران الحراثة، وعربات الخوص الثقيلة بعجلاتها الخشبية المائلة تجرها الثيران وهي محملة بأكياس القمح والشعير والتبن عند رأس العين. ومع مسيل الماء امتدت هذه البيوت على حافتي السيل، وغزت الآثار الرومانية لاستعمال الكهوف والمغاور كسكن مؤقت الى ان يتم ترتيب الحال.

ومن بين العائلات التي هاجرت عشائرياً كانت جماعة «ببروقة» الذين حطوا رحالهم عند طرف السيل. منهم من استطاع ان يتدبر مع بعض

العائلات التي استقرت من قبل، ومنهم من تدبروا بخيام، ومنهم من استقر في الكهوف الرومانية. وفي تلك المغارة الواسعة التي تقع عند بداية مناطق سكن «الشابوغ» حطت عائلة «باتر» بابنائه السبعة والابنة الوحيدة اليافعة التي تبلغ حوالي ثلاثة عشر من العمر. بيضاء نحيلة، دقيقة الملامح عريضة الوجه بتقاطيع متناسقة، وعيون صغيرة، ذات اجفان ثقيلة مبطنة، بما تُعطيان من ملامح آسيوية. وكذلك زوجته ووالداه، اخوان يافعان واخت عزباء على وجه زواج، وكذلك حماه.

نظفوا الكهف جيداً، واعدوه للسكن. اكتظ بالاشخاص والاغراض التي اتوا بها. واغلبها صناديق كبيرة عالية، بزخرفات بديعة، وغطاء محدب مكسو بالقطيفة الحمراء او السوداء او النيلية مثبتة بمستطيلات خشبية صقيلة عليها مسامير ذات طبع كبيرة لماعة، تقفل من الامام بقفلين ذهبيين صغيرين. وهناك الكثير من فرشات الصوف والاغطية الثقيلة والمساند، سيوف وخناجر ملابس تقليدية للرجال والنساء، والاحزمة الذهبية أو الفضية المشغولة بزخارف دقيقة وتخاريم بديعة، والاخفاف الجلدية باعناقها الطويلة الضيقة التي تغطي الساقين حتى الركبتين... قدور مختلفة الاحجام واوعية الطبخ السوداء الوسيعة. اباريق من الفضة او القصدير المطرف.

دبت حركة نشيطة في ارجاء الكهف... واضيء الليل بالسرج الزجاجية الجميلة، واكتظت بالعيون المستطلعة، والاصوات العميقة المتباينة بتلك اللهجة التي لم تسمع هناك قط من قبل.

مضت بضعة اسابيع على استقرار عائلة «باتر» في ذلك الكهف الروماني. في احدى الليالي رأت «مولى خان» الصغيرة رؤيا غريبة: جاءها شيخ مهيب الطلعة صارم النظرات تسترسل لحيته البيضاء هفهافة على

صدره، يرتدي عمامة خضراء. قال لها بصوت (رخيم قوي النبرات) وهو يحرك اصبعه في وجهها:

ـ اسمعيني جيداً يا مولى خان... نحن قدرنا ظروفكم الصعبة فلم نرفض اقامتكم المؤقتة عندنا... والآن، نعتقد انه قد آن الآوان لتتدبروا اموركم. نطلب منكم اخلاء الكهف، فورا... انه ملكنا...

استيقظت «مولى خان» الصغيرة وقد امتلأ قلبها بشعور من الخوف والرهبة. كان قلبها يضرب كمطرقة حداد. اجالت عينيها المملوئتين بالنوم في ارجاء الكهف الوسيع، راقبت الظلال الضخمة المنتشرة في الارجاء، استمعت الى هسهسة مياه السيل المتدفق، ورددت الضفادع نقيقها المتواصل الكئيب. اجتاحها فزع مبهم غامض، ثم لم تلبث ان عادت الى النوم. في اليوم التالي نسيت «مولى خان» ان تقص حلمها العجيب الذي رأته في المنام على احد من افراد العائلة، او ربما تناست الامر مقتنعة ان احداً لن يصغي اليها خصوصاً في مثل هذه الظروف الصعبة.

وفي الليلة الثانية، وبعد منتصف الليل، جاءها الشيخ المهيب بعمامته الخضراء ولحيته المسترسلة البيضاء، وقال بصوته (الرخيم العميق قوي النبرات) صارم الوجه، يحرك سبابته في وجهها محذراً:

ـ اسمعيني جيداً يا «مولى خان»... قلت لك البارحة نحن نقدر ظروفكم الصعبة فلم نرفض اقامتكم المؤقتة عندنا، والآن... نعتقد أنه آن الآوان لتتدبروا اموركم... عليكم اخلاء الكهف فوراً... انتم تزعجوننا.

واستيقظت وهي تسمع دوي ضربات قلبها كالمطارق، مفزوعة معقودة اللسان... وارتفعت هسهسة ماء السيل وكانت الضفادع حزينة وهي تنشد اغنيتها الصغيرة الحمقاء... ولكنها نامت ونسيت او تناست

الحلم في اليوم الثاني.

وعاودها الحلم العجيب لليلة الثالثة، وحذرها: انها المرة الاخيرة التي آتي فيها اليك، ولكنها نسيت للمرة الثالثة. وفي اليوم الرابع عندما استيقظ سكان الكهف ظلت «مولى خان» نائمة. تغاضت امها عنها قليلا وهي تتحاشى نظرات الاب المتسائلة، ولكنها لم تستيقظ. نادت عليها الأم ناعتة اياها بالكسل ولكنها لم ترد... لاحظت انها تتحرك بالفرشة بشكل مضطرب وتتمتم بكلام غير واضح. اقتربت الام وهي تنادي الابنة بلهجة ارق وقد استشعرت بشيء من الخوف:

- فوج... - بيضاء - «مولى خان»... لماذا لم تنهضي... ابك شيء يا حلوتي!. ولكن الام لم تسمع جواباً... كانت الابنة ملتفة بالغطاء حتى رأسها وسمعت همهمات مبهمة وتقلبت الفتاة بتشنج، وسمعت الام لهاثاً متحشرجاً يصدر عن الابنة. هبطت وهي تنادي بفزع:

- بيضاء... بيضاء. ما بك يا حلوة...

وصرخت الام برعب عندما كشفت الغطاء. كانت الفتاة محمرة كحمل مسلوخ.

هرعت الجدات على صرخة الام مبسملات مستعيذات من الشيطان، واقترب الاب محاذراً الا يندفع، مبتلعاً القلق الذي ضج في صدره، وهو يحرك طاقيته البيضاء باضطراب على رأسه. شهقت الجدات بفزع: كان طفح احمر برؤوس بيضاء مثل حبات البرغل يغطي كل الاجزاء الظاهرة من جسدها، وجهها وعنقها، مثلث متجمر عند فتحة الصدر، الساعدين، كشفت الجدة قميص النوم عن الجزء الاسفل من جسدها، ساقاها، كأنهما اخرجا من قدر يغلي ماؤه على نار هائلة... كشفت عن فخذيها فكان الطفح يكاد يشكل طبقة متصلة من الاحرار!. خبطت الام صدرها

بيديها وهي تهتف بصوت مختنق:

ـ ما هذا ايتها الأم!.. هل رأيت شيئاً كهذا في حياتك؟

اجابت الحماة بصرامة وهي تجس جبهة الصغيرة:

ـ اهدئي... لا داعي للنواح... ولكن هل حصبت عندما كانت صغيرة؟ بلى اذكر... حَصَبَت هي وأولاد عمها... اليس كذلك؟ انها تغلي... هذا لا يشبه شيئاً اعرفه. انه شيء قد يكون من هذه البلاد الجرداء... انها ارادة الله... وسيكون شفاؤها أو عدمه بمشيئته، يكون ذلك عندما ينطق كلمته... كن فيكون...

كانت تقول ذلك وهي تدور حولها، ثم بدأت تتمتم بأدعية غامضة ثم تقرفص عند رأسها وتنحني، ثم تنفخ في وجهها ببطء ونفس طويل... ثم تدور حولها مهسهسة، ثم تقف فوق رأسها وتنتر رأسها للخلف وتضرب الهواء فوق رأسها بيديها:

ـ مشيئتك يا رحمن، يا جبار... كلمتك، يا وهاب، يا اخاذ... ارادتك، يا محيي يا مميت.

انحبست حتى انفاسهم، يتحركون كالاشباح مبتعدين عن موقع خطوات الجدة ثم منسلين بجانب الفتاة.

مضت ثلاثة ايام وهي تغلي كقربة ماء... محمرة كحبة بندورة مسلوقة... تتلوى بتشنج وكأن اعصاراً يهدر تحت جلدها.

وعند منتصف الليلة الرابعة تبخرت الحرارة التي تشتعل كالجذوة، وانطفأ الطفح الاحمر بعد أن صبغَ جسمها كله بلونه الارجواني. فتحت عينيها، ودارت في الوجوه المفجوعة حولها وكأنها تطل من اعماق قبر. استقرت نظراتها على وجه الجدة، ثم انشقت شفتاها اليابستان عن شبح

ابتسامة. التمع حز من بياض اسنانها الناصع من بين الشفاه المتشققة. قالت بصوت واهن وهي تمد يدها:

ـ نانا... اريد ان آكل.

انطلقت حشرجة حيوانية من الحناجر، وانشقت اثواب الوقار بنزق وهمهمت الاصوات:

ـ بيضاء... انت حية اذن... نحمدك اللهم يا رب...

دارت بعينيها على الوجوه، ثم انطبقت الاجفان ببطء، وغفت.

امتد شحوب شفاف يلون وجهها، ثم انسحب على كل جسدها، وازرقت ارنبة انفها. جحظت العيون فزعة واقتربت الرؤوس برعب. مدت الجدة أصبعين، السبابة والوسطى، ومست وجنتها. فتحت عينين اتسعتا من الاجهاد والاعياء. قالت بوهن:

ـ نانا... بردانة... هل جئتم بالطعام؟

ونظرت الى يدي الجدة الفارغتين بخيبة، ثم اغلقت عينيها ببطء. همهست برقة:

ـ جائعة... نانا.

دب النشاط في الجميع، نظرت الحماة الى الكنة، استعادت صرامتها وهي تهتف بصوت آمر منخفض:

ـ نسه... (عروس) اسرعي نسه... ـ والعروس هي ام «مولى خان» واكبر ابنائها تجاوز الثلاثين ـ

ـ اشعلي الحطب بسرعة خارج البيت وسخني الحساء مع قطعة لحم الضأن المسلوق، ولا تنسي ان تكثري الثوم على الحساء.

مالت الام برأسها نحو كتفها الايسر، وكانت تنصت بقلق. مياه

السيل تهدر متدفقة، الريح تزمجر عاصفة، المطر يهمهم غاضباً. قالت بتوسل:

- ولكن المطر شديد والريح قوية والسيل فاضَ ويتدفق داخل البيوت. لن تشتعل النار بسهولة، سيأخذ ذلك وقتاً... ترين ... انها منهكة، تكاد تموت جوعاً.

خفضت وجهها وعينيها بمسكنة.

قال الاب بصوت خافت ولكن قاطع:

- بدون ثرثرة... نفذي اوامر الام، وبسرعة.

ولكن الام اشارت بيدها نحو الابن تأمره بالسكوت، ثم وضعت اصبعها على فمها وقالت برقة:

- كلامك صحيح نسه... الرياح هائجة، والمطر يسقط حبال متصلة... لن تشتعل النار بسهولة... اسرعي الى الطرف المتواري هناك، حتى لا يضايقها الدخان... اسرعي.

وفي لحظات كانت نار كبيرة تشتعل، وقدر اسود مستدير يربض فوق المنصب الاسود ثلاثي الارجل، والبخار يتصاعد منه فتنتشر رائحة اللحم والثوم القوية.

ولكن الجميع لاحظ ان «مولى خان» اصابها امر غريب بعد ان ابلت من مرضها. بدأت تخبر عن احداث تقع في اليوم نفسه او الذي يليه، وتخبر بمجيء اشخاص كانوا يصلون بعد بضع ساعات. تخبر عن المرض، وتعرف عن الموت. بدأت تحب الانزواء فتشاهد وهي منهمكة في حديث خافت مع نفسها، تحرك يديها ورأسها بحذر، وقد تنطلق منها ضحكة صغيرة مضغوطة احياناً، فتتلفت حولها على احد لم يسمعها.

ضربت الجدة رأسها المعصوب بمنديل ابيض بيديها وهي تهتف

ـ انا قلت... لم اشاهد شيئاً كهذا في حياتي... اذا ذاك الامر!. تلبسوها خاووها ملعونو الذكر...

ومدّ الهَمّ مشكاته ليحفر خطوطاً جديدة من التجاعيد.

ومع الايام لم تعد «مولى خان» تخفي امورها... كانت تقول: «اخبروني... سيصل العم عصراً... ستمرض الخالة... اخبروا «محمت» الا يخرج للحصيد... سيقتله الحفاة»... ثم اخبرتهم مع الوقت عن الشيخ المهيب الذي اتاها في المنام ثلاث ليال متتالية وطلب منها اخبارهم بالرحيل.

اصبح الامر مألوفاً واعتيادياً ولكنهم باتوا يخشون الكلمة التي تنطق بها. يبدو انها اصبحت «عرافة الكهف» وهي تنبىء بكل ما سيحدث، خيراً كان ام شراً...

حصلوا على ارض خلف الكهف الاثري، بنوا عليها عدة بيوت طينية صغيرة، مع ساحة امامية واسعة. واقاموا في الجانب الايسر خلف الكهف تقريباً اسطبلاً للحيوانات، فيه ثوران للحراثة وجر العربة الضخمة المجدولة من القصب، وبدأ الابناء مع الاب واخويه باستصلاح قطعة أرض حصلوا عليها من السلطات العثمانية. كانت مليئة بالحجارة الكبيرة والصخور. ظلوا مدة شهر وهم يخرجون مع شروق الشمس ويعودون مع مغربها... ولكنهم تمكنوا اخيراً من تنظيفها، واوصوا شعيب الاعرج، حداد حارة الشابسوغ بصنع محراث لهم... وتمكنوا من شراء الثورين فبدأوا حراثة الارض المتسعة بما يكفي لزراعة حاجاتهم من القمح والشعير والذرة والعدس والحمص.

فعلوا ذلك تحت انوف البدو الذين يمتطون جيادهم الاصيلة متزنرين

بالفشك الذي يتصالب فوق صدورهم ويحيط بوسطهم، وترتخي البنادق بكسل على اكتافهم... اجسادهم ضئيلة خفيفة، عيونهم سوداء تتسع ببعض من غضب وشراسة، يحومون حولهم والخيل تحمحم بتوتر وحذر، وتتدلى خصلات شعرهم جدائل فاحمة من تحت تلك الاغطية التي يرخونها على رؤوسهم وفوق اكتافهم، بيضاء هفهافة تتطاير مع خبب الخيل وهبات الهواء الهين الرخي، ويعقدونها على رؤوسهم بعقل سوداء.

كانت العيون تقدح وكأنها الشرر الذي يتطاير من قدح حجري صوان. ولكن الابناء السبعة والاب والاخوان، كانوا محتاطين بالبنادق والقامة مدلاة من وسط الخصر مائلة نحو الفخذ الايسر، وكذلك الخنجر. لقد سمعوا عن المجازر التي حصلت بين الطرفين منذ وصول الموجات الاولى من المهجرين... ولكن الشراكسة مقاتلون اشداء، علقوا شوكة قاسية في حلق القيصر الروسي الذي واجهوا جيوشه الجرارة المتفوقة عدداً وعدة بما لا يقاس، ولمئة سنة استمروا في قتاله، وواجهوا مدافعه الفتاكة التي حصدت المقاتلين الاشداء وبدأت تلاحقهم وتفتك بعوائلهم وتحرق قراهم واماكن معيشتهم. ولعب الائمة دورهم في هذه الحرب ايضاً حيث بدأوا يتوعدون في الجوامع وفي المجالس بأن من يموت في هذه الحرب ليس شهيداً، بل كافراً يموت منكفئاً على وجهه مسوداً ويلقى ربه برأس خنزير... وان الاسلام وارض الاسلام، هي الراية الوحيدة التي يأمر الخالق عباده بالدفاع عنها.

وبدأ التهجير، ودخلوا ارض الاسلام وهم يحملون احذيتهم تحت آباطهم، ويتلمسون الارض المقدسة باقدام عارية وقلوب خاشعة، ونفوس خائفة من اغضاب الرب بما لا يعرفون. ولكن الجوع والامراض والتشرد قضت على اكثرهم، ثم دفعت بهم السلطات العثمانية عبر الخط الحديدي

الى البلدان العربية لحماية الخط واقامة تجمعات موالية لسلطتهم المترنحة.

ولكن سكان البلاد الذين يعانون من تسلط العثمانين لم يقابلوهم بالمودة والعطف الذي اعتقدوه، بل واجهوهم بعيون محمرة من غضب وحنق: «لماذا اتيتم من آخر الدنيا لتزاحمونا مراعينا الجرداء، وتشاركوننا عيون الماء الشحيحة... وارزاقنا القليلة...

ورددوا برؤوس بغال: «لقد نادى الرب ان نأتي وندفن في اراضيه المقدسة القاحلة. انه يريد ان يختبر ايماننا... طلب ان نترك الجنة المخادعة، لنحوز الجنة الباقية... نحن اخوة في الدين... لنا زرعنا وحرثنا واغنامنا... ولكم مراعيكم وابلكم وخيامكم... ان القيتم علينا التحية، رددناها لكم بأحسن منها... وان وجهتم نحونا فوهات بنادقكم رددنا عليكم رصاصكم يقتلكم...

وهكذا كان... يحمحم الموت بين سيقان القمح وحبات العدس الشقراء والمراعي الخضراء. على اطراف الوديان، وبين خواصر الجبال.

ذات يوم بعد انتهاء الحصاد وقبل الحراثة الخريفية والرجال في راحة صغيرة، قالت «مولى خان» وهي تنطلق بنظراتها التائهة عبر الافق لـ «شوجن» الاخ الاكبر، وكانت تفرك السماور الاصفر بالرماد لتلميعه، تخلت اصابعها النحيلة عن الجسم الاصفر النحاسي المموه بلطخ الرماد المبلول:

- شخص قاتم اللون من بلد بعيد جداً يأتي لأجلك... يحمل بين طيات عباءته كنوزاً ثمينة... لكنها لا تصل يديك، ولا يستطيع القاتم امساكها... لن يستطيع امساكها الا من خلالك... ولهذا هو آت اليك... ولكن امامك عائق... جسم صغير ودم.

قالت الام بعصبية وقد اقشعرت، بينما يداها تدعك القدور الكبيرة بالرماد:

ـ هش... اصمتي... لا داعي ان ترفرفي ببلهك كعلم...

وصمتت «مولى خان»... وعادت اصابعها تدعك الجسم النحاسي المكور، بزخرفاته الدقيقة... وتوزع ملامحها آثار حلم مقلق.

وبعد بضعة ايام طرق الباب رجل غريب، طويل نحيل كنخلة...قاتم كليل بدون قمر. تتوهج نجمتان حذرتان في صفحة الليل الداكن، وتتدلى شفته السفلى، كشفة جمل هائج، فتبرق اسنانه البيضاء، ويتحرك لسانه الاحمر عندما يتكلم. قال بصوت جاف:

ـ هذا بيت «شوجن» اليس كذلك... اريد ان اراه.

أجابت الام بحذر:

ـ لم يعد الرجال بعد.

وانتظر حد البوابة. قامته نحيلة مستقيمة كسيف، عباءته تخفق كأجنحة طائر اخضر وكان ظله على الارض ساكناً يوحي بالثبات. ودخل الرجال على ظهور الخيل يتقدمهم ثوران يجران العربة الكبيرة، بداخلها الفؤوس والرفوش وادوات الحراثة...

تقدم الشخص القاتم نحو «شوجن» بعد ان ترجل، وكان يقود الحصان الى المربط. قال القادم بصوت جاف وهو يحدجه بنظرات غريبة:

ـ «شوجن»؟

اجاب الابن الاكبر وقد توقف متحفزاً للرد على اية حركة:

ـ ماذا تريد؟ انا هو.

تقدم الشخص الداكن وقد انفردت اساريره من «شوجن»، وهو يمد

يدأ نحيلة صلبة كمذراة. سلم عليه بحرارة وهو يقول بصوت استرخت اوتاره المشدودة فجأة:

ـ اعرف... أعرف كم انت شجاع... قالوا لي ذلك... كنت خائفاً ان تكون عدائياً، اموركم صعبة مع العربان... ولذلك متأهبون دوماً للمفاجآت... خشيت ان... انا جئت من مكان بعيد... بعيد جداً... لاراك... بلاد اسلام يقال لها المغرب، نجمك يتوهج في السماء... انت تملك القوة... القوة والثروة اذا اردت.

تذكر «شوجن» اخته «مولى خان»، خفقت على ركني شفتيه ظل ابتسامة... ابتسامة سخر، وهو يقول ببرود ولكن نظراته تتحرك بحذر:

ـ ولكن... هيا الى المضافة... ما دمت قد جئتنا من بلاد بعيدة، لا بد انك متعب وجائع.

وجلس الاثنان بصمت ينظر كل منهما الى الآخر بفضول، وحذر. طرقت «مولى خان» الباب، فتحه «شوجن» وتناول منها السماور الذي يتصاعد منه البخار، ويوصوص الماء المغلي في جوفه ويقرقر ضاحكاً. وعندما تناوله من بين يديها اسرعت تحضر وعاء «الحلفة» ـ فطائر البطاطس ـ. دخلت خلف «شوجن» ووضعت الصينية على المائدة المستديرة الواطئة... وعندما استقامت التفتت بمواجهة الشخص الداكن، وهو يقف بامتداد قامته الخفاقة، ينظر اليها من فوق كتفه كحدأة تترقب فريستها. اتسعت حدقتاها، وابتسمت عيناها بمعرفة، تمتمت لشوجن بالشركسية:

ـ الم اقل لك؟... ها هو قد اتي...

وقال الداكن بصوته الجاف المتكسر:

ـ نعم... انا هو... الذي اتي من ارض بعيدة... بعيدة جداً...

سأل «شوجن» بدهشة:

ـ هل تعرف لغتنا؟...

وارتخت عضلات الوجه المشدودة، وانشقت عن ابتسامة ضئيلة:

ـ لا... طبعاً. ولكن اعرف ما قالت... كما عرفتك عندما رأيتك من بين الاخوة.

وخرجت بخفة ودون صوت بخفيها الجلديين الرقيقين بطرفيه المدببين المرتفعين اللذين صنعتهما الجدة. ثم عادت بكؤوس الشاي المخنصرة اللماعة بحوافها المذهبة، ووعاء السكر الفضي، وملعقة صغيرة فضية مركونة على طرف وعاء السكر.

كل شيء يلتمع بنظافة تامة.

وخرجت مرة اخرى متراجعة الى الخلف حتى الباب وهي تخفض بصرها الى الارض. ولكن خداها كانا مشتعلين بالانفعال.

قال الشخص الداكن وهو يلتهم فطائر البطاطس المقلية «الحلقة» اللذيذة ملء فمه المتسع وهو يمضغ ويبتلع بشكل متواصل:

ـ جئت من بلاد المغرب كما اخبرتك... منذ ستة اشهر وانا امشي على البغال والخيل وعلى الاقدام... قطعت اراضي ليبيا، ثم مصر... ومن هناك بالعوامة وصلت العقبة... وجئت من معان الى هنا بالقطار... انا اتعاطى السحر، ولي اتباع من الجان... منهم عرفت عنك، وعن اختك... لها علاقة طيبة مع بعضهم هنا.

كان «شوجن» يتابع كلام الشخص الداكن وهو يفهم بصعوبة ما يقوله وقد شحب لونه.

اردف القاتم دون ان يأبه كثيراً لحال «شوجن»، بل مستمتعاً وهو يراقب بعين الحدأة انشداهه:

- ذلك الكهف الذي نزلتم به اول وصولكم، والذي مرضت به اختكم الصغيرة، يحتوي على كنز قديم قدم الزمن، لا اول له ولا آخر... انه من ازمان قديمة لأباطرة وملوك لا يوصف ثراؤهم... جماعتها ممن في الكهف قرروا لها حصة... ولكن الرصد يؤكد ان الكنز لا يفتح الا على وجهك... الامور معقدة، وليست سهلة ابداً... وتحتاج شجاعة فائقة... ولكن الامور ستنتهي بشكل جيد... ان شاء الله... على ان يكون قلبك صلباً كالصوان... ولا يكفي لوني الصواني.

وخفقت ابتسامة السخر على شفتيه، والتمعت بسرعة كانخطاف البرق في عيني الحدأة تلك:

- آه... هكذا حقيقة... تحتاج لقلبك ان يكون كالصخرة الراسخة.

قال «شوجن» وهو يزوره بعينيه:

- ولكن... ما دمت تملك القوة لتجعل لنفسك اتباعاً من الجان... لم لا تحضر الكنز لنفسك وبنفسك... والكهف ليس ملكاً لأحد...

اجاب المغربي بانكسار:

- هؤلاء الملاعين ليسوا مثلنا... لا يتقاتلون لاجل امور دنيوية. انهم يتعاونون، ولا يؤذي احدهم الآخر... ولا يتعدى على سلطانه، ولا يمكر احدهم بآخر... بل انهم يتكاتفون ويتكافلون على اغوائنا... جماعتكم قالوا: «الكنز يخصكم... وانت الذي تخرجه... شاهدت المال.. انه لا يعد ولا يحصى... ولا يقيم بثمن»...

قال «شوجن» وهو يقابله بلهجة السخر عينها:

- حسناً... يقولون المال لنا... وما شأنك انت إذن...

خفق بذراعيه كغراب وقال مكشراً:

ـ انا اقودك الى الطريق التي تجهلها... لولا انه يتطلب طريقة للوصول اليه، لانكشف لكم فجأة دون ان تدركوا الامر...ولكن هناك طريق... ويوجد شروط، ولا بد ان تلتزم بتلك الشروط... وانا اقودك الى الطريق لتعرف الشروط، فأشاركك مناصفة... وهذا شرطي انا... وهل تعتقد انني تحملتُ ارزاء كل هذا الطريق لابشرك؟

وتصالبت نظرات الرجلين ولكن الداكن لم يلبث ان قال بلين:

ـ حسناً!.. مهمتي ان اعزم بالتعاويذ والبخور والادعية لاستحضر الرصد... وانت تتفاهم معه... يجب ان يكون قلبك كالصوان، ولا يرف لك جفن من خوف او من رحمة. ستجلس قبل الغروب، غداً ان شئت، في وسط الكهف على ركبة ونصف.. وتقبض على سيفك وطرفه مشكوك في الارض، وجهك باتجاه الجنوب... وانا اعزم بتعاويذي وادعيتي وبخوري... ستظهر لك اشكال صغيرة ضئيلة ولكن تكبر وتكبر بشكل هائل وهي تقترب منك... لا تخف... لا ترأف... وعندما يهاجمك الشكل اضربه بسيفك على العنق... سيظهر لك آخر وآخر... حتى يأتيك عبد، ولما يكتمل شكله اطلب الامانة التي في حوزته لك... وانظر ما يقوله لك.

قال الداكن محذراً:

ـ اسمع... اذا خفت، او تلجلجت فلم تضرب في لحظة مواجهة الشكل لك، سوف تمس فتجن وقد تموت!.. ها انذا احذرك... اذا كان في قلبك ضعف، فلا تحملني وزر ضياع عقلك وربما حياتك... انا اعرف انك شجاع... ولكن هؤلاء ارضيون وليسوا بشراً.. لهم رهبتهم اولئك المجبولون من النار وهي تزعزع اصلب قلوب البشر واكثرهم شجاعة.

اجاب « شوجن » بعدم اكتراث:

- إذن غداً قبل المغيب.

نهض الشخص القاتم يتمتم بكلمات غير مفهومة ثم مد يده العصوية وشد على يد « شوجن » بحرارة. لاحظ الآخر ان اليد النحيلة الوتدية صلبة وقوية. خرج معه الى البوابة وهو يحمل الفانوس ينير به الطريق للضيف الغريب. كان الثور يخور، والحصان يحمحم وهو يدور في الاسطبل، وقوقأت الدجاجات بحركة مضطربة في الخم.

وضع « شوجن » الفانوس ارضاً وادار الرتاج الخشبي الضخم وفتح الباب الصغير، خرج « شوجن » اولا وهو يحمل الفانوس، وتبعه الضيف القاتم دون ان يتفوه بكلمة.

كان الليل شديد السواد، وهسهسة السيل الذي يجري بين الحصى تبدو وكأنها همهمة وحش خرافي. كانت الضفادع تجتر اغنيتها الصغيرة، والجنادب تتبادل حوارها العبثي الحزين. هبت نسمة خريفية رائقة، حملت رائحة طحالب الماء والسمك والتبن الناشف والروث وبقايا دخان المواقد... أحس « شوجن » وكأن الندى يهمي في هذا الصمت القاتم، فيرطب وجهه. نظر تجاه الرجل القاتم يحاول ان يتميزه، ولكنه اصبح قطعة من الظلام. ابتسم بشيء من السخرية. رفع الفانوس الى اعلى، اضاء وجهه الصارم الجميل نور احمر مرتج وكشف قامته المتينة المتناسقة. اغلق الرتاج الخشبي الضخم واتجه الى البيت. كانت « بيضاء » تقضم فطيرة البطاطس كفأرة صغيرة قلقة وكانت تنظر نحو الباب من تحت اجفانها الثقيلة.

بدا الكهف مع اقتراب المغيب كزجاج مغشى، وبدأت خيوط الضوء تتراجع امام لسان العتمة تلاحق بقايا الضوء.

ارتكز بركبته اليسرى على الارض، والثانية مثنية امامه باستقامة، يده اليمنى تقبض على مقبض القامة، ويشك طرفه الحاد بالارض عند القدم، وجهه باتجاه الجنوب، رائحة بخور قوي تتسرب خفية تحمل معها رؤى حائرة.

قفزت امامه فجأة سخلة صغيرة قزمة، اخذت تتقافز حوله عابثة وهي تنظر اليه بعينيها الوديعتين... رقت نظراته وهو يتابعها بنظرة حذرة، كان قلبه يخفق بترقب، تذكر قول المغربي محذراً:

ـ حذاري ان تأخذك الرأفة أو الخوف.

ولكن السخلة الصغيرة اللطيفة باذنيها المتطايرين مع قفزاتها الرشيقة، اخذت تكبر وتكبر وهي تقترب منه، واخذت تحدجه بنظرات قاتمة، وعندما قفزت في وجهه كانت بحجم ثور ضخم هائج وعيناها تقدحان شرراً. لفحته انفاسها ساخنة وكأنه هواء يندفع من جوف تنور. ارتفعت يده بسرعة البرق، والتمع النصل قاسياً وهوى على عنق الثور السخل.. انغرز طرف «القامة» في الارض الصلبة من شدة الضربة. ضج قلبه بالخفقان ولكنه احس بنشوة مسحورة تنتشر في اعضائه. ولكن، وفي اللحظة التالية قفز ديك صغير، عرفه احمر يتمايل مع حركة رأسه الدائبة، عيناه حمراوان، وريش اجنحته الصغيرة يتماوج بين احمرار واخضرار وزرقة ملتمعة، وهو يضرب الهواء بجناحيه بطريقة مضحكة، ويثير بعض الغبار وهو يكنس الارض بأظافره ثم يمسح منقاره وكأنه ينظفه او يسنه... اخذ يدور حوله، وبدأ يكبر ويكبر حتى صار بحجم حمار، ويحف اطراف الكهف بجناحيه عندما يفردهما... رأسه بدا مخيفاً وهو يحدق فيه بعينين صقريتين حمراوين.. وصفق بجناحيه النسريين، إمتلأت اذناه بالضجيج الصاخب ودار الهواء عاصفاً في وجهه كزوبعة... ولم

يلبث الديك النسر ان انقض عليه وهو يفتح منقاره الضخم الاصفر القاسي، وبرق السيف وهو يهوي على العنق الغليظ ذو الريش الاحمر المخضوضر اللامع. وارتجت يده وشك طرف «القامة» منغرساً في الارض الصلبة، سحبها سريعاً وثبت طرفها في الارض امام القدم التي يرتكز عليها قريباً من الركبة التي على الارض. وفجأة خرجت امامه افعى صغيرة صفراء، مرقشة بالبني الغامق، رشيقة خفيفة. وبدأت تتلوى وتلتف حول نفسها، تكبر وتكبر، وتكبر... فتحت فمها تفح كالصهيل وهي تحدق فيه، ومدت لسانها الشعبي فبدت كأذرع اخطبوط... انيابها كمخارز معكوفة، وكان رأسها بحجم رأس جمل... زحفت حول الكهف وحراشفها تصدر خشخشة حديدية، وفحت فلفحته انفاسها تكاد تشتعل وكأنها هبة من رياح الجحيم. وانقضت وهي ترفع رأسها عالياً متأهبة للدغ. وصفر السيف، وسمع فحيح عظيم ولفحه هواء خارج من الجحيم.. تلوى جسمها الطويل الهائل ثم اختفت، وفي اللحظة التالية وقبل ان يأخذ نفساً، كان امامه عبد صغير قزم... كأنه قطعة من الليل، بياض عينيه الصغيرتين واسنانه تتلامع كشرارات تنطلق من نجمة متهاوية في اعماق العتمة. بدأ يكبر يكبر ويكبر حتى صار رأسه يصل سقف الكهف... شفتـه السفلى ضخمـة متـدليـة كشفـة جمل هـائـج... عينـاه تشتعلان كجمرتين، وكله سواد يلتمع. يستر عورته بمنشفة بيضاء يلفها حول حقويه. وقف امامه مباعداً ما بين قدميه ومصالباً ذراعيه... كان وجهه متعباً، وقال بصوت شاكي:

ـ ها!... حسناً... قلبك قد من الصخر... تستحق ان اسألك ماذا تريد... ولو اني اعرف.

قال «شوجن» بصرامة وهو يواجه نظرات العبد الجمرية:

ـ اريد الامانة التي عندك خاصتي.

فرد العملاق ذراعيه والقاهما على جانبيه وقال متنهداً:

ـ منذ زمن بعيد، لم اعد اعرف بدايته، اوكلت لي حراسة هذا الكنز... لقد تعبت من طول محافظتي على الامانة... وضاع حساب الزمن عندي، وانا اتطلع شوقاً الى التحرر من هذه العبودية... ألزم تحرري بشرط وجب ان تقدمه لي...

قال «شوجن» برصانة:

ـ اطلب ما تشاء ايها السيد... اني مستعد لتلبية مطلبك.

ابتسم العملاق الابنوسي اللامع باشفاق وقال بطراوة:

ـ ليتك تستطيع! ارجو ذلك. ارجو ذلك يا «شوجن». انت رجل شجاع، وتستحق هذه الامانة الثمينة.

بدا صوته ووجهه متعباً وهو يقول بعد لحظة صمت:

ـ قلبك شجاع، ولكنه كبير... لذلك اشك ان تقدر... ولكن، ارجو ان تفعل.

وبدا العملاق الابنوسي اشد سواداً وبدا أكثر انهاكاً وتعباً. قال «شوجن» بتعجب:

ـ تفضل... تفضل اطلب ما تشاء... قلت لك اني مستعد...

تنازعت شفتا العملاق ابتسامة اشفاق وقال بصوت (عميق رخيم قوي النبرات).

ـ اسمع يا «شوجن»... تأتيني بطفل في السابعة من عمره اشقر الشعر ازرق العينين، وتذبحه هنا حيث اقف، كما تذبح شاه... هذا ما فعلوه عندما سلموني الامانة قبل آلاف السنين... وهذا ما يجب أن تفعله لتستلم الامانة!.

وبقي صدى صوت العملاق الابنوسي يرن في اذني «شوجن» بعد ان اختفى.

تلفتت الحفيدة الكبرى بخوف، وقالت بصوت يرتج برغبة سرية، وكانت نظراتها تشي بالفضيحة، وبخفوت ترفع كتفيها وتميل برأسها نحو الكتف الايسر، مستسلمة لمشاعرها المتباينة:

- ايوه... ايوه... ثم ماذا حدث؟... هل حصل «شوجن» على الكنز؟.. هل ذبح الطفل الاشقر أزرق العينين؟.. لا بد ان يكون الطفل شركسياً بهذه المواصفات... هس. اظن انني سمعت صوتاً... لا اعرف ما هو الصوت، ولكن، يبدو نداء باسم ما...

وساد الجو صمت قاتم، كانت العيون تدور بحذر وكأن هناك من يحصي حتى حركة العيون وعدد دورانها ليحاسب عليها... وفي الخارج انبعث صوت غامض اخرق قليلا... وكأنه همهمة صوت غاضب منزعج... وانطلقت صرخة عالية مدوية... انكمشت الاجسام، وانحبست الانفاس وشحبت الوجوه، وانطلقت النظرات الى الام.

كانت تحاول ان تقذف بالغطاء، وتشد جذعها.

قالت الوسطى بخوف:

- اين تريد ان تنطلق!..

قالت الكبرى برعب وهي تقوس ظهرها بينما تدس اقدامها بسرعة داخل الخف البني البيتي:

- اذا قامت من السرير سأنطلق الى البيت دون ان التفت خلفي.

قالت الوسطى بخبث هامس:

- في مثل هذا الوقت من الليل لن تجدي حتى حنطور..

ردت الكبرى بهمس وعيناها تدوران في محجريهما:

ـ سأظل اركض على نفس واحد... ان الليل مهما تأخر، يظل أقل ارعاباً من معركة الام الخفية.

قالت «ياسمين» الحفيدة الصغرى وهي تندس بمقعدها داخل الحلقة، وهي تكاد تبكي وتضحك، وتشد تنورة امها:

ـ تلك المهمهات والصرخة الثاقبة!.. هل انطلقت من الجدة؟... هل تصرخ على احد... أو من احد؟...

وكتمت الابنة الصغرى غرغرة ضاحكة في حلقها وهي تشير عليهم بالصمت:

ـ هس... اسمعوا... انها قطط.

قالت الوسطى بشيء من الخوف وبعض الدعابة:

ـ يقال ان القطط تشم رائحة الموت قبل مجيئه، وتقتتل فيما بينها لتقرر من سيخطف عيني الميت.

وجموا... طرقات على الباب.

حلقت الام بالباب، سألت باباج باضطراب:

ـ من هذا الآتي من قلب الزوبعة؟

قال «باباج» وهو يطرق الارض بطرف عصاه:

ـ لا شك انك خرفت «ناشخوه». كيف تتغشمي عن ممدوح؟ ابنك... ابنك ممدوح هـ.. يـ.. ـه.. «مسرخان»!

وحرك طرف عصاه في وجهها مؤنباً:

ـ هل اخذتك الدنيا الى هذا الحد، ام اضعت عقلك؟...

حركت يديها مهوشة، جحظت عيناها.

بهمس راعش تمتمت الابنة الكبرى:

ـ هل وصلنا الى الفصل الاخير؟...

هـمـهست الوسطى وهي تقترب بوجهها من الاخريات:

ـ انها تسلم الوديعة...

تمتمت الصغرى:

ـ سيغلق كتاب عمره قرن...

قالت بهية وهي تقلب كفيها:

ـ لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم... انا لله وانا اليه راجعون.

ـ «باباج»، امسكه... بسرعة، بسرعة... انه يضرب خزانة الملابس بوجهه... يا الله... يا رب العالمين... يا ستار... انه يصطدم بالحائط... امسكه... ها هو ذا يدور كالزوبعة، يتعثر بكل الاشياء.

تفتر شفتا انزور الرقيقتان عن ابتسامة ساخرة، تضج عيناه بشقاوة:

ـ فقط... الا يبول على احد ما... انه يفعلها اينما يصطدم عندما تمتلىء مثانته... ألم يتبول على زوجته في احدى الليالي عندما اصطدم بسريرها قبل ان تستيقظ وتقوده الى الحمام!.. وليلة اخرى تبول على مائدة الطعام...

وخبأوا ضحكاتهم في اكمامهم. ادارت «مولى خان» وجهها الى الناحية الاخرى وابتسامة عابثة تكسر الوقار الذي يحيطها.

ـ امسك به «باباج»، انه يفك ازرار بنطلونه...

ضج انزرو ضاحكاً... تنهدت هي باسترخاء، وخفقت ابتسامة خرقاء

على تقاطيعها وعادت تسترخي بين وسائدها. همست:

ـ امسكته في الوقت المناسب قبل ان يفعلها عليهن...

توقفت يد ممدوح بين الازرار، انصت راخياً اذنيه، ونظر في عيني «باباج»:

ـ انها هي إذن.. هذا صوتها... خفت ان اكون قد اضعت الطريق...

اكتأبت أساريره:

ـ انت تعرف... اضيع كل شيء هذه الايام...

قال الجد بلهجة من يداري طفلا:

ـ لا بأس... لا بأس. لقد امسكت طريقك اليها هذه المرة. عندما اتيت بحثت عنك لتأتي برفقتي... ولكن لم اجدك في الجوار... لا بد انك سرحت مع آلتك العجيبة بحثاً عن الذهب، افهم ذلك... ولو اني لا اعرف ما جدوى الذهب هنا؟... ايوه... انها هي بالذات... ولكن... ارفع سروالك قبل ان تندفع نحوها.

ترك سرواله ينساب حول حقويه المزيلين وهو يصفق ويهسهس:

ـ هو ذا صوتها... انها هي... نجحت... انا مشتاق اليها...

واندفع كزوبعة هائجة، واستقر السروال متكوما حول قدميه... وتعثر... امسك به «الجد»، وعندما استقام كان قد نسي ما الذي ركض اليه.

قالت الام باشفاق وهي تهز برأسها:

ـ تعال... تعال هنا يا بني... لم اعرف انك ذهبت هناك... يبدو ان وضعك هناك ليس بأفضل مما كنت هنا، تعال... دعني اقبل

عينيك... يا روحي... يا عيوني... عيناك اللتان كانتا تشعان ذكاء واصبحتا كامدتين، كنجمتين منطفئتين.. تعال.

بدا انه ينصت للصوت ثم اندفع نحوه وهو يتفلت من بين يدي الجد، وقد بقي الزر الاخير بدون تكبيل، ومهدداً بالانزلاق حول حقويه مرة اخرى.

هتفت «مولى خان» بوقار:

- هش... احذر... بهدوء يا ولدي. ها!. لقد حصل ما خفت منه... استفاق «حسن»... سيبدأ بالصراخ الآن.

كسرت الابنة الصغرى طوق الصمت المطبق قائلة وهي تنهض:

- اعتقد ان احداً ما بالباب... الا تسمعون أحداً ينادي؟..

قالت الكبرى بحزم:

- انا لن افتح الباب... حتى ولو كان الطارق والدي.

قالت الوسطى متخابثة:

- ربما بعض الارواح تزور الام...

هسهست الصغرى وهي تضع يدها على فمها:

- هل تتحول الام الى مواضيع مرعبة!.

واسرعت نحو الباب وهي تدير وجهها نحوهم وتمد طرف لسانها معابثة. ضغطوا الابتسامات المتفلتة باسنانهم، واختطفت العيون نظرات متواطئة نحو الام. سمع صوت الابنة الصغرى مرحباً.

- اهلا... اهلا... تفضلي.

ـ ها.. قولي عميمة... هل وجد الخال طفلاً اشقر بعيون زرق وذبحه للرصد...

همست بهية متباهية:

ـ آه... لقد احضر المغربي الطفل المنشود، سرقه من مكان ما... كان الطفل مذعوراً تدور عيناه الزرقاوان في محجريه كعيني فأر مذعور منشده. قال المغربي مشجعاً:

ـ هيا... قم بما طلب منك...

ولكن «شوجن» صرخ به وقد جن جنونه:

ـ اغرب عن وجهي يا سحنة السوء... اتريدني ان اذبح طفلاً لأجل المال... فوالله لو جئتني بكنوز العالم كله لما جرحت له اصبعاً... اغرب عن وجهي يا خفاش النحس قبل ان انحرك مكانه.

وتراجع المغربي مدهوشاً، وخفق بجناحيه الغرابيين واختفى من البوابة مهرولاً قبل ان يلحق به «شوجن»...

6

ـ آه باباج.. ولكن، انا لا ارى جان هنا... هل لا زالت غاضبة منك... لقد بدأت انسى... انها بعيدة جداً... هناك في «بلق كسر» كيف يمكن ان تأتي... هي لا تعرف ان تتدبر امورها... لم تعودنا على ذلك...كان ذلك قساوة منك... لقد خرجنا من البلاد... ولم يعد للالقاب المنزوعة عن واقعها المادي اي اهمية... ثم لا تنسى أن في الغربة يصبح الكل سواسية، نحيا بالقليل.

ـ لا تخرفي يا «مسره خان». صحيح جئنا الى بلاد بعيدة غريبة مجهولة... ولكن لم نأت كأفراد لننسج الاكاذيب والتقولات عن ماض تبقى حقيقته سراً نحمله الى قبورنا... بل جئنا مهجرين كأقوام وعوائل وأجزاء كبيرة من الشعوب التي اتت واستقرت... اننا نعرف بعضنا بعضاً... نعرف الاسر والعائلات والعشائر... ولا مجال لإغلاق الحفر على الحقائق.. ثم انت منهمكة تتحصنين برفضك لتتجاهلينا، ولو بيدك الامر لاخرجتنا ودفعت بنا الى قبورنا لتضمني بقاءك هنا، جان هنا، وتجلس خلفك... ولكنك لا تريدين رؤية ذلك.

والتفتت بعنف نحو كتفها الايسر، هناك كانت تجلس نحيلة بارزة

الوجنتين واسعة العينين، ببشرتها الرقيقة الشاحبة تتخايل العروق الزرقاء تحت جلدها الرقيق. تعلقت نظراتها بالوجه القريب البعيد المنسي، واحترقت الدموع في مآقيها. همهمت وهي لا تستطيع ان تبعد عنها عينيها لحظة، وكأنها تخشى ان تضيع:

- يا للايام الطيبة المنسية... كانت «بلق كسر» قرية تركية جميلة... تزدحم جبالها باشجار الجوز والبندق والثمار المتنوعة... ارضها خصبة، ومياهها كثيرة... كانت تشبه قليلاً جنتنا المهجورة.

لقد نقلنا وتنقلنا في اماكن مختلفة بتلك البلاد... هل تذكر تلك القرية التي مررنا بها؟ كانت تقع في منطقة قاحلة مجدبة تمتلىء بالبرك الراكدة والمياه الاسنة المليئة بالبعوض. كانت القرية عبارة عن مقبرة كبيرة على سفح تلة عريضة حولها بيوت طينية مهدمة خربة حاول بعضهم اصلاح بعضاً منها. التقينا ببعض الاشخاص الذين أتوا لزيارة المقبرة وقالوا ابتعدوا عن هذا المكان المشؤوم... ارضها جرداء ولا تعطي شجرا ولا ثمراً، لا ينبت فيها الا الشوك. تكثر فيها البرك الاسنة التي تكوّن اعشاشاً مناسبة لتفريخ البعوض القاتل... لقد اصابت سكان القرية المهجرين الملاريا وقتلتهم واحداً اثر واحد... لم تترك صغاراً ولا كباراً... انا اعرف اللغة التركية واقرؤها، وسوف اقرأ لكم الاسماء التي كتبوها على القبور... تعلم بعضهم الكتابة بالتركية التي هي احرف لغة القرآن بالاصل، لتكتب على شواهد القبور... حتى يستطيع من يمر بها ان يقرأ الاسماء ويتعرف على العائلات ويعرف انها كانت قرية شركسية... انهم من المهجرين الاوائل نقلوا هنا واجبروا على السكن في هذا المكان الموبوء بعد ان اخذوا الشباب منهم الى الجيش العثماني... وخلال بضعة اشهر بدأ الموت يحصدهم وآحداً اثر آخر... تواريخ الدفن

تدل على ذلك، وفيما يقارب السنة تحولت القرية الى مقبرة كبيرة كما ترونها تسف الريح عليها الرمال، وتحرقها اشعة الشمس الحارقة وفي الشتاء تجففها الرياح الباردة الخالية من الامطار... ماتوا كلهم خلال سنة وظلت بيوتهم مشرعة للخراب والموت.

كانت كل الاسماء معروفة، وكان أشخاص معروفون عند البعض منا. لملمنا اسمالنا وجوعنا وومضة الحياة الذابلة في عروقنا...

وهكذا وصلنا «بلق كسر». اعطونا قطعة ارض هناك لنستقر بها. وبعد حل وترحال قاسٍ. لقد مات من مات من المرض... ثم من الجوع، وكذلك البرد والتشرد... ولم يبق من المجموعة التي تعد بالآلاف الا بضعة عوائل قليلة اعطبها الموت والفقدان... ولم تبق عائلة واحدة لم يسحب الموت افراداً منها الى اعماق البحر او باطن الارض، بقبور ضائعة في اماكن متفرقة متباعدة.

استقرت بنا الاحوال، بعد ان استقر الحزن وعششت الفجيعة في دواخلنا. ماتت الام وتامر ويلدار، والعم وسمان الاعزب... وولدا العم زوار... «نانا» حامل على وشك الوضع. وفي «بلق كسر» وضعت «حناشه» طفلاً صغيراً مجعداً اصفر كعجوز، وضعته بالكلبك بين اقمطة صوفية بقرب موقد النار، وكانت تعصر له حبة الراحة الملفوفة بقطعة شاش نظيفة مغموسة بالحليب الى ان كبر قليلا. واستطاعت احدى الجارات التي مات وليدها ان تعصر له الحليب في فمه من ثديها... كان اسمه «موسى» ولكنهم سموه «حناشه» لشكل وجهه المعوج المجعد.

كانت بعض العوائل، المحظوظة قبلنا قد استقرت هنا. ساعدونا في بناء البيت الخشبي الصغير، وقدموا لنا دجاجة بياضة ونعجة معشرة واوزة... كنا نقطف الثمار والفواكه في البداية من الغابة، ونجمع بيض

الدجاج والاوزة للتفريخ، وننتظر بفارغ الصبر ان تلد النعجة مع الحلم ان تتسع الحظيرة الهزيلة لقطيع، ويمتلىء القن بالدجاج والبيوض وديوك صغيرة حمقاء متعجرفة باصواتها الهزيلة الناحلة تكاكي عند رؤية الفوانيس التي تحملها العجائز بعد انتهاء السهرات الدورية. والامل بطابون منفرد لكل بيت يتصاعد دخانه ورائحة خبزه الساخن، ورقائق الارغفة المدهونة بالسمن والممزوج بالجبن الدسم المملح. ونسمع ثغاء الاغنام، وخوار بقرة، ووقوقة الدجاج، وصهيل الخيل، وزعيق الاوز الغاضب في الصباحات الربيعية المشمسة. كنا نحلم باستعادة الثيران الغابرة، ومخزن الحبوب الممتلىء... ولكنا كنا نعاني مثل باقي الاسر التي هجرت مؤخرا من الاملاق... وكان «باباج» حريصاً على «كيس عظام الاجداد» الذي حمله على ظهره اينما اتجهنا. ولم يضع العظام في قبر الا بعد ان اطمأن الى استقرار الوضع. وهكذا حرمت من التحديق في محجري جدي المظلمين وفكه العاري بضحكة ابدية ومن الحديث معه. لم تستطيعي النظر الى ذلك الكنز الذي حمله «باباج» معه من البلاد.

قالت جان الصامتة كل الوقت بابتسامة صغيرة حزينة:
ـ كنت انا خوافة... وانت لم تعرفي الخوف ابداً...
سرحت «مسره خان» وهي تتمتم:

ـ آه... حقاً... يا للأيام الطيبة المنسية... اقتنينا بقرة، ولدت عجلاً ووضعت النعجة نعجة صغيرة بيضاء تتقافز بين الدجاج الذي يتبعثر هنا وهناك مقوقاً ـ صرنا نشرب الحليب، وتصنع «نانا» الجبن... وصرنا في الصباحات نبحث عن البيض بالقن وبين التبن، وعلى الحشائش، او تحت ابيات الشمام والقثاء. في الصيف حفرنا بئر ماء... ولم نعد مضطرين للذهاب الى الينابيع... وصار عندنا طابون... ولم تعد «نانا» تبخل علينا

باشعال الحطب في المواقد... بدأت الامور تستقر، ولم نعد في حالة العوز.

قرر «باباج» ان نذهب الى «المدرسة التركية»، ونتعلم القرآن ونقرأ ونكتب باللغة التركية، ونعرف الحساب.

كانت الشيخة تضربنا بعصا الخيزران عندما نغلط بقراءة القرآن او لفظ إحدى الكلمات الصعبة المجهولة. ولكننا كنا نستمتع بالخروج صباحاً والعودة ظهراً... وكنت قد بدأت تكبرين. اصبحت بالثالثة عشر من عمرك... شقراء، زمردية العينين، خدودك البارزة دائمتا التورد من الهواء او من البرد... ومن الشمس. كنت دائماً تتركين الشال الرقيق الذي يغطي شعرك ينزلق على كتفيك، فتتطاير جدائلك الشقر مع الهواء عندما نتسابق ركضاً اثناء العودة... وكنا نمر بسراى الآغا التركي في طريقنا... وكان ذلك سبب بلوانا... كنا نعيش بأمان... وفجأة انهار كل شيء في لحظة واحدة.

ارسل الآغا التركي دركياً يطلب «باباج» للحضور الى السراى مساء ذلك اليوم. انتاب الجميع القلق، وبدأ التكهن يسود كل الاسر القريبة مع بعض التمني، وقد تجمعوا عندنا بعد ذهاب الدركي...

- ترى هل سيوزع الآغا علينا اراض للزراعة؟.. هل يخصصوا لنا معاشات... او ارزاق؟.. هل كان الدركي لطيفاً ومهذباً... هل اتسمت نظراته بالوداعة... ام انه صرخ وهو يتكلم؟ هل طلب منك المجيء ام امرك ان تتوجه مساء للسراى؟ هل تكلم بجلافة... هل تلفت حواليه... وهل حاول ان يلم بنظره ما قد تكون ممتلكاتنا؟ يتوقف كل شيء على الطريقة التي تصرف بها... لهجته عندما تكلم...

اجاب «باباج» بحيرة وهو يميل الكلبك على جانب من رأسه - انا

اذكر ذلك جيداً. كنت مضطربة وخائفة، اراقب كل حركاته ـ امال الكلبك على جانب من رأسه وقال بحيرة:

ـ لم يكن خشناً، كما لم يكن رقيقاً... كان عادياً كأي دركي تلقاه في المقاطعة، فتلقي عليه التحية ويرد عليك... ثم لم الاحظ انه تقصد ان ينظر الى ممتلكاتنا... ومع ذلك تلفت حوله، كاي شخص يدخل مكاناً لا يعرفه ويحاول ان يتعرفه... انه فقط ابلغني برغبة الآغا في رؤيتي... لم يأمرني كما لم يرجوني... قال ان الآغا ينتظرني مساء في السراى... ربما خيراً... ارجو ان يكون خيراً...

كان يجلس متحفزاً وهو يتكيء بكفيه على ركبتيه، وتحرك حاجبه الايمن بقلق مخبوء وهو يكرر:

ـ لعله خيراً... خير ان شاء الله... لعل الله يشاء بنا خيراً...

وعندما عاد بعد صلاة العشاء كان برفقة رجال القرية. انشدت اذاننا الى حديثهم وايدينا تحيك ملابس للعبة القماشية على ضوء القنديل الكبير الابيض، ونحن نتابعهم من الغرفة الثانية.

استقبلني الآغا بترحاب واجلسني بجانبه، وكان يجلس بجانبه شاب لا اعرف اهو شركسي أم تركي، ولكنه يتكلم اللغتين بلغة ام. خلاصته، قال انه الآغا حاكم المقاطعة كلها، ولا داعي لان يتكلم عن حجم الثروة التي يمتلكها. قال انت ترى السراى التي له... ولكن الله لم يرزقه الا بابن ذكر واحد... وجلس بجانبه من الطرف الآخر شاب طري العود في حوالي السابعة عشرة، طويل القامة وسيم الوجه لا عيب في هيئته. قال:

ـ ابني عشق ابنتك الكبرى... اسمها جان، اليس كذلك؟.. يراها حين ذهابها وعودتها من المدرسة... عشقها... سأشتريها منك... اريد ان ازوجه اياها... اخذ الكلبك عن رأسي وقال: سوف أملؤها بالمجيديات

حتى آخرها... هل تطلب أكثر... تمنى... لن ارفض لك طلباً... اريد الابنة... ادفع لك بها ما تطلب... لن تكون امة في السراى، بل سنعقد عليها... اريدها ان تملأ الدار بالاحفاد... هي حقاً بارعة الجمال... لا الوم ابني لافتتانه بها... انها فتنتني انا كذلك... رأيتها تركض وجدائلها الشقر تتطاير مع الهواء... اريدها هنا لابني في السراى... إنْ كنت عاقلاً بمكمرزا كوندوقه، كما اسمع عنك من وجوه قومك، ستكون امورك مرضية. فكر بالامر ورد لي الجواب.

اذكر... اذكر بوضوح أنه عندما كان يتكلم «باباج» في تلك الليلة كان وجهه قلقاً ولكن تنفسه كان هادئاً مرتاحاً... اعتقد انك كنت قلقاً على امور الذين استقروا معنا وإن يكون هناك قرار بترحيلنا كلنا... وعندما ادركت انها امور غير ذلك هدأت نفسك، على الاقل بالنسبة للآخرين. سألك الجار «حاتي» ذا الوجه الثعلبي بصوته المبحوح:

ـ ولكن ماذا ستفعل يا ابن كوندوقة؟..

صمت «باباج» وبدا انه غفل عن الموجودين. كانت اصابعه تعبث بلحيته الصغيرة الشهباء وقد تعكرت زرقة عينيه الصارمتين. كانت ارنبة انفه الدقيق متوترة... وارتسم خطان قاسيان بين حاجبيه، عرفت انه سيتخذ قراراً صعباً قاسياً عليه، وصمت الجميع وقد ساد التوتر، وعاد حاتي يقوقأ:

ـ ها... ماذا ستفعل بكمرزا؟...

وفجأة تقوس كتفاه العريضان، وانهدمت اساريره، وسقط في حفرة من التعب تحاصره من كل الاتجاهات. ولكنه قال بصوت قاطع:

ـ لن يتركونا بسلام... يريد شراءها هذا الآغا... ويطمئنني بعقد قرانها... هيء... سمعنا هذا الكلام كثيراً... ماذا حدث لابنة

تامبولات... قالوا يريدونها زوجة، واصبحت امة في سراى الباشا... وابنة قامش، واخت نامسر... القائمة طويلة.

قال بيبرس الاكبر سناً بين الجميع:

ـ وتذكر ان ام السلطان شركسية ولها نفوذها، وهي التي امرت ان يعطى لكم هنا قطعة ارض لتستقروا عليها، بعد ان سمعنا بالويلات التي لاحقتكم.. انت من نبلائنا... انت ورق... وسيأخذون ذلك بعين الاعتبار... لا ترفس النعمة التي اتت لعند قدميك... لا تدوسها... ستعيش شبعاً، وسنطلب ارضاً للزراعة... الاراضي هنا واسعة وخصبة ومروية بالسيول والينابيع... لا تعرضنا للمذلة والنقمة...

هز «باباج» رأسه وهو يقول:

ـ إنْ بصقنا الى اعلى فعلى شواربنا، وإنْ بصقنا الى اسفل فعلى لحانا... انت تعرف جيداً يا بيبرس ما هو مصير فتياتنا في السراى. لقد تزوج السلطان شركسية ليجتذب الشراكسة الى الهجرة. انه يضم المقاتلين الأشداء الى جيشه ويرسلهم لقمع اي شعب يتململ من جوره، واي مقاتلين يتمردون على ظلمه. لقد حول سلاحنا وشجاعتنا وقدراتنا على القتال الى اداة للقمع والاضطهاد. نحن لسنا سوى لاجئين أو مهجرين من ديارهم... اننا ضعفاء... مهيضو الجناح، لا نستطيع ان ندافع عن كرامتنا ولا ان نرفع رؤوسنا في وجوههم. انهم الاقوى، وما نحن بعد ان تخلينا عن وطننا الا ظلال رجال لن نقوى على فعل شيء حيالهم، مهما فعلوا بنا... ولن نستطيع ان نحمي كرامتنا بالتصدي لرغباتهم. عندما تنتزع قدميك من تربة بلادك، لا يعود لكل وجودك وزن او قيمة... نتفتف الكلمات بسرية، ولا نقوى على مجاهرتهم بما في نفوسنا... كان «حتوغ» مصيباً عندما قال «يجب ان نحني قاماتنا حتى تمر العاصفة»...

كان مصيباً عندما قال «سأمتثل لامر القيصر ولكن سأتحين الفرصة لاعود... لن ينتزعوا جلدي... وسأعود يوماً الى ارضي ووطني»...

عندما اخذ كلبكي عن رأسي وقال سأملؤه بالمجيديات حتى حافته، كان واضحاً انه يريد شراءها وما كلمة سنعقد عليها الا لابتلاعها وتمنية النفس بغير الواقع لتمرير الخطأ...

لقد عضضت على الكلمات، ثم ابتلعتها، لتبقى في جوفي كالشظايا تجرحني. لن اتسبب لأحد بالاذية بالتعبير عن ردة فعلي. عندما لا تستطيع ان تفعل شيئاً لا جدوى من تفتفة الكلمات الا ان تجعل الامور تصل الى النتائج التي يبتغونها... انه يعرف من انا... واعتقد انه يدرك تماماً انني لن ابيع ابنتي ولو بثقلها ذهباً... ربما كان ينتظر ان استعمل الوسيلة المتاحقلي، تغليظ الكلام، عندها يمد يده ويأخذ الفتاة... هل استطيع ان افعل شيئاً؟... أو أن اوافق على البيع مرغماً... وان فعلتها، كيف يمكن للرجل ان ينظر في وجوه الناس ان اعتلت العين على الحاجب؟!. انا ابن كوندوقة ان فعلت ذلك، ماذا يمكن ان يفعل باقي الخلق؟. ماذا يفعل اولئك الذين كانوا اتباعاً لنا؟. سيملاؤن وجهي بصاقاً كل امواتي من وسط قبورهم هناك... حملت عظام اكبر اجدادي في كيس على ظهري من هناك، كيف سأجرؤ على الاقتراب من موقع هذه العظام؟ لا... صحيح انهم من يملكون السلطة والنفوذ لانهم على ارضهم ، وفي اوطانهم... واما نحن... فاننا لا نملك حتى جباهنا، لنرفعها... فليتقدم من يبغي الزواج منها...

قال «بيبرس» مرة اخرى وهو ينهض متطيراً:

ـ ما قلته حقيقي تماماً، كوجودنا التعيس ها هنا... لكن لو بقينا على ارضنا وفي اوطاننا لداسنا الغزاة. كانوا خصوننا كعجول التسمين،

وسبوا نساءنا... وباعوا اولادنا... والآن... ونحن في اوطان غيرنا لسنا سوى ظلال رجال... سلم فمك يا ابن كوندوقه... هذا صحيح... والصحيح ايضاً، من يجرؤ على تزويج ابنه من ابنتك، وفي قلوب اولئك القوم الذين يملكون مصائرنا دودة تتطلع الى جسد ابنتك يا بكمرزا... اعذرني.. لا اعتقد انك ستجد من يفعل ذلك... نحن ظلال رجال.. هذه حقيقة...

اتكأ على عصاه وخرج وهو يظلع وقد ازداد عرجه دون ان يلتفت الى احد، وبدا متعباً غير قادر على القاء السلام.

ناخ حزن ثقيل على الاكتاف، تسلل الموجودون واحداً اثر آخر، بصمت ووجوم. وبقي حاتي الثعلبي، وبصوته الصرصاري قال وهو ينهض متفكراً:

- لا بد ان نجد حلاً... لعله خير... لعله خير...

والقى نظرة سريعة ماكرة على وجهك من الباب المفتوح. كان وجهك مبيضاً كالشمع، وشفتاك لا لون لهما، واحاطت عينيك نجيمات كحلية اصطبغت بحلقات قاتمة.

وطلب «باباج» ان نذهب للمدرسة كالمعتاد... وعند العودة، رجعنا من طريق دغلية بعيدة بعض الشيء، وكنا نتلفت ذعراً ونحن نركض بين شجيرات الزعرور.

بعد اسبوع زوجوك من حاتي الثعلبي بشاربيه وصوته الصرصاري، كان هو الوحيد الذي تقدم لطلبك.

عقد القران بصمت، وغرقت ببركة راكدة من الحزن والوجوم، ثم تسللت في اليوم التالي لعقد قرانك الى المدرسة وحدي. وقبل ان تفرغ

المعلمة من حصة الحساب الاخيرة جاء ثلاثة من الدرك بلباسهم الرسمي، وسيوفهم المتدلية على جنوبهم، وشواربهم المعقوفة. قال اولهم وهو دركي مربوع الجسم مفتول العضلات، على خده الايسر اثر جرح عميق، فيبدو وجهه مائل نحو اليسار، وعيناه داكنتان وقّحتان. قال بصوت حلقي:

ـ امرنا سيدنا الآغا ان تذهب كل البنات من المدرسة الآن الى السراي لانهن مدعوات الى الغذاء.. كلهن بدون استثناء... وهو يأمر الا تعود أي واحدة الى بيتها مهما كان السبب، وانت مسؤولة عن ذلك. قال موجهاً الكلام للمعلمة.

وساقونا الى السراى برفقة المعلمة، ودخلنا الى باحة كبيرة تتسع لكل جموع الشركس الموجودون في «بلق كسر». باحة كبيرة مبلطة باحجار مسطحة ذات اشكال واحجام متباينة، تحيط بها احراش الزرائع والاشجار المزهرة والمثمرة بالوان متلألئة، وكان عبق ساحر ينتشر من اريج الازهار.

صفت موائد مع مقاعد منخفضة على عرض الساحة، وملئت الموائد بصواني الارز وقطع اللحم الكبيرة الناضجة وزبادي مرق اللحم واللبن، واوعية زجاجية فاخرة مملوءة بقطع الدجاج المحمر. وعلى موائد منفصلة رصت اوعية شفافة مملوءة باشكال هرمية بانواع لا نعرفها من الفاكهة، وانصاف البطيخ الذي نزع قشره وقطعت بشرحات طولية، فبدت كرؤوس مسلوخة محززة مدمية.

شعرت بالخوف. لم استطع ان اكل بينما اقبلت الفتيات على الطعام بايديهن، يأكلن متمطقات بلذة... واختفت قطع اللحم وافخاذ الدجاج وصدورها بسرعة مذهلة، وامتلأت المساحات الفارغة بالعظام. ثم اندفعن الى صحون الفاكهة، وكنت لا اسمع الا اصوات قضقضة، ولا ارى الا

حركة افواه تمضغ، تمضغ وتمضغ بشهية ابدية... وبعد ان جردت الاواني من محتوياتها، جلسن وقد باغتهن خجل متأخر، يتجشأن، ويتراجعن بأكتافهن الى الوراء لتتمدد بطونهن المتخمة، واخذن يمسحن اصابعهن بمفارش الموائد واغطية المقاعد الواطئة المنجدة، وعيونهن تحملق فوق الى الاشجار متغافلة عما تفعله اصابعهن...

خرج الاب برفقة فتى وسيم من باب مزركش، ووقفا عند مدخل الباحة المسورة بسور عال مشجر، وهما يتوشوشان بتواطؤ، وكان الاب يبتسم متخابثاً، وسبابته تفتل طرف شاربه القاتم كجناح غراب. وكان دركيان يقفان عند طرفي المدخل، اما الثالث ذو الخد المائل فكان يقف على يسار الآغا ويتنصت الى وشوشة الآغـا مبتسماً، ثم قال بصوت عال:

ـ الآن تستطعن العودة الى بيوتكن بعد الدعاء للآغا بطول البقاء وزيادة الثراء.

ولهجت المعلمة بالدعاء والبنات يرددن بعدها: آمين... آمين...

آمين ممطوطة منغمة ناعسة وهن ينكشن اسنانهن باظافرهن. وسمح لنا بالخروج فتدافعت الفتيات نحو المدخل، ولكن الدركيان بدءا ينظمان المرور، واحدة فواحدة. وعندما وصلت اشار الفتى نحوي فامسك الدركيان بذراعي وسأل الآغا:

ـ اهذه هي جان يا بني؟.

اجاب الفتى نائياً بوجهه:

ـ انها اختها الصغرى

امسك الآغا بي من كتفي وقال بصوت كظيم:

ـ اين هي اختك؟

ـ انكمشت مذعورة كأرنب حاصرته الذئاب. خرج صوتي ناحلاً

فأنكره سمعي:

- ليست هنا...

هزني بغضب وصرخ

- اين هي إذن؟

انكمشت الفتيات كفئران محاصرة، ذبت خجلاً من نفسي ومن الفتيات. اجبت بقوة وانا استعيد شجاعتي وافرد جسمي وارفع رأسي واصرخ ملء صوتي بغضب:

- اترك يدي. اختي بالبيت ماذا تريد منها؟

تمالك نفسه وسألني محاولاً التلاطف:

- ولماذا لم تأت الى المدرسة؟.

قلت بهدوء وانا انظر في عينيه:

- لقد تزوجت...

دفعني بقبضته في صدري دفعة انتزعتني من ايدي الدركيين. ارتطمت بالمدخل، حلقت بهم لحظة، وكانت الشتائم تتطاير حولي كالحباحب متدافعة من فم الآغا:

- ابنة الجرو الاجرب... ابنة الجرذ... هل فعل ابوك الخصي ذلك... هل جرؤ على فعل ذلك... سيرى سريعاً نتيجة غبائه وتحامقه... سيدفع ثمن ذلك غالياً... ستدفعون كلكم يا اولاد الزنا ثمن ذلك...

عندما ادركت انني تحررت من طوق القبضات اندفعت اركض، ولم اتوقف عن الجري حتى وجدت نفسي داخل غرفتنا. وكان «باباج» يذرع الغرفة جيئة وذهاباً عاقداً يديه خلف ظهره وقد استبد به القلق لغيابي.

في تلك الليلة قادنا حاتبي داخل عربة قش الى المقاطعة الثانية. وصلنا ظهر اليوم الثالث. ركبنا شيئاً يتكون من غرف صغيرة مستطيلة متصلة ببعض، لها عجلات كثيرة صغيرة كأرجل «عصاية موسى» السوداء. وكانت سوداء عملاقة، مخيفة... تساءلت اي نوع من الثيران هذه التي تستطيع ان تجر هذه البلوى... ولكن هذه الدودة السوداء لم تكن بحاجة الى ثيران لجرها، وبدلاً من ان تتسلق الاشجار، تسلقت خطين حديدين يمتدان، ربما حتى نهاية الارض... تجري عليهما بسرعة مخيفة، فتركض الاشياء على جانبيها، ثم تهرب الى الوراء بعيداً... ربما من شدة الخوف... بينما الدودة العملاقة تجري، وتجري، تتقيأ الدخان حلقات قاتمة من جوفها وتزعق بصخب بشع... ثم تطلق تجشآت متلاحقة تتحول الى هدير متصل، ونحن في جوفها نجلس على مقاعد مريحة وننظر من النوافذ التي في بطنها دون ان نتعب ابداً... ايه، قالوا هذه الدودة العملاقة تسمى... «ترين».

ـ يا حسرتي على عمر التهمه الشقاء... ايحسب ذلك عمراً؟...

ـ تامبوت... فدتك عيوني... فدتك روحي... اسمعني شيئاً يزحزح الصخرة الرابضة على صدري...

ـ اذا اردت اعزف لك واروي حكاية «منجل النارتيين»[1]. كيف ترين ذلك؟

تمددت بين الوسائد، ارخت جفونها وقالت متنهدة:

(١) ملاحم نارت الشركسية.

ـ جعلت فداك تامبوت... انها حكاية مسلية.

غلال وفيرة كانت تنبت في حقول النارتيين عادة، ولكنهم لم يكونوا يملكون ما يحصدون به هذه الغلال، لذلك كانوا يقطفون السنابل بايديهم سنبلة سنبلة، مما يأخذ وقتاً طويلاً فتجف معظم هذه السنابل قبل قطافها وتتناثر حبوبها في الارض. لذلك قرروا ذات يوم ان يستمروا في قطاف السنابل ليلاً على ضوء القمر.

عمل النارتيون طوال النهار حتى خيم الليل، وعندما جلسوا ليأكلوا رأوا الهلال كقوس ذهبي في كبد السماء، فابتهجوا وانهوا طعامهم بسرعة وعادوا الى قطاف السنابل في الحقول. وما شرعوا في عملهم حتى خيل اليهم ان الهلال يهوي الى الارض. شده النارتيون واخذوا ينظرون مأخوذين الى اليد السوداء الطويلة التي تسحب الهلال الى ما وراء الجبال العالية. وعندما اختفى الهلال عم الظلام ولم تعد ترى من يمد يده الى عينيك.

وفي مساء اليوم التالي ظهر الهلال ثانية في السماء، ولكن ما ان بدأ النارتيون قطاف سنابلهم، حتى امتدت اليد السوداء الطويلة من وراء الجبال وامسكت بطرف الهلال واخذت تجره، وصار ذلك يتكرر كل مساء. لذلك لم يستطع النارتيون ان يقطفوا سوى نصف سنابل غلالهم، وتناثرت الحبوب من بقية السنابل وضاعت.

لم تكفهم الحبوب التي جنوها لطعامهم في ذلك العام حتى حل موسم الحصاد في العام التالي من جديد. عمل النارتيون طوال النهار، وجلسوا

مساء ليتناولوا طعامهم. كان الهلال يتلألأ في السماء، ولكن اليد السوداء الطويلة امتدت ثانية من وراء الجبال العالية واخذت تجره. حار النارتيون في الامر واصابهم القلق، ثم ذهبوا الى السيدة ستناى واخبروها بالامر. فكرت السيدة ستناى واشارت عليهم بما يلي:

- اطلبوا من سوسروقة ان يركب حصانه، وارفقوه ببعض الفرسان، وارسلوهم ليستطلعوا الامر.

اركبوا سوسروقة النارتي حصانه، وارفقوه بمجموعة من الفرسان وارسلوهم. انطلق الفرسان يمشون ويقفزون حتى وصلوا الى الجبال. ضرب سوسروقة حصانه «تخوجي» ثلاث ضربات واعتلى القمة العليا في طرفة عين. وساعد باقي الفرسان بعضهم بعضاً فارتقوا الجبل ووقفوا الى جانب سوسروقة. وخيم الليل بسرعة، وما ان ظهر الهلال يتلألأ في السماء، حتى نهض رجل اسود طويل القامة من شاطىء احد الانهار، ووقف على اصابع قدميه، وامسك بطرف الهلال واخذ يسحبه نحو الارض. هيأ سوسروقة قوسه وصوب نحوه، ولكن رفاقه اعترضوا عليه قائلين، دعنا نرى اولاً ما سيفعله. انزل الرجل الاسود الهلال فأضاء البراري، ثم مد يده وهو يمسك بطرفه الى حقل الغلال وحصد به كومة بضربة واحدة. نظر الفرسان الى وجوه بعضهم بعضاً مندهشين مما رأوا.

ضرب سوسروقة حصانه «تخوجي» مرة اخرى ثلاث ضربات بسوطه وهبط من قمة الجبل قائلاً:

- انتظروا حتى اعود.

ركض سوسروقة الى الرجل الاسود واستل سيفه، فرمى الآخر بالهلال الى السماء من جديد وفر هارباً.ولكن سوسروقة قفز وقطع عليه الطريق.

ـ من اجل خاطر الاله والاديغاغه[1] دعني وشأني ـ توسل اليه الرجل الاسود ـ فأنا لا اسحب الهلال من السماء الا مضطراً، من يطعم سُكّان هذه البلاد هو انا واخي الاكبر. اخي يرعى المواشي، وانا أزرع الارض. اذا لم احصد بالهلال، فان غلالي سوف تتناثر في الارض وتضيع، وبعد ذلك سيموت قومنا جوعاً.

ـ لا ـ يقول سوسروقة ـ هذا ما لا يمكن ان يحصل، فنحن ايضاً اذا لم نعمل ليلاً ستضيع غلالنا وسنموت جوعاً. القمر لنا جميعاً، فليسطع نوره عليكم وعلينا. ان اعترضت على ذلك فسوف اقطعك ارباً.

بكى الرجل الاسود الطويل القامة وعاد يرقد من جديد.

ـ يا حسرتاه، ما العمل، سوف اجني غلالي سنبلة سنبلة.

عاد النارتيون واخبروا السيدة ستناى بما رأوه، فقالت لهم:

ـ لماذا جئتم إليَّ اذن؟ اذهبوا الى «لبش» واخبروه بما رأيتم.

جاء النارتيون الى «لبش» واخبروه بما رأوه، فوقف في محل حدادته وصنع لهم هلالاً فولاذياً.

ـ عجباً، كيف يمكن ان تحصد الغلال بمثل هذا؟ ـ قال وامسك احد طرفيه وثناه وثبت فيه عصا.

ـ يجب ان تكون له اسنان حتى تمسك بالمحصول ـ قال وصنع له اسناناً وسماه «منجلاً» وقدمه للنارتيين قائلاً لهم: «اذهبوا واحصدوا».

ووقف في محله ثانية، وصنع منجلاً كبيراً بحجم (الهلال) وارسله للرجل الاسود، وقال:

ـ ليبتعد عن قمرنا منذ الآن، ولا يدع اطفاله يموتون جوعاً.

(١) العادات الشركسية.

لم نخلع احذيتنا هذه المرة، ولم نحملها تحت إبطنا...

واستمر القطار في مسيره خمسة ايام. نمنا على المقاعد، واكلنا من الزاد القليل الذي احضره حاتي وبعض الاسر المجاورة التي تشجعت ومررت شيئاً من الزاد، وجمعت «نانا» ما استطاعت من جبن، ولحم قديد... ارغفة القمح المخبوزة بالطابون، وتلك الرقائق المدهونة بالسمن والجبن، تلف على بعض وتصنع منها ارغفة رقائق.. وفطائر «الحلفة» وكمية من البيض المسلوق... حملنا معنا سلتين كبيرتين، وبعض الصرر التي حملنا فيها ملابسنا... ولم تشكل ارباكاً لنا لقلتها.

والتقينا بالغرفة، في بطن الدودة مع بعض العائلات المهاجرة مثلنا من تركيا للبلاد العربية.

- واجهتنا مشكلة كبيرة... خمسة ايام اين نذهب بما يتجمع في الاحشاء...

قال «باباج». كان يتحدث بجبين متغضن، وعيون عكرة حزينة حائرة:

- كل حي رأيته على وجه هذه الدنيا، خلق له رأس يفكر فيه، ومؤخرة يتخلص بها من الفائض والزائد في جوفه... وهذه الدودة العظيمة اليس لها من مؤخرة... نحن في جوفها، واجوافنا تكاد تنفجر بما تحتوي ولا بد من التخلص منها، الطريق طويلة... وسنبقى هنا بضعة ايام... اذا بقينا هكذا فسوف تنتفخ بطوننا، وتتصلب اطرافنا، ولا يعلم الا الله كيف يمكن ان نخطو خطوة واحدة... وعندها ستبدأ الفضائح... لا نستطيع السكوت خجلاً من هذا الامر.

كانوا ثلاثة اخوة مع زوجاتهم خرجوا قبل بضعة اشهر، رفض الابوان الخروج قائلين: «عظامنا شاخت ولن تتقبل تربة غريبة، ستظل

تئن وتنوح... اصبحت عصية قاسية، وصدأت من رطوبة الايام... فالدفن في تراب وطننا... ولو انه ليس مقدساً بجبلة الانبياء، الا انه اقدس واطهر تراب على وجه الارض كلها... سيتفهم الرب حماقتنا وضعف نفوسنا التي انهدمت مع الويلات، وهل من فجيعة أكبر من ان نحرم من الابناء في شيخوختنا؟...

كان حبهم لتراب وطنهم اكبر من اي خوف واكبر من أي فجيعة... قالوا:

ـ اذهبوا برعاية الله الى ارض المسلمين المقدسة... تزوجوا، تناسلوا... وعيشوا هناك... اما نحن، فلن نحمل اجسادنا المهترئة لندفن هناك... سيحنو تراب الوطن على يتم اجسادنا العتيقة المهدمة... سيضم عظامنا المفتتة، ويمسد على قلوبنا التي تفجرت من الحزن والعذاب.

تزوجت البنات وتزوج الابناء، وكانت اعراساً عمدت بالدموع والدم، فخرج الاولاد، وكل واحد منهم يحمل مشروع اسرة تبنى من نسيج الالم والحزن والحنين الذي لن يروى ما داموا احياء. انها الرحلة الى «نهر الموت» الذي لا عودة منه ابداً.

كان «تامي» الاخ الاكبر يروي سفر الخروج والزوجات الثلاث يبكين بصمت، وهؤلاء كانوا رفاقنا في بلوانا الجديدة. بلوة الفوائض والسوائل الزائدة في اجسامنا. التفت «باباج» الى «محمت» الاخ الاصغر، وقال له:

ـ اذهب واستطلع الامر... لا بد من مخرج لهذا المشكل...

نهض، ومشى بكتفين مشدودين الى الخلف بقوة، وبدا بطنه بارزاً وهو يمشي ببطء محاذراً الا تبذل عضلات بطنه جهداً يمكن ان تضغط به على المثانة.

جلست صامتة على ركبتي فوق المقعد، ملصقة وجهي على زجاج النافذة، اكاد لا ارى شيئاً مما حولي. اشد على فخذي وانا ارتجف من فكرة رعناء تلبستني: سينفجر رشاش من الماء المنتن من بين فخذي ويغرق القاطرة.

لم اجرؤ ان التفت نحو «باباج». كنت اخشى ان يدرك خزيي، ولم ادرك ان الكل كانوا في نفس المأزق، وبنفس الحجم، وربما أكثر. ظننت انها مشكلتي وحدي واخذت ادعو الله وانا اضيق اجفاني وارسل نظرة الى آخر المدى، باحساس ان الله يقبع هناك في آخر السماء... ربما ذهب الى «بيت الماء» (المرحاض) ليخفف من ضغط مثانته... انه، في كل الاحوال، ليس مضطراً ان ينحشر في جوف هذه الدودة الساخنة... لان الله ليس له ابنة جميلة يعشقها ابن الآغا فيقرر شراءها بالرغم من موقف الاب... ولم يضطر ان يهرب من السماء خوفاً من بطش الآغا التركي لانه ليس في وطنه... ان السماء ملكه له وحده، لا يزاحمه فيها أحد... وهو كما قالت معلمة الدين «واحد احد. لم يلد ولم يولد». إذن كيف جاء؟. هل وجد تحت المائدة المستديرة الثلاثية الارجل... ام تحت البرنس الصوفي الذي يرتديه الفرسان... آه ... ربما فوق موقد النار... مثل حناشة، في ليلة صيف.

خف ضغط الانفجار وانا سارحة مع افكاري... وهطل صمت حزين اغرق الموجودين وتسرب الى اعماق نفوسهم، فانكفأ كل منهم في جوانية ذاته يفكر في حاله وفي حياته.

طال غياب «محمت» ونسينا أمره، وفجأة فتح باب القاطرة، ودخل منشرح الوجه واثق الخطو خفيفها وقد استقامت قامته، وبدا متحرراً من ضغط مثانته. احاطته نظراتنا المستطلعة المستعجلة. تكلم خافضاً صوته

ملمحاً بسهولة الخلاص من الفضيحة.

انفرجت الاسارير وانطلقت الانفاس محلقة في اجواء حريتها. وقال «باباج» موجهاً الكلام الينا:

- هيا اذهبن مع «محت» ...وجد مكاناً للتخلص من كابوس ما في بطوننا.

قلت متلعثمة وقد احسست فجأة انني مقيدة ثم اطلقت:

- هل اخرج معهن انا ايضاً «باباج»؟

اومأ برأسه، ولم افكر ان الكل يقبض على جر مثانته. اطلقت ساقي من تحتي بحذر مركب: الخوف من أن أفقد السيطرة على رشاش الماء الذي يلوب في داخلي، فتنطلق الفضيحة، والخوف ان ينكشف ثوبي المسدل بعناية فتكون فضيحة اخرى.

ومشينا كلنا كما كان «محت» مشدودي الاكتاف، نحاول شفط بروز قربة الماء التي في بطوننا دون ان تنشد عضلات البطن... ومشينا كلنا بأرجل خشبية خلفه.

قال «باباج» بصوت ثابت وقسمات صارمة دون ان ينم خارجه عن صراع الفضيحة الذي يعانيه مع ما في جوفه:

- امسكي بيد «جواشه دغه»[١] - زوجة الاخ الاكبر «نعمات».

كان الاخوان ينتظران بفارغ الصبر حتى ينهض «باباج». قام بطيئاً مستأذناً للخروج، فنهض الاخوان دون ان ينظر احدهما الى الآخر وتمتم «خوسين» بشيء من السخرية:

(١) سيدة الشمس. من عادات الشركس ان العروس تنادي افراد اسرة زوجها بأسماء لطيفة وتسمى هي كذلك.

ـ يموت الانسان وهو ما زال في هم فمه ومؤخرته...
ومشى هو الآخر محاذراً بأرجله الخشبية.

7

وصلنا عمان بعد اسبوع. توزعنا على الاسر المستقرة منذ زمن لبعض الوقت. اعطتنا السلطات العثمانية قطعة ارض عند اول دخول «المهاجرين» ـ وقد بقيت هذه المنطقة بهذا الاسم حتى يومنا هذا ـ قرب السيل، يفصلنا عنه سلسلة من اشجار الحور الرشيقة. حافظت الاسر التي توطنت في هذه المنطقة على نسق الاشجار الجميلة المخضوضرة ابداً... بنى الشراكسة بيوتهم الطينية الصغيرة خلف او امام اخوات الحور الممسكات بايدي بعض ليشكلن حاجزا اخضر مبهجاً في هذا القفر الاجرد الذي لا ينبت فيه غير العوسج والاشواك المتنوعة ذات التفاتيح النيلية الشائكة، كعناكب نيلية صغيرة ملتمة على بعضها... او تلك الازهار الزرقاء المنمنمة لشجيرات شوك قزمة... وكثير من اعشاب يابسة تتكسر اسواقها الجافة، وهي ترسل خشخشة حزينة عندما تدوسها الاقدام.

وكان هناك الكثير من العقارب الصفراء والسوداء ترتفع على ارجلها مستوفزة وتمتشق ذيلها المسموم فوق رأسها متهيئة. كانت المنطقة كلها جبلية غبراء قاحلة، لا ترى العين الا لون الغبار... اما في الوادي فكانت

الاشجار تمتد برؤوسها متسامقة وعروقها الخضراء تتغامز عابثة عند « رأس العين »، وتتمايل ازهار الدفلى بيضاء وحمراء ووردية.

هنا وهناك بيوت طينية صغيرة واطئة كئيبة المنظر لها كوى صغيرة عالية وباب واحد. والبيوت لم تكن اكثر من غرفة ومطبخ، وكل أربعة أو خمسة بيوت يحيط بها سور عال. وكانت المغر والكهوف الطبيعية منبثة بين البيوت، يوحي منظرها بالفقر والكآبة، وكأنها عيون وحشية تنغلق على اسرار وتنفث حولها الاقاصيص، ومحاطة بسور سحري لا يخترق. وينساب السيل في الليل مهسهساً يتكتم على مؤامرات الارواح والاشباح التي تنتشر في العتمة وتطوف حول مياه السيل للاستبراد ربما... او للتحرر من المؤامرات التي تحاك لاخراج وإبعاد هؤلاء المتطفلين... والاضطرار لتعلم هذه اللغة التي تشبه طقطقة البلوط عندما يشوى، ويستمتعوا بمداعبة الماء لسيقانهم الشبحية الاثيرية الممدودة في الماء باسترخاء وهم يجلسون على الحوافي بابتهاج.

إذن خلال اسبوع بنيت المستوطنة الصغيرة يحيط بها سور عال... اربعة بيوت طينية صغيرة مسكينة، وحوش كبير، في جانبه الغربي مغارة قديمة كئيبة منطوية على اسرارها، شملوها بالمستوطنة على امل اقتناء بعض الدواب في المستقبل، عندها قد تفيد... واذا ما توازنت الامور، قد تصبح مستودعاً جيداً للغلال... اما الآن فلتبقى هكذا فارغة للاحتياط. وبُنيَ المرحاض في آخر الحوش، من بعض الواح زينكو مهترئة فوق حفرة عميقة، سدت، فيما عدا فتحة مناسبة بالواح خشبية.

دخلنا البوابة الخشبية الكبيرة التي تنغلق بزلاجة خشبية من جذع شجرة كبيرة. كان الوقت عصراً، ونحن نحمل اسمالنا القليلة البالية وبعض الفرش المزيلة، تحيط بنا كآبتنا كتعويذة.

واجهتنا البيوت الاربعة، واحداً بجانب الآخر، كتلك العمروبة العملاقة التي حبلت بنا وانجبتا هنا في هذه الارض القاحلة.

تشتاق عيناي لمرأى الخضرة والغابات.

فاجـأني المشهـد. كنـت امشي متحـاملـة على نفسي احمل ضجـري وتشردي، وانظر باهمال الى واجهات البيوت الصغيرة. كانت واجهة البيت الاول تتوهج مشتعلة بقشرة ذهبية، شهقنا الاناث الأربع بصوت واحد: يا اله السموات...

توقفت مبهوتة مبهورة الانفاس معلقة الانظار بالجدار الذهبي:

- «باباج»... لمن هذا البيت الذهبي!..

توقف بقامته المديدة كشجرة حور رشيقة، والتفت الى الخلف، وداعبت وجهه المتعب بسمة عابثة وقال بصوت لين:

- يا ابـ.. نـ.. ـة.. الـ.. كـ.. لـ.. ب.. بعد كل هذه المآسي التي مررنا بها، ألديك القدرة لتفرحي برؤية التماع ما على حائط تعس؟...

ابتسم، كلمسة نسمة رطبة في ليل قائظ على وجه نائم قلق. قلت لحوحة لجوجة:

- «باباج»... كيف استطعت ان تفعل هذا... انه ذهب!.. ذهب خالص!.. تناثرت لطخات مشتعلة على وجوه البيوت الاخرى، هنا... وهناك...

قالت «جواشه دغه» - نعمات - وهي تقف مبهورة الانفاس تضرب كفاً بكف. - آسمغه - يا للعجب - ... ما هذا الذي ارى... هل هذا من صنع بشر ام انه صنع الجن!..

توقف الرجال الذين كانوا يمشون امامنا، وتوقفنا نحن ايضاً وكلنا

نقف مشدوهين امام المشهد النادر، وتساءلت جانسيت وناسيات:

ـ حقاً، ما هذا... انها واجهة ذهبية، وكمشات منثورة هنا وهناك على باقي الواجهات.

قال «محت» الاخ الاصغر سناً:

ـ حقاً هذه بلاد غريبة، وارضها وان كانت قاحلة لكنها مليئة بالاسرار والعجائب... عندما حفرنا اساسات البيوت، ارتطمت الفؤوس بحجارة صلدة قاسية، وعندما تبيناها وجدناها احجار منقوشة مطروقة بازميل ناعم... كشفناها، فاذا هي اشكال مستطيلة كالقبور مغلقة بالواح حجرية مصقولة. كسرناها بصعوبة، فاذا هي فعلا قبور حقيقية. وجدنا هياكل عظمية، ووجدنا داخلها خراخيش، ربما نسائية... بل لا بد ان تكون نسائية... من يمكن من الرجال ان يلبس اموراً مضحكة كهذه، مهما كانت غرابة عادات هؤلاء الاقوام. كذلك وجدنا جراراً صغيرة واوعية طعام فخارية. لقد استفدنا من القبور التي كانت تخرج لنا السنتها الطويلة القاسية، واحدة تلو الاخرى كلما حفرنا... ولقد جعلناها اساسات لبيوتنا.

قالت نسمات وينادونها «دشه نسه» (العروس الذهبية) بشيء من التوجس:

ـ ولكن ماذا لو غضب اولئك الموتى...

قال «محت» متضاحكاً ولكن بشيء من القلق:

ـ لا تخافي انها قبور كفار... ولن يجرؤا على الاقتراب من المؤمنين بالقرآن ومحمد نبي الله... وبالله الاحد الواحد.

اقتنعت ولكن مع بقايا توجس وسألت بلهفة:

ـ ومن اين اتيتم بهذا الطين الذهبي!..

ـ كان « تمهاده »[1] يحفر ليهيء تراباً ناعماً لجبلة الطين حتى تملس الجدران المعقودة من الحجارة والطين، وفجأة طرق الفأس طرف فخارة، اخرجناها، وضرب « تمهاده » طرفها بالفأس فانكسرت، وانساب من جانبها المكسور رمل احمر ناعم متلامع بلون الذهب. وعندما غرفنا منها بايدينا، سالت من بين اصابعنا ناعمة ملساء كذهب حقيقي... جبلناه مع الطين وملسنا به واجهة بيت « تمهاده » الخارجي... ورششنا ما تبقى على باقي الواجهات للتزيين.

صمت « محمت » قليلا وهو يتأمل الواجهة المتوهجة ثم عقب مازحاً:

ـ واصبح المنظر الخارجي مبهجاً اليس كذلك؟..

تشاغلت النساء بالخراخيش التي التقطت من القبور: اطواق اساور، خواتم اقراط باحجار ملونة، منه ما هو اخضر مثل العشب ومنه ما هو بلون البحر، وغيره بلون العنب الاحمر وحب الرمان، كلها تبدو شفافة متوهجة في ضوء الشمس... بينما ناولني « باباج » سواراً زجاجياً قاتماً، مسكوباً قطعة واحدة مستديرة، بعرض ابهام اليد، رفعتها الى الضوء فتحولت الى الوان قزحية زاهية. دسستها في يدي فرحة، وصلت الى اعلى ساعدي.

قالت « جواشه دغه » زوجة الاخ الاكبر:

ـ هل يمكن ان تكون هذه الخراخيش مصاغاً حقيقياً من الذهب والاحجار الكريمة؟

قال « باباج » وهو يهز رأسه مندهشاً:

ـ على كل انها لم تصدأ... والقبور قديمة جداً على ما يبدو... ولكن لا يعقل ان يوضع المصاغ. داخل القبور مع الاموات، بينما هناك

(١) تمهاد تعني الزعيم او الرئيس وتستعمل للتعبير عن الاحترام.

احياء... لا بد انها من الانتيكا الجيدة الصنع، ولكن لا يمكن ان يكون مصاغاً حقيقياً.

ما هذا المكان المسحور المهجور الى حد ما!.. الى الامام سيل يجري مهسهساً بأسراره يسكبها في عبه، يحميه حاجز من اشجار الحور الريانة متشابكة الاذرع. خلفه طريق ترابية طينية في الشتاء تمتد بين صفين من البيوت الطينية الصغيرة الكابية، وفي جنوبه فسحة قاحلة من اليباس الممتد، ثم تقع طاحونة. وأما من الخلف فيباب اصفر باهت، وعلى شماله بيوت متباعدة متناثرة بكآبة وتوحش. والبيوت اساساتها قبور قديمة ملأى بالخراخيش الزاهية الدقيقة الصنع، وفيه جرار معبأة بتراب ذهبي، يا للغرابة!

رفعت كم الثوب انظر الى السوار لأتشاغل عن كآبتي وفجأة توقفت: ماذا لو خرجت تلك النساء تطالب بخراخيش الزينة خاصتها؟... اندفعت واحدة من الفسحة التي تفصل بين بيتنا وبيت تامي... بدت بملابس غريبة منفوشة الشعر، تشتعل عيناها بغضب وكانت تصرخ بصوت أخرس، وتحرك يديها كأفاع لينة... وانبعث من شدقها المزبد المفغور شرر يتطاير في الفضاء كنجيمات مطفأة... وخرجت خلفها اخرى واخرى... واخرى واصطففن بعرض الحوش، متراصات يغلقن منافذ التقدم امامنا... وكن يفتحن افواههن على اتساعها ولا يخرج منهن اي صوت، ولكنهن يخرجن لهباً يشكل حاجزاً نارياً...

ابتسمت وانا الحق «باباج» حاملة من الصرر ما استطيع حمله مخترقة حاجز اللهب وحاجز الاموات!..

لم يكن ثمة اثاث. حصيرة صفراء كابية.. فرشتان مدت احداهما عند الحائط الخلفي والاخرى اصغر قليلاً عند الحائط الشرقي. ثمة غطاءان

وبضعة مساند. وباقي الصرر مركونه في الزاوية عند الحائط الغربي. نافذة صغيرة عالية في الحائط الخلفي، ومن الامام باب وشباك وسيع... السطوح من القصيب المصفوف مثبت بجذوع اشجار مشذبة بطريقة رديئة وسريعة عرضية. رائحة الطين والتبن الذي جف تواً ينشر رائحة قوية توحي بشهوة ما سرية... الحيطان ليست مستوية انما ملطت بلهوجة وعجالة. وعلى قاعدة الشباك العريض ربض قنديل يشتعل بالكورسين «ضوء نمرة ٢» بقاعدة زجاجية زرقاء مستديرة مملوءة بالكيروسين، يتخايل الفتيل الابيض يخترقه في منتصفه خط رفيع ازرق، تعلوه البلورة الشفافة المستديرة بانتفاخ في الوسط. وهناك ايضاً بعض الاواني الفخارية وابريق شاي اصفر صغير والسماور النحاسي بوسطه المستدير المنتفخ واطرافه المزركشة، والصنبور يمتد من وسط البطن كالصرة...

قبل المغيب خرج الرجال للبحث عن الجامع للصلاة. تجمعنا في الغرفة عندنا نحن النساء... سألت بكآبة:

- هل احوال البيوت مزرية كما هو الحال عندنا؟...

تضاحكت النسوة وقالت نعمات «جواشه دغه» تغمز بعينيها الخضراوين:

- الحال من بعضه... ولكن لا تبتأسي يا صغيرتي... سنفكر في هذا الأمر غداً... دعونا الآن نبدأ بتحضير العشاء قبل عودة الرجال...

نهضت نسمات «دشه نسه» الصغيرة الجسم، تترية القسمات وهي ترمي جديلتها السوداء الغزيرة خلف ظهرها، فتستقر كسولة لينة بين كتفيها المشدودين كحية سوداء مقدسة، تمتد مسترخية حتى وسط الحوض، منتهية بحلقات جعداء منفلتة. قالت بصوت كخرير الماء:

- عندي بعض الفحم... ولكن هل احتاط الرجال ببعض الماء.

فزت جانسيت «دانا نسه» ـ الحريرية ـ بلهوجة كنخلة ممشوقة بوجهها المستدير وجبهتها العالية، وارنبة انفها المرتفعة، وقالت بصوت هادىء النبرات:

ـ اعتقد ان الرجال ملأوا البراميل الخشبية الموجودة عندنا.

عادت «دشه نسه» بالفحم، اسقطته في الانبوب المستطيل الذي يتوسط جسم السماور، تلفتت حولها، وكانت تتشمم عند الباب. رفعت ابريقاً من الصاج في يدها حركته ثم اقتربت بأنفها من فوهته، صرخت فرحة وقد اشتعل وجهها بنشوة غامضة:

ـ هاه... وجدت بعض الكيروسين...

ثم هرولت تنقط منه على الفحم بضع قطرات... بحثت في جيوبها، اخرجت اصابعها قابضة على قداحة ذات جسم اسطواني طويل.. قدحت الحجر، مرة واخرى... فاحت رائحة بنزين ثم اشتعل الفتيل الرفيع الابيض. عادت تبحث بجيوب تنورتها الواسعة كجراب الحاوي، فاخرجت فتيلة من الخيش اشعلته ثم اسقطته في جوف السماور فاشتعل الكيروسين. اخذت تنفخ في الفتحة التي في اعلى السماور، بعد لحظات انطلقت طقطقات تنبىء باشتعال الفحم. فصلت الجزء الاعلى من السماور ذي الحواشي المخرمة بالزخارف وملأت البطن المتسع المستدير بالماء، ثم اعادت الجزء المزركش وملأت الابريق الصغير الاصفر ايضاً بالماء ووضعته على فتحة السماور، وبعد فترة ارتفعت قرقرة الماء في السماور مع صفرات متقطعة من الابريق...

اما «جواشه دغه» فانها رشت ارض الغرفة المتربة بضع مرات بالماء ثم رفعت الغبار بمكنسة القش المنفوش ذات اليد الطويلة... ورشت الارض وكنستها وهكذا حتى اصبحت الارضية مربوصة رطبة وفاحت رائحة

الارض توحي بشهوة سرية...

دخلت « دانا نسه » موردة الخدين تحمل مائدة مستديرة ثلاثية الارجل، وشراشف بيضاء. سوت وضع الفرش، وغطتهم بأغطية بيضاء ذات ترابيع زرقاء كبيرة، ركت المساند على الحائط، وفصلت منتصف الفرش بمسندين ناصعي البياض للاتكاء، ووضعت على المائدة مفرشاً ابيض بحواشي مطرزة.

احضرت « جواشه دغه » صينية نحاسية عليها صحون الجبن والحلفة الباردة والرقائق بالسمن والجبن.

ووضعت السماور قرب المائدة ثم احضرت كؤوس الشاي لماعة تتباهى بخصورها النحيلة، والتوشيات المذهبة على الحفاف. والسكرية فيها قطع السكر مربعات بيضاء صغيرة. ناولتني « جواشه دغه » بلورة الضوء مع قطعة شاش نظيفة وهي تقول ملهوجة:

ـ تفي قليلاً داخل البلورة وافتلي الشاش في داخلها حتى تلتمع. واشتعل الضوء بذبالته الحمراء المترنحة، وفي اللحظة التالية كانت « دانا نسه » تدخل وهي تحمل لمبة بيضاء متعالية، تشمخ بلورتها الطويلة متباهية بضوئها القوي، ووضعته على قاعدة النافذة العريضة، فأصبحت الغرفة مضاءة بشكل جيد.

قالت نعمات « « جواشه دغه » وهي تتلفت حولها:

ـ لا بأس... ليس الوضع سيئاً حد الكارثة... بعد ان تستقر الامور قليلاً، سنعيد تمليط البيوت بجبلة ناعمة من الطين والقش وسنملس التحدبات المنتشرة هنا وهناك، ثم نطرشها بالكلس الابيض.

ثم قالت متنهدة وهي تدور بعينيها الخضروايْن:

- جبلنا من الطين... ثم نعود سماداً وزرعاً في الطين... يكفي... لا داعي ان نحمل طيننا بين اعيننا حتى في فسحة وجودنا الضئيلة... سنطلي كل الجدران بالكلس الابيض، وسترين خرابيشنا هذه، وقد اصبحت تليق بحياة انسان.

اقبل الليل، وعاد الرجال، دخلوا صامتين وقد بدت ابتسامات غامضة تختبىء خلف شواربهم فتطل بين الحين والآخر... وكانت في عيونهم التماعة غريبة تتوامض بين الحيرة والقلق، وصمتت النساء. خلع الرجال نعالهم وتجالسوا على الفرش... ارتفع خوار ثور بالجوار... التفتت النسوة الى بعض ثم الى وجوه الرجال، تلاعبت ابتسامات خفية على وجوههم، وتبادلوا نظرات عابثة متواطئة... وارتفع الخوار مرة اخرى، ثم صوت حافر يضرب الارض. نظرت النسوة من الباب، غير بعيد في الجهة الغربية من الحوش، داخل المغارة التي ضموها الى المستوطنة للاستفادة منها. بدا في ضوء القمر الذي كان بدراً، ثوراً قائماً في وسط المغارة التي اضاءها نور القمر الساطع، قرناه يلتمعان ببياض بلوري كقرني هلال وليد في غابة الظلام، وفي وسط جبهته عين واحدة واسعة تتلامع كماسة عظيمة... كان يدور ويلف في المغارة، ثم لم يلبث ان خرج الى الساحة، وبدأ يركض كأنه ينازل احداً وهو يخور ثم يقف برهة وهو يحفر الارض بظلفه.

وقفت النسوة بارتباك، اما الرجال فقد تجاذبوا اطراف الحديث وكأن شيئاً لم يحدث. تراجعت نسمات بوجهها التتري الصغير وحيتها السوداء المقدسة المتدلية بين كتفيها. امسكت بالجديلة وشدتها الى الامام، وتحركت اصابعها لا شعورياً تعبث بأطراف الجديلة المجعدة، وتورد وجهها، ثم اشتعل، وهي تطرق برأسها دون ان تجرؤ على مخاطبة زوجها.

وكان هو يتحدث دون ان يلتفت اليها، ثم لم تلبث ان همست:

ـ شوناف (الفارس المضيء)...

وظلت في مكانها خافضة البصر موردة الوجه. نهض «شوناف» الأخ الاكبر مبتسماً بينما استمر «محت» زوجها في الحديث وكأنه لا يرى شيئاً. اقترب منها وهو يحني قامته ليستطيع سماعها، كانت تهمس:

ـ يجب تسوية الامور دون اثارة ضجيج اليس كذلك؟.. ولكن كيف نخرج وهذا الشيء الذي ظهر فجأة...

عضت على شفتها السفلى الرقيقة ثم قالت بلهوجة:

ـ بسم الله الرحمن الرحيم...

قال وكأنه يهدىء من روع طفلة جزعت من مرآى عنكبوت صغير:

ـ لا عليك... اخرجن كالعادة... انه لا شيء... لا تخافي.

خرجت «مسره خان» عند الباب ثم دخلت كزوبعة وبحثت في الزاوية بين الصرر. اخرجت عصا طويلة من القصب الجاف. امسكتها من طرفها وقالت باندفاع:

ـ هيا... خلفي... هل اخافكن!.. انه مجرد لا شيء... مثل الهواء فقاعة هواء مثلاً... لا داعي للخوف منه.

وشهرت القصبة كسيف امام وجهها وخرجت، وعاد الثور الى المغارة ووقف في منتصفها يباوع بعينه النجمية المضيئة وهو يقابلهن بوجهه. خرجت النسوة خلفها، وبقيت نعمات. وضعت الاحذية متزاوجة بترتيب عند طرف الحائط الامامي قريباً من الباب، ثم قربت المائدة من الرجال، بالتحديد امام بكمرزا كوندقه، ثم قربت السماور، وكان يخرخر كقطة مسترخية، ثم كؤوس الشاي، وهبطت على ركبتيها وسكبت من الابريق

بعض الشاي في الكؤوس ثم ملأتها من السماور وهي تدير مغلاق الصنبور الاصفر بتخريماته الخفيفة، فينسكب الماء المغلي ويتدافع البخار، ويتغشى الزجاج المتلامع.

طرقت جانسيت الباب برفق ثم دخلت «مسرة خان» شاهرة عصاها، وهي تحمل ابريق ماء من القصدير المطرق. صنبوره يرتفع كعنق اوزة بانسياب رشيق، ينحني بالتفاف مستدقا عند الانحناء ثم يتسع قليلا عند الفتحة. جسم الابريق مستدير مطرق و العنق يستطيل بنحول ثم يتسع قليلا حتى يصل الفتحة. وكذلك مقعد خشبي صغير وتحمل على كتفها منشفة بيضاء اللون. وضعت الابريق والمعقد الخشبي عند الباب وناولت المنشفة لنعمات بينما اخرجت «مسره خان» طشتاً من بين الاغراض ووضعته امام الابريق... تبادلت المرأتان نظرة ماكرة متواطئة، ثم انسلت جانسيت بهدوء متراجعة الى الخلف وهي تحمل على شفتها ظل ابتسامة حائرة. ومشت «مسره خان» امامها وهي تلوح بعصاها. تمتمت جانسيت بعد ان خرجت وهي تمسك بيد «مسره خان» وتجري واياها:

ـ هل ترين؟ هناك نجيمات تتحرك وكأنها حباحب كبيرة متطايرة؟.

وظلت نعمات تقف جاهزة لخدمة الرجال. وعندما انتهوا نهض بكمرزا وجلس على الكرسي الخشبي الصغير وصبت نعمات الماء على يديه في الطشت، وبعده الرجال مبتدئين بالأخ الاكبر.

وانتهت السهرة، الرجال في بيت بكمرزا والنساء في بيت تامي. وعندما خرجت النساء الى المرحاض الذي في آخر الحوش، حلت «مسره خان» عصاها وتقدمت، وبجانبها نعمات حاملة الفانوس، وعندما نزلوا الى الحوش وجدن امامهن مخلوقات عجيبة، كلاباً صغيرة في حجم القطط. كلاباً قزمة...كلاباً كبيرة... شلايا من الكلاب... كلهم

يتقافزون بقائمتين واحدة امامية وواحدة خلفية، ولكل منهم عين واحده في وسط الجبهة، عين واحدة كبيرة مضيئة!. اخذت «مسره خان» تضربهم على قوائمهم العجيبة وهم يتراكضون حولها تكشهم وهي تردد:

ـ كش... كش... ابتعدوا ايها الملاعين...

فيتراكضون هنا وهناك بعيداً، والثور يباوع بعينه الوحيدة. تلاصقن عند باب المرحاض المصنوع من الزينكو بحاشية خشبية.

8

بعدما يقارب الشهر كانت اوضاع الاسر قد تحسنت. اعادت النساء ملط الحيطان وطرشها بالكلس الابيض... مهدن الساحة الامامية التي تواجه البيوت المتتالية وهي بعرض متر ونصف تقريباً، وترتفع عن ارضية الحوش بما يقارب المتر. بنين الدرجات من قطع طوب صنعنها بايديهن، خمس درجات امام كل بيت، ثم رصفوها بالحصى التي جلبت من حوافي السيل... ورصفوا الممرات من الدرج حتى مدخل كل بيت. ونكشن المساحة التي تفصل بين درج وآخر، وزرعن فيه شجرة دالية وياسمين وليلك... وبين الاشجار الثلاث ازهار «فم السمكة»، و «منثور» اصفر وليلكي وخبازية. وعلى حافة البلكونة التي مهدنها وربصنها جيداً صفت اصص الازهار من باجونيا وورد النفنوف المتسلقة والقرنفل والريحان الذي لا يخلو بيت شركسي من اوراقه العطرة. وعلى السقف وضعن ساتراً مائلاً من الزينكو لحماية البلكونة وواجهات البيوت التي طرشت بالكلس الابيض من امطار الشتاء وشمس الصيف.

ومن الداخل اشترى بكمزرا من «بازار الثلاثاء» الدائم، وهي السوق

التي تقام في كل ثلاثاء للبيع والشراء والمتاجرة على فترات، سريراً نحاسياً، وبسط عربية صوفية زاهية الألوان مبهجة، ومدت على امتداد الحائط الشرقي والشمالي فرش صوفية وثيرة مع اغطية ملونة بصور حيوانات واشجار وملائكة تطير باجنحة هفهافة... ومساند بيضاء مطرزة بتخاريم رقيقة. والمائدة الثلاثية الارجل التقليدية التي يستعملها الشركس مائدة للطعام، واصبح للنافذة ضرفتان زجاجيتان وعلقت ستارة بيضاء خفيفة، وحول الموقد الذي في صدر الغرفة جلود الخرفان مفروشة.

تعلمت «مسره خان» ترتيب الغرفة وكانت تذهب مع النساء للغسيل على ماء السيل، وكن يساعدنها في دعك وتنظيف البياضات. أما رماد الحطب المستعمل للطبخ ولتدفئة البيوت في المواقد فكان يُستعان به لتنظيف الاواني والحلل وتلميع النحاسيات التي لا بد منها، مثل الصواني والاباريق والسماور.

اشتغل الاخوة مع عائلة «ببروقة» التي كانوا يمتون لها بصلة قرابة من جهة الام، وكانت احوالهم قد استقرت وتحسنت مع الوقت، وتمكنوا من توسيع رقعة ارضهم المزروعة واقتنوا ادوات الزراعة من ثيران ومحاريث وعربة القش الكبيرة. ثم امتلكوا قطيعاً صغيراً من الغنم وبضع بقرات، واتسعت منطقة سكناهم، فاحتوت على بيوت للاولاد المتزوجين وبيت للوالدين والحموين، واسطبل للحيوانات، ومخزن للحبوب والتبن والطابون. وبئر ماء.

اشتغل الاخوة معهم على اساس الحصة من المحصول تكفي حاجتهم من القمح والحبوب. اما بكمرزا كوندوقة فانه اشترى عدة حدادة وافتتح محلاً للحدادة ولاصلاح عدد الزراعة ما شابه.

ـ آه... «مولى خان». لقد سمعت الكثير عن أخيك الاكبر «شوجن». شجاعته، جرأته، قوته، ووسامته... انه الفارس الشركسي الذي ضاع مع ضياع الوطن. لقد تناقل الناس اخباره من خلال احاديث السمر الليلي بين الرجال. كنت دائماً اجلس تحت النافذة لاستمع الى احاديثهم في ليالي تجمعهم في بيتنا...

قالوا انه كان فارساً شديد البأس والمراس والوسامة، وكان يواجه المشاكل دوماً مع عشائر الاعراب القاطنين هنا. وانه كان له صولات وجولات مع احد اشجع فرسان البدو واشدهم بأساً.

حدثت غزوات من فرسان القبائل على مزارع الشركس ومناطق تجمع سكناهم، قتل فيها كثيرٌ من الطرفين. لقد وجد اولئك الفرسان ان هؤلاء المزارعين هم في الحقيقة رجال غزو وقتال حقاً، وانهم امام قوم على قدر عال من الشجاعة والفروسية والقدرة القتالية... وكان اولئك البدو هم دائماً البادئين بالقتال.

قتل «احد» الاخ الاصغر لكم، اثناء الحراثة في الجبل من قبل احدى العشائر المعروفة ببأس فرسانها. استطاع «شوجن» ان يسأل ويعرف اسم القاتل الذي لم يحاول ان يخفي نفسه، بل ارسل لشوجن:

ـ سأقتلكم كلكم واحداً إثر الآخر، لقد اقمتم منازلكم حول منابع مياهنا... وها انكم تستولون على مراعينا وتزرعونها... سنتصيدكم واحداً اثر آخر... حتى لا يبقى لكم الا العودة الى الجحيم الذي لفظكم.

قال «شوجن» غاضباً للفارس الذي نقل الرسالة:

ـ اخبر شيخكم هذا إننا لا نتعدى على حق احد... هذه الاراضي هي ارض الله... وهي شاسعة لا حدود لها، والعشب والكلأ ينبت فيها في كل مكان هنا وعلى امتداد لا يلتقطه النظر... ولقد سمح المتصرف

التركي، الذي يمثل سلطة خليفة المسلمين، بتوزيع بعض الاراضي البور على المهجرين الشركس، الاخوة لكم في الدين والايمان، لاستصلاحها وزراعتها... نحن لم نعتدِ على حق احد... بل نعمل بموجب اذن قانوني وكما تعرفون، لقد تم استمزاجكم انتم وباقي الاعراب فوافقتم على ان يدفع الضرائب والمكوس المطلوبة للباب العالي، كل من يزرع الارض. وتم الاتفاق على ذلك. وعلى هذا نحن لم نعتدِ على احد كما لم نضر أحداً... بل اننا نستصلح ونحيي هذه الاراضي المهملة المتروكة. انتم تعتدون على حقولنا، وسنرد ابلكم واغنامكم عن مزروعاتنا ونذود عنها. ولكن ان ازهقتم منا روحاً واحدة فسنتصدى لاحسن فرسانكم ونزهق منكم روحاً واحدة. نحن لم نأت لنقاتلكم، ولا لنزاحمكم رزقكم... جئنا نطلب السلام في ارض السلام والإسلام...اننا نريد فقط ان نعيش بكفافنا لا مطمع لنا في ابلكم ولا نلاحقكم في مراعيكم، ولا نرضى ان نستولي على حق لكم... ولكن نحن لسنا ارانب لتتصيدوننا.. نحن رجال قتال وفرسان تعرفنا المعارك في اراضينا جيداً... وقادرون على صدكم وردكم عندما يتطلب الامر ذلك...

ادرك «شوجن» ان نهاره لن يمر على خير، فجهز بندقيته وغدارته ووضع الطلقة جاهزة فيها بدون أمان. وهكذا ذهب الاخوة للعمل حاملين بنادقهم المحشوة ومعلقين السيوف والغدرات في جرابها باحزمتهم لتبقى تحت ايديهم جاهزة للاستعمال.

وكما توقع «شوجن»، ظهر «حسن العايد»، الفارس الذائع الصيت ومعه ثلاثة من فرسان البادية. كان راكباً على فرس محجلة بيضاء، اصيلة متعالية الجبهة قوية القوائم. ذات صدر عريض مرتفع، تتحرك يمنة ويسرة بتوتر، وفارسها يمسك باللجام هيناً، رخياً، يرتدي قمبازاً ابيض

من حرير الروزا وعباءة صفراء رقيقة، تهفهف مع هبات الهواء الساخن. وكان الفرسان ملثمون، تبرق عيونهم القائمة من بين حوافي الحطات البيض، وقد شدوا جراب الفشك متصالباً على صدورهم، والتفَّ حول خصورهم، وفي الاحزمة علقت على الجانبين وتحت كل يد غدارة وخنجر.

استمر «شوجن» واخوته في الحصاد دون ان يلتفت احد منهم، ولكن القبضات اشتدت على مقابض المناجل، وكان صوت تنفسهم ثقيلاً عالياً.

قال الفارس الذي في المقدمة:

ـ هيه!.. يا السرسكي.. انا حسن العايد.. قاتل اخيك.. وقلت لكم انكم تعتدون على مراعينا باقتطاعكم هذه الاراضي التي تزرعونها قمحاً وحبوباً وخضروات. هي مستباحة لابلنا ومواشينا... وعندما تصدى لنا الولد قتلناه. ها انا هنا... قيل لي انك فارس في السيف وفي الخنجر والبندقية بين قومك... ولو انني لا ارى ذلك.

رمى «شوجن» ما كان بين يديه، ووقف في مواجهة مع الفارس مباعداً ما بين قدميه، ويده اليمنى مرخية الى جانبه، وعينه تراقب كل حركة من الفارس بعيني صقر. استمر الاخوة في عملهم بينما اعينهم ترقب بحذر ما يحدث.

قال «شوجن» بهدوء:

ـ سمعت عنك يا ابن العايد... انا لا اقول عن نفسي انني فارس... ولكني لا ارفع سلاحي على رجل لم يشهر سلاحه.

وبلحظة كان حسن العايد قد قفز عن ظهر جواده مترجلاً، ودفع

بندقيته الى كتفه، وفي اللحظة التي صوب فيها بندقيته نحو «شوجن» كان «شوجن» قد استل غدارته واطلقها.

سقط حسن العايد مضرجاً بدمائه، وكان الاخوة قد رفعوا بنادقهم على اكتافهم ووقفوا خلف «شوجن» متأهبين.

صرخ «شوجن» بالرجال:

- خذوا قتيلكم واشهدوا انني لم اقتله غدراً. لن نتعرض لاحد منكم. نحن لا نبغي قتالكم... ولكن لن نسكت عن دم لنا.

كان يتكلم بعربية مهشمة، ولكن خلال الست السنوات التي مرت على اقامتكم كان قد تعلم ما يكفي ليعبر عما يريد.

قررت عشيرة العايد قتل «شوجن» وحده ولكن دون مصادمات قد تجر الى مواجهة بين الطرفين، وقد اعلنوا عن ذلك.

انتهى موسم الحصاد الدامي... وصفر الخريف يحمل تحت عباءته الغبراء السبات الشتوي. ارجأت عشيرة العايد ملاحقة الفارس الشركسي الى الموسم الزراعي القادم عندما تستيقظ الارض من سباتها. حملت مضاربها وذهبت حيث تستقر في مثل هذا الفصل.

مع بداية الربيع كان موسم الزراعة على قدم وساق.

ذات صباح مشرق شاهد الاخوة، عند ذهابهم الى الحقل، مضارب عشيرة العايد قريبة من سفح التلة التي تنسفح عليها ارضهم. ادرك «شوجن» انه المعني الوحيد بذلك.

كانوا عادة يركنون العربة على رأس التلة ثم يطلقون الثيران إما للحراثة او للرعي، كما كانوا يحملون عدد الزراعة والطعام في العربة. وعند اوقات الطعام والصلاة يأتون الى ظلال العربة يطعمون ويستريحون

قليلاً ثم يعودون الى العمل. ومن موقع العربة كانوا يشرفون على مضارب العشيرة. فكان فرسان العرب يمرون طراداً حول اراضيهم، ومن بين حمحمة الخيل وصهيلها، وضربات حوافرهم وغبارها، كان الاخوة يقومون باعمالهم بهدوء ولكن بحذر متوتر. بنادقهم معبأة وموجودة دائماً مع باقي العدد والادوات في العربة بجاهزية تامة للاستعمال. وكذلك الغدرات المحشوة، والخناجر والسيوف الشركسية لا تفارق احزمتهم حتى اثناء العمل.

ومضت الايام مليئة بالتوتر والترقب والتوجس، والربيع يتفتح عبقاً، محايداً بلا مبالاة، حتى كان ذات يوم كسر فيه المحراث، فأمر «شوجن» اخويه اللذين يعملان في الحقل، وكان اثنان منهما قد ذهبا الى «سوق الثلاثاء» الذي يقام كل اسبوع، وبقي الثالث مع الاب ليقوما بالاصلاحات اللازمة للمساكن بعد فصل الشتاء. وهكذا ذهب الاخوان الى محددة «ابن شردان» التي في رأس العين، غير بعيد عن الحقل الا بضعة فراسخ. تململ الاخوان في البداية باحتجاج اخرس، ولكن «شوجن» قال بلهجة آمرة:

- هؤلاء الاعراب لا يقتلون غدراً... كما ان فرسانهم لا تجتمع على مقاتلة فارس واحد... هذه مسائل شرف في عرف الفروسية عند العالم كله... كما انني قادر على التصدي لهم... وهم يدركون ذلك... ولذلك يحومون حولنا ولكن لا يقتربون... كان حسن العايد فارسهم... هيا... لا تضيعوا الوقت... انا قادر على الدفاع عن نفسي، وانتم تعرفون ذلك... هيا.

ذهب الاخوان، بقي «شوجن» بعض الوقت يتجول حول الحقل متأبطاً بندقيته. لم يظهر احد من فرسان العشيرة. تمدد مستظلا بالعربة،

ولم يلبث ان غفا تحت اشعة شمس الربيع الناعسة، وكانت بندقيته تحت يمناه.

التقطت اعين الرقباء ما حدث، فأسرعوا يبشرون بالامر. وللحال انطلق اربعة من افضل فرسان العشيرة راجلين، محاذرين، الى مكان الطريدة حتى لا يقلق وقع حوافر الخيل نومه فيستيقظ. وعندما اطلوا عليه تفرق الاربعة يحيطونه من الجهات الثلاث ومدوا بنادقهم نحوه بقرب كاف لاصابته حتماً. يجب ان لا يكون في الحسابات اي احتمال للفشل مع فارس مثل «شوجن»، لان ما سيحدث بعد ذلك لا يعلمه الا الله، ثم نادوا عليه:

ـ يا السرسكي.. هيا... قم... استيقظ...

وقبضت اصابعه على البندقية التي تحت يده قبل ان يفتح عينيه، ولكن الطلقات انطلقت وانزرعت وروداً حمراء في جسده. وقف الرجال برهة ليتأكدوا من موته، ولكنهم لم يشعروا الا وهو ينقلب على بطنه ويبدأ باطلاق النار. وقبل ان يتحرروا من المباغتة والرعب من رؤية القتيل يتحول مقاتلاً كان قد قضى عليهم. ثم زحف الى حافة التلة مشرفاً على مرابع القوم، وكانوا قد خرجوا من خيامهم على اصوات الطلقات وبينهم ابنة الشيخ فضربها برصاصة اردتها ثم ثنى على كلب الشيخ.

هرول الشيخ ورجاله يستطلعون الخبر مذعورين، وهم يرفعون اطراف قنابيزهم ويعلقونها باحزمتهم ليتمكنوا من التصرف بحرية وسرعة. كان المشهد مفجعاً... الكل قتلى، فماذا حدث؟... سمع شيخ العشيرة المفزوع انيناً خافتاً يصدر عن احد الفرسان. صرخ:

ـ هيه... يا رجال... هذا حد ما زال حياً...

قرفص الشيخ ملهوفاً بجانبه وتحسس صدره الغارق بالدماء. قال

الجريح بوهن:

ـ ماء... هاتوا ماء.

حصل هرج ومرج، جاؤوا بالماء بعد لأي، وضع الشيخ يده تحت رأس حمد وبرفق وحذر، فاندلقت الدماء غزيرة من الجرح. رطب الشيخ شفتي الجريح، وقرب فم القربة من فمه، رشف بعضاً من الماء، ثم هز رأسه علامة الاكتفاء. مدده الشيخ ثانية، وبانفاس تنوس كقنديل نضب زيته اخبرهم بما حدث واسلم الروح، فنهض الشيخ محتاراً وهو يلوح بيديه ويهسهس:

ـ والبنت والكلب!.. من الذي قتلها؟.. لا يوجد احد... والذي قتلها كان بامكانه ان ينالني، ولكنه لم يفعل. اكتفى ان يؤكد قدرته. اخترق دائرة حرمي وقتل ابنتي، وقضى على كلبي، حارس خيمتي.

مشى متقدماً حيث جثة «شوجن». قابلته المأساة بعيون جامدة. الدم يملأ كل موضع عند العربة ثم المساحة التي زحفها. كانت الاعشاب والازهار الصغيرة الملونة مشربة بالدماء. وعند موضع الجثة استشرفت مرابعهم... هز رأسه بأسى. كان الرجل ممدداً بطوله الرائع على بطنه، كعب البندقية تحت كتفه الايمن، يده اليسرى قابضة على طرف البندقية، واصبع يمناه ما زال عالقاً بالزناد... ووجهه على ذراعه وعلى طرف البندقية. بعض الفشك الحي متناثر حوله... سحب معه ارواح قاتليه، وزاد عليها روح ابنته الشابة وكلبه الى الجحيم. قال الشيخ بصوت يرتجف بالحزن والتأثر:

ـ استغفرك اللهم يا رب... استغفرك اللهم يا رب... يا رب يا جبار يا قهار لقد تكبرتُ، وتجبرت... ونسيت اوامرك ونواهيك... انما

المسلمون سواسية مثل اسنان المشط لا يفضل بعضهم عن بعض الا بالايمان.

وفي ذلك المساء اجتمع الشيخ بأمثاله من العربان وروى لهم ما حدث:

- الرجل وهو يحتضر واربع رصاصات استقرت في صدره واحشائه اخذ بثأر نفسه وقتل قاتليه، واوصل لي رسالة انه يستطيع ان يصل الى دائرة حرمي، ويخترق حراستي، وانه كان يستطيع ان ينالني، حتى وهو يحتضر، ولكنه ابى ذلك.

قالت وهي تحرك يديها بانفعال:

- عندما سمعت بالحادثة كان عمري احد عشر عاما وكان قد مضى على الحادث سنوات، ولكن المأثرة كانت فخراً يعتز بها كل شركسي. كما اشاد العربان بالحادثة وظلوا يتحدثون عن بطولة: السرسكي الذي كلفهم مقتله غالياً... ولكن هؤلاء العربان يحترمون البطولة لانهم فرسان.

صمتت «مسره خان» ثم همست قائلة:

- ولكن... لماذا لم يأت... حقاً اتمنى ان اراه... هو الوحيد الذي ستفرحني رؤيته...

وانكفأت الى الداخل وهي تتذكر. ثم استعادت في ذهنها القصة، وتتابع في خيالها مأساوية الواقعة، مغرقة في جمالها. كانت حياته كتلك الزهور الليلكية التي تنتشر في الربيع بحقل حريري... تلك الزهيرات بأوراقها الأربع المستديرة وتويجها الاصفر، يتكوم في قلبه قطرة ندى بقدر حبة حمص، بيضاء شفافة تتماوج بالوان قوس قزح، فتبدو الازهار وفي قلبها قطرات الندى، تتماوج مع هواء الشروق وكأنها موجة ليلكية ناعمة تتدحرج على سطح البحر، ترتفع رغوتها المقزحة على مقدمتها كعرف خيالي.

كم تمنيت لو انني ولدت بعقدين من الزمن قبل ولادتي، والتقيته هنا... فغسلت له جراحه بالندى وداويتها بالازهار الليلكية التي تموت عندما تمس وريقاتها شمس الضحى القوية. كنت اتخيله يعود للحياة، واحيه من تلك المأساة والفجيعة. كنت اراه طويلاً عريض المنكبين، نبيل الوجه.

انشدهت نظراتها واخذت تحرك يديها بتشنج وعصبية. كان يقف امامها بقامته الطويلة وصدره الوسيع كصدر اله وخصره الضيق يحيط به حزام السترة التقليدية السوداء المفتوح من الامام، باطراف ذيله المتهدل الذي يصل حتى منتصف الركبة. والقامة تتدلى من الوسط في خصره، تميل الى اليسار مرتطمة بفخذه القوي المشدود، والفشك المصفوف على جانبي الصدر. عدت عدد الجيوب المتتابعة على كل جانب من صدره فكان الرقم القياسي النادر ثلاثين جيباً على كل جانب. عندما ينام على جانبه ربما تستطيع قطة ان تتكور في الفراغ الناشيء ما بين الصدر العريض والخصر النحيل. انه القوام المثالي للرجل الشركسي. والاكمام باطرافه العريضة تغطي أصابع يديه، وتحته القميص الاحمر بقبته العسكرية المحيطة بالعنق. والسروال الطويل الاسود مع الحذاء الجلدي يصل حد الركبة، والكلبك يميل الى الخلف فيبدو جبينه العالي البهي، بكل عرضه، ووجهه الوسيم الذي يدعو الى الدهشة حد البكاء. كانت عيناه العسليتان الواسعتان تنظران اليها ببعض من ابتسامة وبشيء من الحزن... وعلى صدره وبطنه تفتحت اربع وردات حراوات فواحات. مد كفه، وقد فرد اصابع يده الكبيرة القوية، وكان يقول برقة وهو ينظر في اعماق عينيها:

- هيا... تعالي... سنذهب الى حقل القمح، وعلى قمة الهضبة سنجلس مستظلين بالعربة، نشرف على مرابع حسن العايد. وسنجلس على

حقل الازهار الليلكية الرقيقة بتويجاتها المقزحة... هيا... هيا... لقد هجرنا «القمة البيضاء» الشامخة... تعالي... اذا مددنا ابصارنا عبر الافق سنستحضرها... فلتأت الينا... «اوشحه مافه»[1]... ما دمنا لم نستطع ان نعود اليها... انها قمتنا المباركة التي كانت تضللنا بامنها وحمايتها.

قال تامبوت يكسر الصمت الذي خيم على الجميع:

- ناشخوه، كفاك إتكاءة على الذكريات... سأنشد لك ما ترغبين بسماعه.

كان «شوجن» يقف عند قدميها ينظر اليها دون ان يرفع بصره عن وجهها. قالت دون ان تفتح عينيها، وهي تشير بحركة يائسة بيدها:

- وجودنا كله مجرد حلم يمر في مخيلة جبارة لا نهائية... نحن نذهب وتتابع الاحلام... اذكر لنا «موت ستناى»[1] تامبوت يا ضياء عيني:

«كان الوقت ربيعاً «ناشخوه»، وكانت تدور رحى حرب طاحنة يشارك فيها «سوسروقة». وذات ليلة رأت ستناى في الحلم حمامتين بيضاوين حطتا على الشجرة التي في دارهم واخذتا تنتفان ريشهما:

استيقظت ستناى وقالت: اذا لم يرحم الاله فان مصيبة قد حلت بولدي - هكذا قالت ورأت ستناى في الحلم مرة اخرى جروين اغبرين يحفران عتبة الباب.

افاقت ستناى وقالت لنفسها: «ربما حل غضب الاله علينا، لا بد ان شراً ما حدث لولدي الوحيد».

(١) اعلى قمة في القفقاس وتدعى القمة المباركة.

(٢) كتاب ملاحم نارت الشركسية.

استغرقت ستناى في النوم للمرة الثالثة ورأت حلماً آخر: كانت اعواد قصب المستنقعات تشاركها الغسيل».

استيقظت ستناى ونهضت من فراشها: «لقد قضي الامر، وحلت بنا مصيبة الاله - هكذا قالت.

لبست ستناى ملابسها وانطلقت. اتجهت شمالاً وبحثت فلم تجد شيئاً. وهبطت صوب الجنوب، فلم تجد شيئاً.

اخترقت، واتجهت صوب مغرب الشمس - فلم تر شيئاً ايضاً.
عادت واتجهت شرقاً، وعند مشرق الشمس تماماً، وصلت سهلاً فسيحاً، فصادفت فخذ «سوسروقة» الايسر.

- اية شيخوخة تعيسة ستكون شيخوختي، هذا الفخذ هو فخذ ولدي الايسر، - قالت وبدأت تبحث عن الأعضاء الاخرى. فصادفت الفخذ الايمن بعد قليل. وبلوعة حملته ووضعته بجانب الفخذ الايسر. وبعد ذلك وجدت ذراعيه ورأسه وجذعه، ثم رتبت الاعضاء في امكنتها الصحيحة.

كيف ادفنه دون ان اغسله - قالت وبدأت تبحث عن ماء ولكنها لم تستطع ان تنقل ماء من اي مكان في العالم.

وبعد ذلك اخذت تجمع قطرات الندى من الازهار البرية، ومن فوق الاوراق الخضراء في كفها. وهكذا غسلت جسد «سوسروقة» بالندى ولم يبقَ سوى وجهه. ولم تجد ما يكفي من الندى لغسل وجهه، لأن (أشعة) الشمس قد قويت ولعقت كل الندى.

لم اعد اجد ماء فماذا افعل - قالت - ورقدت فوق ولدها واخذت تنوح عليه غاسلة بدموعها وجه «سوسروقة». وعندما غسلت عينيه، فتح «سوسروقة» جفنيه. ففرحت ستناى، وقبلت شفتيه. ففتح «سوسروقة»

فمه وتنهد. وفي هذه الاثناء، انتقلت روح ستناى الى ولدها، وسقطت من فوقه جثة هامدة.

نهض «سوسروقة». وعندما وجد امه جثة هامدة، بكاها من اعماق قلبه. ثم حملها بين ذراعيه واعادها. وطلب من «لبش» ان يصنع لها مقبرة من الفولاذ الخالص دفنها فيه. ولكن قلبه لم يطمئن عليها، فانتزع قلبه ووضعه فوق رأس القبر. عندما تغيب الشمس كان قلب «سوسروقة» يضيء كالقمر فيراه الجميع من بعيد».

9

واعتادت المجموعة على التعايش مع الثور ذي القرون النورانية والعين الماسية حيث يظهر في المغارة مع المغيب. وتلك الكائنات الكلبية بعيونها الوحيدة، وقائمتيها الخلفية والأمامية، تهشهم « ناشخوه » بقصبتها الليلية عندما تذهب النساء إلى المرحاض المنفي في آخر الحوش... واصبح كل شيء اعتيادياً... وبدأت النسوة بالخروج إلى جلسات السمر الليلية جماعة، ويعدن معاً إلى البيت، والرجال يسبقوهن ببضعة امتار، يفتحون البوابة وينتظرون قليلاً متباطئين. يتشاغلون بالاحاديث حتى تقترب النساء، ثم يقطعون الحوش متمهلين، ليتفرق كل واحد منهم الى مطلع الدرجات امام الساحة الضيقة التي تمتد في نهاية الدرج ومقدمة البيوت.

عرفوا فيما بعد من خلال الاحاديث والاقاصيص ان سكان منطقة المهاجرين كانوا يرون الثور بقرنيه النورانيين والكلاب ذوي القوائم المفردة في مقدمة ومؤخرة اجسادهم، فكانوا يتجنبون المرور من هناك ليلاً.

اذا اصبحت الامور اعتيادية، حتى كان ذات مساء، خرجت النسوة

الى عرس احد الاقرباء، وبقيت «ناشخوه». وقبل المغرب خرج الرجال للصلاة. لم تفكر ««مسره خان» انها وحيدة في هذه المستوطنة العجائبية المسكونة بغرائب الامور، لم تعد تفكر بتلك الكائنات الخارقة التي تظهر بالليل.

جلست قرب النافذة المفتوحة بعد ان رفعت الستارة، فكانت تطل على السيل والبيوت القليلة المتفرقة على الجانب الثاني. كانت عين الشمس في نهاية الافق ناعسة مسترخية تنثر ابخرتها الوردية، وجفنها آخذ بالتثاقل، وستائر العتمة شفيفة اثيرية تتراخى اطرافها ببطء في الفضاء.

فاجأها احساس بأن شيئاً ما يحدق فيها... نظرت تحت النافذة، شاهدت الكلب الكبير يقعي هناك قبالتها تحت النافذة، يحدق فيها بعين متحدية لا ترمش. أحست بقشعريرة باردة تمتد بين كتفيها. لاول مرة تحس بخوف حقيقي يشل ادراكها.

اغلقت النافذة بسرعة واسدلت الستارة ثم تأكدت من اغلاق الباب، وذهبت بسرعة الى السرير. اندست في الفراش وتدثرت بالغطاء حتى عنقها وهي تشعر بالارتجاف. اغلقت عينيها وهي تحاول ان تنام، ولكنها لم تستطع. بدأ قلبها يرتعش تحت وطأة الاحساس ان عيناً متسلطة وقحة تتمعن فيها. فتحت عينيها على سعتها بارتعاب، فاذا بالكلب عند السرير. امتلكها خوف لا حدود له. شعرت انها عاجزة على الاتيان بأقل حركة... وفي اللحظة التالية كان الكلب يقفز مقعياً قبالتها على السرير. احست انها تحدق في عينه المتوعدة دون ان تقوى أن تحيد بنظرها عن عينه...

قال لها ساخراً:

ـ انت مريضة... جئت لاداويك...

صرخت وقد انبثق العرق حبات لؤلؤ على وجهها وعنقها:

- لا... لست مريضة... اذهب من هنا... اذهب من هنا...

قال باصرار:

- بلى... انت مريضة... يجب ان اداويك...

صرخت بهستيريا:

- لا... لا... لا... اذهب عني.

تعلقت بالغطاء، ولكنه نسله منها ببساطة، هكذا دون ادنى اعاقة وكأنه ينسل خيطاً من بين اصابعها المرتجفة. ثم امسكها وهي تصرخ ملء حنجرتها:

- لا... لا... لا...

رماها على وجهها، فشاهدت بطرف عينها نصلاً حاداً يمسك به بين مخالبه. ثم رفع ثيابها، شرط ظهرها، من اعلى الى اسفل، في الوسط. وكانت تسمع ازيز اللحم الذي ينشرط تحت النصل، مرة اخرى، والم حارق يتدفق خلف رأس المشرط، ثم لم تعد تعي شيئاً.

عندما انهى الرجال صلاتهم، اعتذر بكمرزا من الاخوة قائلاً:

- الصغيرة وحدها، والدنيا اظلمت... اخشى ان تفزعها تلك الرؤى.

رافق الاخوة بكمرزا وعادوا معاً. خالجهم كلهم شعور بالقلق. قال تامي متضامناً:

- حقاً... انها ليست سوى طفلة لم تتعدى العاشرة... كان من الخطأ ان نخرج جميعاً ونتركها وحيدة في بيت العجائب هذا...

وجدوا في السير وكل واحد منهم يداري قلقه وقد شعر بالندم. قال «محت» الاخ الاصغر:

- هي حقاً شجاعة... ولها قلب رجل، ولكن، احياناً... حتى الرجال يشعرون بالخوف.

دخلوا البوابة. كان المكان ساكناً غارقاً في الظلام. قال ابن كوندوقة مبتلعاً قلقه:

- حتى انها لم تشعل الضوء...

اجاب تامي الاخ الاكبر، واحساس بالفجيعة يتناهبه:

- ربما ذهبت مع النساء او انها استوحشت وذهبت لزيارة احدى البنات ممن في الجوار.

هتف الاب وهو يوسع خطاه ولكن محتفظاً بنفس الايقاع والهدوء:

- انها لا تخرج بدون اذني.

ازدادت ضربات قلبه واصبحت كوقع حوافر حصان سريع العدو وهو يدفع الباب فيجده مرتجاً. نادى بدعابة وهو يداري فزعه:

- يا ابـ.. نـ .. ـة.. الـ.. كـ.. لـ.. ب.. هل انت نائمة.

لم يرد احد. طرق الباب بشدة وهو ينادي:

- «ناشخوه»... استيقظي... افتحي الباب...

ولكن ما من مجيب. دفع تامي الباب بكتفه دفعه قوية فاستجاب له، ولكن الظلام دامس كقبر في الداخل. ارتجف الرجال وهم يبحثون عن القداحة على قاعدة النافذة، قدحها الاب ملهوجاً وعندما قدحت رفع النور شاحباً ضعيفاً ينوء بثقل نسيج العتمة، وهو يبحث عن القنديل. كانت امامه على حافة الشباك، رفع البلورة وأشعل الفتيل، انسلت خيوط العتمة منكمشة، وكانت «مسره خان» ممددة بانكفاء على وجهها،

مكشوفة الظهر دامية كأنها جثة. جس نبضها، ولكنها كانت غائبة عن الوعي.

قال «محت» مندفعاً الى الخارج:

- لا تلمسوها... سأنادي على «شيخ اسماعيل» هو سيعرف ما اصابها.

كان الظلام دامساً في الخارج لا يتبين المرء انفه من شدته.

كان بكمرزا يقطع الغرفة ذهاباً واياباً وقد عقد يديه خلف ظهره وكان يتمتم سارحاً:

- ما الذي اصابها... انها الوحيدة التي بقيت لي... هل افقدها ايضاً... ولكن كيف حدث ذلك... ومن فعله... خطان متصالبان على الجانبين واثنان في منتصف الظهر. الدماء ملأت كل شيء حولها.. الباب مغلق بالمزلاج وهي في الداخل... كيف حدث ذلك واين اختفى الفاعل... هل هو...

وصل «شيخ اسماعيل» وفي يده كيس من القماش الابيض النظيف، يضع فيه كل حاجاته. وكان «محت» يحمل في يده فانوساً مضاء ودخلا الغرفة.

بدت الوجوه صفراء شاحبة كوجوه الاموات.

جلس الشيخ بجانب «مسره خان» على السرير تمتم منفعلاً:

- يا للكفرة... ارادوا ايذاءها الى اقصى حد. حاقدين عليها حد الموت. انهم كالعبيد، والتمعت عين وقحة شرهة عند درفة الباب المواربة ثم ذابت في العتمة. طلب الشيخ طاسة «آية الكرسي» وطلب ماء فاتراً... ثم اخرج مجموعة من الاكياس الورقية المغلقة، فتح اثنين ورش سفوف من داخلها في قاع الطاسة، اخرج قطعاً من الشاش، طلب طشت، سكب

بعضاً من الماء الدافيء في الطاسة وحركه بمسواك حتى ذاب كله. سكب ما تبقى من الماء بالطشت واضاف اليه كمية اخرى من الشبه المسحونة، بدأ بإزالة الدماء وغسل الجروح الطولية التي شقت اللحم عميقاً. وبعد ان غسل الدماء وطهر الجروح التي كانت تنز الدم ببطء، اخذ قطعة من الشاش وبدأ يمسح الجرح بماء الطاس وهو يتمتم بادعية متواصلة. توقف نزيف الدماء. ظلت غائبة عن الوعي لا تصحو، وظل الشيخ يخرج اغلفة وصُرراً من كيسه ويرش بعضه على ظهرها والبعض الآخر في ماء الطاس ويمسح به ظهرها. ثم اخرج علبة مرهم ذي رائحة نفاذة حريفة، ودهن طبقة على ظهرها ثم غطاه بالشاش. طلب جراً فاحرق عليه قطع من البخور ثم اشعل عيداناً سوداء من اطرافها حتى تجمرت رؤوسها واخذت ترسل خيوطاً رقيقة من الدخان. وفاحت روائح زكية نفاذة، ثم كتب ادعية على ورقة طويلة ملفوفة، بعرض اصبعين وضعها تحت وسادتها، ووضع مصحفاً ومقصاً مفتوحاً، ثم طلب تغطيتها بشرشف خفيف ابيض طاهر.

همس سارحاً:

ـ الكفرة... ارادوا ايذاءها بشدة حتى الموت... بحقد، حقد عبيد... تماماً... حقد عبيد... ولكن قلبها من صوان، لقد شملها الله برحمته فوصلت بسرعة... وسيتم شفاؤها باذن الله.

فتحت عينيها، اتقدتا بحقد وغضب، وقع نظرها على وجه «شيخ اسماعيل» الصبوح المضيء، لانت نظراتها، غشاها شيء كالابتسام ثم اغلقت اجفانها.

هز رأسه وعاد يهمس:

ـ لا تخافوا... لقد شملها الله برحمته... لقد استعادت وعيها وهي

نائمة الآن... المرهم الذي غطيت به الجراح يبني ما انقطع من اللحم ويخدر الالم... لقد احطتها بكل الموانع... لن يجرؤ الملعون على العودة وانتم نيام «احطتها بسياج من الادعية... وصلتم بسرعة... لو تأخرتم ساعة اخرى، لما كان بالامكان انقاذها... لماتت ربما... او جنت... انها ذات قلب صخري، ليحمها الله ويهبها طول العمر... انها تستحق الحياة هذه الطفلة الشجاعة، واعتقد انها قادرة على الحفاظ عليها... لا استطيع ان افعل لها أكثر من هذا... والباقي في يده تعالى اذا طلع النهار عليها وهي حية، تكون قد عادت بعمر جديد.

حل كيسه وحوائجه، وخرج «محمت» يمشي خلفه باحترام حاملاً الفانوس ينير له. وفي الخارج كانت نجوم خافقة متوعدة تتطاير عبر الحوش وقرب الباب كحباحب غاضبة.

بعد ان استعادت الصغيرة «مسره خان» صحتها اخبرتهم بما حدث. هز ابن كوندوقة رأسه متفكراً بحزن، وتخلل لحيته الشهباء باصابعه ذات البقع والجروح والخدوش، حاملاً على يديه آثار عمله... واما اليد اليسرى فانها كانت ملقية بجانبه مهملة بارتخاء وكانها بعضاً من لحيات ديك حبشي تتهدل حول عنقه كأشياء زائدة. كان يقطع الغرفة ذهاباً واياباً. همهس في عبه:

ـ لا بد من ذلك... اظن، لا بد من ذلك.

وفي اليوم الثاني جاءت لزيارة النساء امرأة متوسطة العمر، متوسطة الطول، على قدر من الامتلاء، مستديرة الوجه، لا تنقص الملاحة ملامح

وجهها. جلست بجانب الصغيرة مـدت لها شعرها، قالت لها بحنان:

ـ كيف انت الآن يا «ناشخوه»، هل صحتك على ما يرام؟

كانت تجلس صامتة. اومأت برأسها علامة الايجاب.

امسكت الضيفة بكف الصغيرة وقلبته الى الباطن، وكانت تردد بصوت منغم رخيم وهي تثني اصابع يدها اصبعاً اصبعاً:

ـ ينه ينه... مقه مقه... شحل قته... قته راو... الخ[1].

ودغدغتها في النهاية تحت ابطها. ابتسمت برخاوة، ثم سحبت يدها. دخل بكمرزا بعد فترة. نهضت الزائرة باحترام، كما فعلت زوجات الاخوة وكذلك «مسره خان»، كما هي العادة. لم يفاجأ بوجود الزائرة الغامضة، كما لم يستغرب لرؤيتها، بل بدا أنه على معرفة وثيقة بها وبوجودها هنا. وتبادلا نظرة سريعة متواطئة، لم يسلم عليها كما تقتضي العادة، بل اومأ لهن محيياً واشار بيده ليجلسن دون ان ينظر اتجاههن، ثم اتجه الى النافذة وهو ينظر بين قدميه. رفع الستارة وتناول شيئاً عن القاعدة العريضة واستدار خارجاً. وقبل ان يخرج من الباب استدار واختطف نظرة متسائلة الى عيني الزائرة، وردت عليه بنظرة حائرة.

بعد ذلك استأذنت الضيفة الغامضة. خرجت النساء و«مسره خان» لتوديعها ومشين معها على الطريق الترابي بجانب شجرات الحور المصطفة كان الوقت عند المغيب. اعتذرت نعمات وهي تقول بخجل:

ـ كنا نريدك ان تبقي على العشاء، وعلى ذلك خرج الرجال الى الجامع، والا لبقي احدهم ليصل معك الى البيت.

قالت وهي تمسد شعر «مسره خان» الذهبي برفق:

ـ لا بأس... لا بأس... انا هنا في ضيافة بعض الاقرباء... والبيت

ليس بعيداً. انني فقط اريد ان اقطع السيل.

قالت نعمات برفق:

- هنا بعد بضعة امتار نصل الى جسر خشبي صغير مثبت على طرفي الماء...

وصلن الجسر. قطعة خشب مستطيلة بطول متر ونصف وعرض نصف ذراع تقريباً، مثبت طرفيها ببعض الحجارة الكبيرة الملساء. كان الجسر في المكان الاكثر ضيقاً وضحالة. تقدمت نعمات وامسكت بيد الزائرة وساعدتها على المرور على الجسر المقلقل بحذر. بعد بضع خطوات كانت على الجانب الآخر. عادت نعمات وظلت الزائرة تمشي وهي تتكلم وتلتفت وتحرك يديها.

اعتنين بالبنية... فدتكم عيوني... انها متعبة... واضح انها متعبة... يبدو ذلك على وجهها... لا تكاد تبتسم البنية... فدوتكم بروحي يا حلوات... اعتنين بها عصفورتي الشقراء «ناشخوه».

تضاحكت النسوة وهن يقفن منتظرات ان تبتعد الزائرة اللطيفة. ثم استدرن متضاحكات وامسكن بها بينهن متغامزات:

- اين كانت هذه الام السرية يا «ناشخوه»؟...

واخذن يرددن بعض الاغاني الضاحكة وقد اسلمن وجوههن لمداعبات هواء المغيب الغربي القوي. وسقطت الشمس في وادي الظلام. وبعثر الليل جدائله القاتمة مخترقاً بقايا النور قبل ان يحبك نسيجه القاتم ويلف به الكون.

تفلتت «مسره خان» من بين الايدي راكضة وتناولت قصبة ملقاة بين الحصى البيضاء الملساء، قريباً من الماء. أمسكتها بيدها، وتطايرت

بروق قائمة من نافذتي السماء في عينيها. ونادت جانسيت بصوتها كخرير الماء الناعم:

ـ هيا يا «ناشخوه» ستعتم الدنيا بعد قليل.

وتماسكت أيديهن وجرين متضاحكات وهن يضربن تيار الهواء القوي بأجسادهن، وكأنهن حوريات يمزقن امواج البحر بصدورهن الصلبة النافرة. اجتزن البوابة متدافعات، ثم توقفن فجأة. كانت عشرات الاعين المحدقة تتلامع حولهن. ركضت «مسره خان» نحوهم وهي تصيح:

ـ يا اولاد الزنا... سأقتلع عيونكم الوقحة.

بدأت تضرب بكل الاتجاهات، تراجعت الاعين المحملقة وتفرقت، كان الثور يخور وهو يحرك قرنيه النورانيين ويباوع بعينه الكبيرة المضيئة نحوهم. قالت «مسره خان» معتذرة:

ـ أنا لم أقصدك انت... أنت لطيف، وغير مؤذٍ... ولكن اعتقد أنك تحب اللعب... انا فقط اعني هؤلاء الأشرار، أنت تعرف ما فعلوه بي، اليس كذلك؟..

وحركت يدها بالعصا بنوع من المودة، فحرك بدوره رأسه ودار في المغارة بشيء من الابتهاج. اخذت الاعين الملتمعة تنطفيء وكأنها نجيمات تشتعل للحظة ثم تتلاشى، واما الثور فانه ظل يراقبهن دون ارتباك وبدا كأنه يبتسم بشيء من السخرية في العتمة. حركت «مسره خان» عصاها تجاهه بشيء من الدعابة. امسكت جانسيت بيدها وركضت وهي تسحبها معها قائلة:

ـ انا لا استغرب ما فعلوه بك... انك جن اكثر منهم... اعتقد فعلا ان الثور غير مؤذٍ... كذلك قال «شيخ اسماعيل»... وقال انه رحماني... يجب الا تغضبيه بل قولي «سلام الله عليك يا رحماني»...

قالت «مسره خان» ضاحكة:

ـ انا اداعبه فقط... لم اقصد ان اهدده... الم تري، انه كان يبتسم...

استمرت «ناناف» ـ ضياء العين ـ كما كانوا يدعونها بالمجيء. وذات يوم عندما جاءت، تضاحكت الزوجات واطلقن دعابات غامضة وهن يتغامزن. قالت «ناناف» باطمئنان:

ـ لا تفكري بشيء «ناشخوه»... سأكون انا امك... انت صغيرة وجميلة جداً... فكيف يمكن لك ان تخدمي «باباج» وانت محتاجة لمن يعنى بك؟.. سأعتني بك كأم، يا روحي... يا نور عيني... انت لا تكادي تعرفين ما هي الام ابداً... يا عصفورتي الذهبية... عندما تكبرين ستصبحي كنتي. «باباج» لا يستطيع التحول الى ام. له شوارب ولحية شهباء جميلة... لا يستطيع ان يلقي شاربيه ويستنبت لنفسه اثداء. الاثداء لا تزرع كنبتة ريحان... هذا عطاء من الرب. عندما خلقه الله جعل لــه «حاشة» ولا يستطيع ان يتخلص منه ... لقد خلقه الله كذلك... وهبه ذلك... ولأجلك لا يستطيع ان ينقلب الى شيء آخر...

ادارت النساء وجوههن المحمرة يخفين افواههن الضاحكة براحات ايديهن وهن يكتمن ضحكاتهن. واستمرت «ناناف» تهدهد:

ـ يجب ان تكون له واحدة تعتني به. تقلي له «اللقم السخن» في الصباحات وتصنع الجبن والقشدة والقاورمة. وتحضر له المرق الساخن يطري إمعاءه... وتخبز الخبز بالطابون... وترتب له ملابس لائقة نظيفة... هيا يا عصفورتي... ليجد لنفسه ذلك. انت سجنتيه بأباليسك الرهيبة.

كانت «ناناف» من الاسر النبيلة التي جاءت هنا. جاءت مع زوجها

عروساً وسكنا بالرصيفة ذات البساتين المثمرة والاشجار العطرة. يمر سيل الزرقاء من بين بساتينها الغناء يهمهس في الصيف وتنشد الضفادع اغانيها الحمقاء والجداجد تشدو الحانها وتخفق الفراشات والنحلات بأجنحتها بين الازهار وعلى الثمار. وفي الشتاء يهدر السيل صاخباً غاضباً معربداً كسكير نزق وتغلق الابواب، ويوقد الحطب في المواقد وتثغو الاغنام في الحظيرة. لم تكن الامور سيئة، وانجبت نارت... ولكن زوجها ذهب الى حقله ذات يوم، ولم يعد. قتل - كما كان يحدث غالباً. - احتفظت بالارض واجرتها مناصفة لاحد المهاجرين الجدد، واعتنت بالبساتين وزادت اغنامها بضعاً واقتنت بقرة. وعندما اخذت «مسره خان» الى كنفها كانت تملك بيتاً لا ينقصه شيء، وابنها «نارت» يافعاً في الرابعة عشرة من عمره يتمايل في مشيته بجسمه غير المتوازن. بساقيه الطويلتين ورأسه الذي لا يزال صغيراً. وينتشر زغب خفيف اشقر فوق شفته العليا وعلى اطراف ذقنه وصدغيه. وجذعه الضامر بخطوط لا تزال طفولية يمشي مرتبكاً بسبب من امتداد اطرافه غير المتناسب مع جسمه، فيبدو كسلطعون فتي خجول يركض مجانباً فلا يفكر احد انه جاد في تحركه، بل يفعل ذلك من قبيل الدعابة، فيبدو مضحكاً كيفما تحرك.

كانت «ناناف» ترسل «نارت» للعمل في الحقل مع المرابعي، ويخرج بالغنم للمرعي ويحتطب ويشتغل في البستان، ويقوم بتشذيب وتقليم الأشجار والحفر حول الجذور واعداد قنوات الري للخضار. اما انا فقد كنت اجلب الماء من البئر واحلب الغنم مع «ناناف». كنت اشعر بمتعة فائقة وانا اسحب الحليب من ضرع الغنمة، دافئاً يشخب متدفقاً في الوعاء

ويتنمش سطح الحليب المتزايد بسرعة بفقاقيع تعلوه وتنطفىء. وتعلمت العجن وتسخين الطابون... وجبل الطين لتمليط الجدران والسطوح، واكنس قن الدجاج وزريبة الحيوانات.

وعند العصر كانت فتيات في مثل سني يأتين لنلعب معاً. ولم يسمح لي ان اذهب للعب مع اقراني. كانت «ناناف» تقول بصوتها العذب المقنع:

- ها انت يا عصفورتي ترين ان الجارات يأتين إلينا... يجب ان تتذكري انك «بكمرزا كوندوقة»، وكذلك نحن. ولهذا لا يليق بنا التقلب هنا وهناك على عتبات البيوت. لنا عتبة بيتنا ويجب ان نبقيه نظيفاً...

وعلمتني ان اصنع لعبي، واقضي وقت فراغي وان اخيط عرائسي. اقص جسم الدمية واخيطة ثم احشوه بالصوف او اقاصيص القماش، وارسم الوجه او اطرزه بخيطان ملونه: عيون وحواجب وانف وفم قرمزي، واخيط من صوف الغنم شعر الرأس.

بدأت اصنع أُسَراً كاملة من الدمى. واطرز فوق الشفاه خطان من الخيطان الصفراء او البني او الاسود حسب ما يحلو لي. وكذلك تعلمت ان اصنع لاقزامي ملابس متعددة من القطع البالية وبقايا الأقمشة المستعملة للملابس والمفارش والستائر. وتعلمت التطريز وشغل الابرة.

اخرجت لي ذات يوم صندوق كبير من بين اشيائها. كان مصدفاً برسومات وزخارف رائعة، ومن الداخل كسي بمخمل نبيذي رائع. قالت وهي تهمهس بنشوة:

- اسمعي «ناشخوه»... ابنتي الجميلة، كنتي الشقراء... كان هذا صندوق عرسي. صنع عند اقوام مجاورة مشهورة بمهارتها بهذه الامور...

عليك منذ الآن كأي فتاة شركسية ان تطرزي وتشتغلي كل لوازم عرسك... غطاء السرير، وجوه المخدات والمساند... والمفارش وستائر غرفة عرسك... كل ذلك يجب تطريزه بما يحلو لك... وتشغلين بالابرة مفارش للمائدة ولامبات الاضاءة باحجام متنوعة. وكذلك لتزيين وجوه الحشيات الصغيرة المربعة والمستديرة والمستطيلة. كل ما ترينه نافعاً وجيلاً. وستخيطين ملابس عرسك وقبعة الرأس الموشاه بخيوط من الذهب او الفضة.. شالاتك، ملابسك الداخلية، وتطرزين اطرافها وحوافيها وتخرمي حوافيها بشغل الابرة. وسأوفر لك كل ما تحتاجينه في عملك. نعم... علمتني كأحسن ام كل ما يجب ان تتعلمه الفتاة الشركسية، ثم اخرجت من الصندوق مشداً مصنوعاً من قماش سميك مقوى بسيورات عظمية مدككة طولياً، ويخاط حول الصدر والخصر والارداف. ولا ترفع الفتاة هذا المشد الا ليلة زفافها.

هسهست فرحة حالمة:

- عرفت الشركسية منذ كان جنسنا برشاقة الجسم وضمور الخصر. ولم تُترك الفتاة لينمو جسدها كما يحلو له. يقال انها كانت فارسة تقاتل، وتضرب بالسيف وتمتطي الخيل. قبيلة من النساء المقاتلات. واشتهرن عبر التاريخ. ولهذا لا يترك في جسمها زوائد تعيق رشاقة حركتها وتشوهه. ما حاجة العذراء لهذه الاثداء المتدلية كأثداء كلبة؟ انها تحتاج ذلك بعد الزواج فقط، للارضاع، في السابق لم تخلع الفتاة المشد الا في ليلة زفافها. كان العريس يشرط المشد بطرف سيفه. ويجب ان يفعل ذلك دون ان يسبب ادنى خدش على جلدها، والا فلن تعتبره فارساً يليق بحمايتها وحماية بيتها واطفالها. هكذا كان يعتق جسد الفتاة في الليلة الاولى من الزفاف.

بعد ثلاث سنوات من انتقالي الى كنف «ناناف» وصلت الثالثة عشرة سن البلوغ. بدأ جسدي يتفتح كما تتفتح زنابق الصباح.

ومن خلال طقس احتفالي، جاءت زوجات الاخوة. وبعد الاستحمام طوق خصري وصدري واردافي بذلك المشد القاسي. احسست اطراف السيور الصلبة تنغرز في لحمي ويطبق على صدري فلا استطيع التنفس. ولم استطع النوم في الليلة الاولى والثانية. ثم بدأ جسدي بالتعود وبدأت اشعر بخفة تكاد تحملني على اطراف الهواء. وتخيلت «الود»[1] تمتطي ديكاً، وتطير على ظهره... لا بد انها تلبس مشداً يبقي جسمها خفيفاً قادراً على الطيران. وبدأت اتهادى بعد انتهاء مهمات المنزل بالزي التقليدي للفتاة الشركسية... وبدأت اقوم بواجبات الضيافة عندما يأتي ضيوف. وكذلك عندما يأتي «باباج» او الاخوة. كنت اغلي الشاي بالسماور النحاسي الملتمع المتباهي وكاسات الشاي الشفافة باطرافها المذهبة، والسكرية الفضية، واقدم الطعام لـ «باباج ونارت» وانا اقف بالزي التقليدي متباهية بالزنار الذهبي الذي يحدد مقاس خصري النحيل. وجدائلي الذهبية تتدلى على صدري فوق التطاريز التي توحي بصفوف الفشك مطرزة بخيوط الذهب او الفضة حيث تنتهي اطرافها بزهرة رباعية الاوراق. واضع على رأسي القبعة الصغيرة المستديرة المزخرفة بتواشي من خيوط الذهب، واسدل الغطاء الشفاف على طرف القبعة والاكتاف. كنت اظل واقفة اقدم الخدمة للرجال حتى ينتهوا من الطعام، ثم تجلس النساء للاكل فأظل واقفة امامهن للخدمة.

وبدأت اقف على خدمة «نارت» دائماً اثناء تناول الطعام، واحمل البشكير واسكب الماء من الابريق الفضي عندما يغسل يديه ووجهه صباحاً

---

(١) نوع من العفاريت.

ومساء. كنت اقوم بالمهمة بشيء من الخجل والتباهي. واخذت ارقب ساعديه اللذين اكتستا بشعر اشقر يلتمع مع اشعة الشمس.

كنت انام مع «ناناف». ولم تسمح لي ابداً ان التقي مع «نارت» وحدنا. كانت له غرفته في طرف الدارة، وبدأ بمجالسة الشباب من اقرانه. أما مع الرجال فكانوا يتواجدون وقوفاً في اطراف مجالسهم لتقديم ما يطلب منهم من خدمة، والاستماع الى احاديثهم ومشاوراتهم ونقاشاتهم لأمور حياتهم وكذلك سمرهم.

كانت «ناناف» شديدة اليقظة، تغض الطرف عند تنظيف مراقد الحيوانات التي اخذت تتزايد، وتجفيف «الجلة» وترتيب الحطب وكذلك استخراج الماء من البئر وتعبئته بالبراميل تحت اليد. كانت عينها المتغاضية المتوارية المتشاغلة هنا وهناك تتابع كل حركة من حركاتنا وسكناتنا، فلا تترك اي فرصة لنا لأي تلامس، او التباطؤ في العمل. تلجمنا بتمتماتها ثم تمر بالجوار متشاغلة بأي شيء وتنادي:

- «ناشخوه»... اين انت... تعالي ساعديني بنية!.

لم يكن هذا النوع من الزواج شائعاً بين الشركس، ولكنه إستثناء حدث مع ظروف الهجرة وتشتت الاسر والعائلات. ولهذا امسكت «ناناف» بكل الخيوط التي تفصل الحدود والمواقع، وتوزع الواجبات، وتحدد الزمان، بيد ماهرة قوية دون ان تترك اقل فجوة أو أن تترك أي مجال للخلط والتداخل. ما كان يجب ان تسمح بحدوث اي إساءة للرجل النبيل الذي وثق بها ووضع مصير ابنته الطفلة بين يديها. كان الموت اهون بالنسبة لها من حدوث ذلك.

ذات يوم من ايام آذار ركب «نارت» الحمار واخذ الفاروعة وبعض الحبال وخرج للتحطيب في اماكن تواجد الشجر، ليس بعيداً جداً، وكذلك ليس

قريباً. وكان ذلك من الامور التي لا بد منها عند نهايات الشتاء وبداياته.

عاد مع المغيب. كانت « ناناف » قلقة على غير عادتها. دخل « نارت » وذهب رأساً الى الاسطبل وهو يحمل فأساً ومجرفة، وقضى بعض الوقت. كانت « ناناف » تجلس قبالة الباب وهي تغزل الصوف. كانت حركة اصابعها، وهي تنفش الصوف المغسول الابيض وتمده ثم تبرمه بالمغزل ليخرج الخيط الصوفي مبروماً، متوترة عنيفة لا تتوقف. وكنت الف الخيوط المغزولة كبباً مستديرة كبيرة تفوح منها رائحة الخراف. كانت عيناها وهي مستمرة في عملها تتسللان الى البوابة المكشوفة من مجلسنا بقلق حاولت ان تكبحه. بدا فمها منطبقاً بقوة وكأنها تضغط مشاعرها بعنف في داخلها. أما وجهها فساد قسماته توترٌ لم تستطع كتمه. راقبته وهو يربط الحمار دون ان ينزل الحمل عنه، ثم وهو يندفع الى المخزن، ويهرول حاملاً فأسا ومعولاً نحو الاسطبل، ويغيب.

زادت حركة اصابعها عنفاً، ارتج المغزل... ثم ظهر « نارت » خارجاً وهو مرتبك ملهوج. قاد الحمار وهو ما زال محملاً الى الاسطبل. غاب وقتاً لا استطيع قياسه ثم ظهر يشد رسن الحمار الذي بدا مرهقاً من احماله. انزل الحمل عنه، تركه يندفع نحو المعلف دون ان ينتبه له ودون ان يتأكد من وجود علف وماء. ثم اتجه الى غرفته مباشرة.

كنت قد اشعلت الحطب في الموقدة والغرفة دافئة. بعد فترة فتح الباب، وظهر. وقف خارج الغرفة، ودون ان يظهر نادى:

ـ انَّه... تعالي...

سمعنا صوت خطواته وهو يبتعد، وصر باب الغرفة وهو يفتح ويغلق. همهمت « ناناف »:

ـ آه... يبدو ان الامور ليست على ما يرام.

وضعت المغزل والصوف بالسلة، ونفضت حجرها من فتافيت قش

وصوف وبعض الشوائب وما الى ذلك. لبست خفها الجلدي الاسود بطرفه المدبب المرتفع فوق كلسات الصوف ـ كلاهما صنع يديها ـ، ثم انطلقت بصمت الى غرفة ابنها. عندما نظرت الى وجهها، قبل ان تخرج، لاحظت وجود عضلة صغيرة فوق عظمة الخد الايسر تخفق باضطراب.

لم استطع مغالبة فضولي. تسللت خلسة ووقفت عند الباب المغلق. سمعته يقول بصوتٍ مهتاج:

ـ عند الظهر اكلت بعضاً من الزاد الذي وضعته لي. كانت نبعة بالجوار تخرخر كهرة مبتهجة. شربت ما يكفيني من الماء وتوضأت ثم صليت الظهر. اسندت ظهري الى جذع شجرة بلوط عتيقة منفوشة، كان الحمار يتلقط كلأً في الجوار، ولا اعرف كيف غفوت، ولكني استيقظت مرتعباً على صوت يصرخ بي:

ـ قم ايها الكسول واحفر تحت الشجرة، انك تنام على كنز.

قمت، بسملت، شهدت، وطلبت عون الرب ثم بدأت احفر. لم احفر عميقاً ـ كنت قد اخذت الفأس الصغير احتياطاً للحاجة ـ، ثم ارتطم سن الفأس بشيء صلب. كشفت حوله بيدي. ظهر طرف قبر حجري قديم. كسرت الحافة وقسماً من السطح، وظهرت جمجمة عظمية تحملق فيَّ بمحجرين فارغين. اخرجت العظام بسرعة وفي الطرف شاهدت جرة متوسطة الحجم شمع غطاؤها باحكام. اخرجتها وضربت حافتها المختومة بالفاروعة فانكسرت... تساقطت قطع ذهبية تتلامع كأقمار صغيرة مضيئة. لملمتها ووضعتها بالخرج مع الجرة. اعدت قطع العظام كلها واعدت التراب على القبر. انتابتني حمى من الفرح المجنون غير قابل للتصديق. كنت اتنفس كمن ينفخ في فرن، وقد انقشع خوفي من رؤية مصير الحي البائس. اكملت التحطيب دون وعي، خشيت تأنيبك، وعدت بالكنز. حفرت في الركن الجنوبي من الاسطبل

حفرة عميقة، ودفنت الكنز هناك. كنت مضطرباً ومهتاجاً فلم افكر الا هكذا... لقد اصبحنا اغنياء... أنّه... لقد... اصبحنا... اثرياء...

قالت « ناناف » بهدوء:

ـ حسناً فعلت يا ولدي... غداً صباحاً سنخرجه من هناك، ونجد له مخبأ آخر. يقولون ان السلطات العثمانية اذا عرفت بالامر فانها تلقي الرجل بالسجن في استمبول، وتتركه هناك يتعفن بعد ان تستولي على الكنز. لا اريد ان افقدك لاجل المال. يجب ان نكون حذرين يا ضوء عيوني.

تسللت الى غرفتنا، تجمدتُ من البرد. كان رذاذ خفيف يتساقط ، وبدأ الظلام ينتشر. اشعلت اللامبة البيضاء الطويلة بسرعة، واشعلت الحطبَ في الموقد، ثم اشعلت قنديل المطبخ. وبعد قليل مددت رأسي من الباب استطلع غرفة « نارت ». رأيتُ « اللامبة » تشعشع على قاعدة النافذة.

حضرت العشاء ل « ناناف » و « نارت »، وناديت عليهما من خارج الباب، ثم ذهبت للمطبخ، اشعلت الحطب في الموقد، وجلست قرب النار انتظر.

لم يخرج « نارت » الى مجلس الرجال، كما كان يفعل كل مساء، بل بقي هو وامه في غرفته، وبقيت انا اطرز على اللامبة التي وضعتها على المائدة المستديرة بحافتها المزركشة بالقرب من نار الموقدة.

فجأة شق السكون صوت زعيق يضج بالهواء، ويشطر الصمت مندفعاً في جوفه. وصاحب الزعيق المولول خفق اجنحة رهيب. شعرت وكأن اطراف الاجنحة تجلد وجهي. تسمرت في مكاني... كائن هائل يحوم فوق سطح الدار هادراً زاعقاً مولولاً... لم اعد استطيع حتى ان ابتلع لعابي... ثم اتجه صوت الخفق والعويل نحو الاسطبل، وبدا انه يحوم هناك. تدافعت الحيوانات: ثاغية محمحمة صاهلة ناهقة، شاخرة في الحوش. تركز مصدر العويل النائح في مكان واحد، ثم انطلق مبتعداً بعد ان دار حول الاسطحة زاعقاً وكأنه بوق إسرافيل

يوم الحشر، وقد ترك اصداء مشدوهة تتردد في الفضاء.

ارتفعت حرارة الابن وأخذ جسده يرتجف وتصطك اسنانه. « كان يردد بصوت محموم »:

- خبئيني انَّه... خبئيني... انه يزعق داخل اذني... ابعديه... انه يضرب وجهي بأجنحته... بردان... انه... غطيني... غطيني...

وضعنا على جانبيه طوبات ساخنة، وعند قدميه كيس ملح ساخن حد الاحتراق. لففناه بالاغطية الصوفية. كان العرق يسح عن جبينه ويبلل شعره ويهذي:

- ابعدوه... بردان... غطوني... لا اريد الاستحمام بالماء البارد... اعطوني الجرة... اعطوني الذهب...

نظرت الام إليّ نظرة بائسة ونحن نجلس متربعتين عند اقدامه نقرأ ما نعرفه من آيات قرآنية. مضى الليل ثقيلاً طويلاً بلا نهاية... واخيراً خرج الضوء يرمح على خيوط مجنحة مشعشعة.

استيقظ « نارت » بوجه نحيل اصفر، وكنا لا نزال على مجلسنا. نهض ملهوجاً ودون ان يتفوه بكلمة خرج دون ان ينتعل خفيه حافياً. كان الرذاذ ما زال يتساقط ناعماً هشاً، رقيقاً... والهواء بارد. هرول والطين يغطي قدميه حتى الكاحلين. وهرولنا خلفه، نلبس قباقيب الخشب فوق الاخفاف. عند الزاوية الجنوبية من الاسطبل كانت حفرة على عمق نصف متر وبقطر متر تقريباً منكوشة، والتراب مبعثر في كل الاتجاهات. كانت قطعتان ذهبيتان واحدة عند الحافة بين التراب من الخلف، والثانية تبعد عنها قليلاً، قريباً من الزاوية. ركض « نارت » وعلى وجهه ذهول يوحي بغياب وعيه، بينما العرق يتصبب منه. حل فأساً وعاد الى الاسطبل وبدأ يحفر ويحفر ناثراً التراب والزبل في كل

اتجاه... يحفر، ويحفر... ثم يقعي في الحفرة وينبش التراب بيديه وينثره خارج الحفرة فيتساقط على رأسه ويتخلل شعره ويغطي وجهه بطبقة ناعمة داكنة، فتلتمع عيناه بخجل من خلال رموشه حاملة ساتراً من التراب.

ضربت «ناناف» صدرها وقالت بذهول:

ـ قلت ان ذلك ليس خيراً...

بعد اسبوع مات.

ـ «باباج»... لا بد انك تعرف احوال «ناناف» و «نارت»... كيف هي امورهما... لا بد انك تراهما...

ابتسمت عينا «باباج» وومضتا ببريق ماكر. همهم في عبه:

ـ هيه... كبرت... خرفت... كفاك معاندة ومكابرة... الم تريهما؟...

وتابعت عيناها حركة يده. كان «نارت» يقف قبالتها عند طرف السرير. ابتسم بخجل وقال مداعباً وهو يسرق الكلمات من بين نظرات الحضور:

ـ يا لنا من زوجين عجيبين، كنا... طفلين كنا... وقالوا اننا زوجان... ثم منعوا عنا مذاق التفاحة... حتى الافعى تعففت في... ولماذا تاهت شجرة التفاح عن موقعها؟... ها... كنا طفلين، تضعين الاثداء للبعض من لعبك، ثم وفي غفلة عن عين الام الساهرة كنت أرسم لبعضهم الآخر الشوارب... وتلفنا نشوة طفولية ونحن نعتقد اننا نجتمع من خلال اللعب، في لقاء سري لا ندرك معناه... ولكننا نحسه... من البؤس ان يموت الانسان دون ان تتكشف له حقيقة الخطيئة... التصقت قضمة تفاح شهية في حلقي ولم أتذوقها... غصصت بها دون ان آكلها... دون ان اتذوق طعمها...

ابتعد « شوجن » وجلس متوارياً بحزن.

همهمت وهي تشوح بيديها وتدفع جذعها الى الامام تبغي القفز من مكانها:

ـ ولكنك سُحِرْتَ بلمعان ذلك الاصفر العاهر... انت بعتني بحفنة من الذهب... واضعت عمرك وعمري وانت تجري خلف سرابه اللامع... بماذا افادك؟

احست بيد باردة جليدية تتحسس خدها، وصوت رخيم عذب يهدهدها:

ـ لا بأس يا « ناشخوه » الصغيرة... يا روحي... يا نور عيوني... لا تحتدمي يا عصفورتي الذهبية... تلك الايام مضت... لكم كنا نقسوا على انفسنا... ماذا جنينا من كل ذلك؟ كل ذلك الجد الذي اخذنا به انفسنا؟... عبث... نكتشف متأخرين جداً انه عبث!..

التفتت بسرعة الى الطرف الآخر من السرير. كانت « ناناف » تجلس على طرفه بجانبها. احست بالخجل:

ـ يا لخجلي... كيف لم انتبه لوجودك هنا؟...

احست انها تحمر حتى اطراف اصابعها، قالت متلعثمة:

ـ استحلفك بالله... استحلفك بمحبة الله « ناناف » سامحيني... اكيد انني خرفت.. لم اعد اشك في ذلك... ولكن، ربما عمشت عيوني... انا لم ارك ولم انتبه لدخولك... ساعدني انزور... تعال هنا ممدوح... انا لم ارك حقاً... تعالا، ساعداني على النهوض... هؤلاء البنات لا جدوى منهن...

تلفتت نحو الجالسات بنظرات صارمة:

ـ انهن بعدما يطبطن على مؤخراتهن لا يزحزحهن بوق يوم الحشر. يجب ان اقف، « باباج »... يجب ان استقبل « ناناف » بما يليق، واقبل يدها...

واجلسها في صدر المكان.

عادت الأصابع الباردة تضغط يدها:

ـ أريحي نفسك « ناشخوه »... وروح امي انا مرتاحة... انا اجلس هنا بقربك، اتنشق رائحة انفاسك العطرة يا حلوتي الشقراء... انا اشعر بالسعادة عندما انظر الى وجهك الجميل الفتي.

حاولت ان تخفي وجهها تحت الغطاء. كانت تهمهس:

ـ انا كبرت « ناناف »... انا شخت... لم اعد تلك الصغيرة ابداً... ابداً لم اعد تلك الصغيرة الجميلة... جلدي اصبح كجلد حرذون هرم...

هدهدت بحنو:

ـ انت ناشخوتي الحلوة... انت ناشخوة الصغيرة... انت عصفورتي الشقراء... أريحي نفسك فقط... ايوه هكذا... آه... لا تتكلمي... لا تتعبي نفسك... نامي يا حلوتي نامي... فدتك عيوني... فدتك روحي...

اغمضت جفنيها وهي تستمع لرنين جرس الصوت الرخيم. ولكنها فجأة فتحت عينيها على سعتها، وارتفعت بجذعها الى الامام وهي تصرخ:

ـ انزور... نارت... امسكوا ممدوح... انه يندفع تجاه النسوة الجالسات في الجانب الآخر... سيتبول على احداهن... سيتبول عليهن وهو يظن نفسه بالمرحاض.

عميمة... أخبرينا... ارجوك أخبرينا عن العم « شريف » لما انقذته زينب عندما كسر عامود عجلات سيارته الخلفي.

التفتت « ممره خان » نحو « مولى خان » بتساؤل. أومأت الاخرى برأسها وهمهمت:

- نعم... « مولى خان »... « مولى خان ».

10

نهضت الحفيـدة الكبرى « منـور » وهـي تقـول لـ « يـاسـمين » الحفيـدة الصغرى:

ـ ياسمين... تعالي معي... اعتقد ان « حسين » قد استيقظ... انه يبكي... هيا معي.

امسكت كل منهما بيد الاخرى. قالت « ياسمين » وهي تلتفت قبل ان تخرج:

ـ عميمة... لا تبدئي الحكاية حتى نعود... آه؟ ارجوك.

كان صراخ الطفل ينبعث عالياً يتردد صداه في سكون الليل. عادتا بسرعة مع الطفل ورضاعته مملوءة بالحليب. اندست ياسمين وسط الحلقة وعادت تلح:

ـ هيا... عميمة... احكي...

سحبت لطيفة غطاء الرأس الى الوراء.

تضاحكت « يسرى » وهي تضع يـدهـا على فمهـا لتكبـت الضحكـة، همست:

ـ عدنا الى حكايا « زينب » التي لا تنضب...

اخذت الشعيرات التي انسلت من بين الاضمومة الى خلف اذنيها، ثم

اعادت وضع الغطاء حول وجهها بتؤدة. كان وجهها يشي بنشوة كالفضيحة. ترفع حاجبيها بتدلل مثير ويتلامح في عينيها ظل ابتسامة فخورة... تمطقت، وطقطقت عقد اصابعها، ثم داعبت اطراف منديلها الابيض المنسدل بثنيات كبيرة على صدرها وكأنها تداعب وجهاً يرتكي على صدرها المترف العريض. ابتعدت نظراتها خلف الزمان والمكان وهي تقول بصوت عميق:

قالت الابنة الصغرى بسرعة وهي تغالب احاسيس التشوق:

ـ «منور»، الا تستطيعين اسكات «حسين» قليلاً، يا له من بكاء...

دست «منور» الرضاعةفي فمه، اخذ يمتص الحليب بشراهة، تمتمت وهي تستدير بوجهها نحو العمة:

ـ هيا... احكي... لن يزعجنا «حسين» لفترة...

قالت العمة سارحة:

ـ يا للوقت كم يمضي سريعا... انه حقاً غدار... وماكر هذا الذي يقولون عنه... الزمن... ما هو الأمس.. وما هو اليوم.. اليوم، وما هو الغد؟ ما هو بالامس كان ذات يوم مستقبلاً غائباً بين طيات المجهول، مثقلاً بالاماني والاحلام، ثم اصبح الراهن القاسي، وبعدها انطفأ، وتحول... اصبح ما كان، اصبح ظلاً، رجع صدى الزمن الغادر...

كان ذلك قبل ان يقتل «شريف» بزمن... ذهب الى فلسطين... عندما كانت موجودة... محملا البكب بتنكات السمن البلدي والاصواف والجميد وما الى ذلك. وعند عودته يحمل معه اقمشة وشاياً هندياً معطراً وبوابير كاز وبضائع اخرى للمتاجرة. وعندما وصل بين الزرقاء وعمان، كسر العامود الذي يحمل العجلات الخلفية. كان الوقت عصرا، وفي ذلك الزمن كانوا قلة اولئك الذين يملكون مركبات. يتنقل الناس على البغال والدواب. ولذلك كان من العسير ان يلتقي بأحد يملك مركبة يحمله الى البلد ليعود بونش يجر

البكب. وكان يخشى ان اظلمت ان يظهر قطاع الطرق المنتشرين في البراري... يستولون على المركبة وعلى البضاعة بكاملها وما معه من نقود. وان قاوم سوف يلحقونه بالبضاعة... يأخذون روحه. لم يكن معه سلاح، لقد سكر في الليلة قبل عودته باحدى بارات حيفا، وعندما طالبوه بالحساب، بحث في جيوبه فلم يجد محفظة المال، ولكنه وجد مسدسه. اخرجه من الجراب الذي تحت ابطه وبدأ يطلق النار نحو السطح. اتى الدرك بسرعة، جردوه من المسدس وصادروه، ونام ليلته في النظارة.

ولهذا عاد دون ان يكون معه سلاح. وعلى الطريق بعيداً عن المناطق المأهولة لم يكن له ليأمل بمرور احد. زحف كتمساح ظمآن تحت البكب، ولكن لم يكن ليفعل شيئاً، فالخراب فادح ولن يقوى على اصلاحه. بعد بعض من ساعة ستميل الشمس الى المغيب. اسقط في يده واجتاحه اليأس كزوبعة رملية. نادى، صرخ، علَّ ان يسمعه احد... ولكن صوته ضاع، ورددت الجهات الاربع صدى صراخه اليائس.

ضم قبضتيه الى صدره وصرخ بكل ما في قلبه من يأس وفزع:

- زينب... زينب... زينب... اغيثيني، اغيثي ابنك شريف... والا هلك... ليس لي إلاَّك... ز... ي... ن... ب.

فجأة هبت ريح قوية وظهرت زوبعة غبراء، تدور وتدور، وتدور في الافق البعيد. تشيل في داخلها الاوراق والتراب وكل ما يمكن ان يكون ملقى على الارض، ثم همدت فجأة كما ظهرت... وفي المكان الذي تلاشت فيه. ظهر زوال ابيض، اخذ يتحرك خفيفاً حتى وازاه. سمع صوت «زينب» الجهوري ينادي بقوته المعهودة وصرامته:

- شريف... هيه يا شريف... اسمعني جيداً... تحت المقعد في المركبة بجانبك يوجد حبل... اربط الكسر وتوكل... هيا.

اسرع «شريف» الى السيارة. وجد الحبل كما قالت زينب. اخذه وربط الكسر كما قالت ثم عاد وجلس خلف المقود، ادار المفتاح، كان ينظر بطرف عينه نحو الزوال مستغيثاً، نصفه يتشبث بأمل عنكبوت مهرج يتقافز على خيطه الواهي المعلق بورقة شجرة، ونصفه الآخر يعلن لا جدوى محاولته الخرقاء... ولكن العنكبوت المهرج ظل يتقافز بين الخيوط الواهية يتحلب لعابه الصمغي متأهباً اذا ما انقطع الخيط ليرقعه بسرعة ويحمل البهلوان.

هدرت السيارة، ضغط البنزين بحذر، همرت، تدحرجت ببطء مرتجة ولكن لم تلبث ان استقامت وهي تسير هينة، وهو غير مصدق، وكان يهتف من اعماق قلبه:

- زينب... رحماك... ابقي بجانبي... هي قوتك الخفية اطلقتها تدفعني، حتى وانت في العالم الآخر... فلا تغفلي عن ابنك في محنته.

كان يسوق البكب وهو غير مصدق، وزوال زينب بملابسها البيضاء المرفرفة كالاجنحة الى الخلف، تتحرك عند خط الافق. وظل «شريف» يسوق البكب بحذر حتى وصل اطراف المنطقة المأهولة، عندها اختفت زينب خلف الافق، وتوقف البكب. وبعد لحظة كانت شاحنة تمر بجانبه. استوقفها ورجا السائق ان يوصله الى اقرب نقطة مخفر ليطلب ونشاً.

قالت الابنة الكبرى وكأنها تستيقظ من حلم مدهش:

- منور... الا تستطيعين اسكات حسين... بكاؤه يهطل علينا بكآبة لا تنقصنا...

قالت منور بلهوجة:

- رفقك بي... ربما يحتاج الى تغيير الفوطة... اعتقد انه مبلل تماماً.

اخرجت من حقيبة واسعة احدى الفوط الجاهزة وبودرة ومنديل طبي مبلول بماء الكولونيا تنبعث منه رائحة منعشة فواحة.. ولكنه لم يتوقف عن

البكاء. اخرجت علبة صغيرة بلاستيكية بيضاء في اعلاها حلقة عظمية صغيرة، سحبتها، اخرجت «مصاصة»... دستها في فم الطفل، واخذت تهزه بين ذراعيها ولكنه زاد في بكائه باصرار.

هتفت «مسره خان» بتشنج:

ـ باباج، هل هو «حسن» الذي يبكي؟.

طرق الارض بطرف عصاه طرقات خفيفة ايقاعية بتهديد رقيق، وقال كأنما يلفظ صوته من مكان ضائع:

ـ لا... انه «حسين» حفيد ابنتك الكبرى...

قالت بتوسل:

ـ ولكنه لا يكف عن العويل... ذلك يحزنني...

نظرت برجاء اخرس نحو «مولى خان»، هزت الاخرى رأسها بحزم وهي تقول بخفوت:

ـ ذلك ليس من شأننا... ذلك من شؤون الجانب الآخر... ولكن لا تجزعي، هناك من تستطيع أن تعنى بالامر.

قالت بخوف:

ـ ولكنه سيوقظ «حسن»... فكيف ابقى بين بَكّائين؟.

اجابت مولى خان باطمئنان:

ـ نعم سوف يستيقظ... ولكن ليس بسبب ذلك...

افترت شفتاها عن ابتسامة صغيرة متواطئة وهي تختطف نظرات ماكرة سريعة متبادلة مع بكمرزا كوندوقة.

نظرت اليهما كدبور هائج، فحت:

ـ اعرف... اعرف علام تتخابثان... ولكن لن تحصلا على ذلك... ها انتما تقيمان مهرجاناً احتفالياً.. ولكن هيهات ان اخدع باحتفالاتكم الباردة... لن انساق لعواطفكم الخاوية وامشي معكم... اعرف... اعرف... سوف تتخلون عني وتتركوني اواجه صقيع القبر المظلم وحدي... ستتركوني وانتم تخبئون ابتساماتكم الشامتة باكمامكم وانا اسقط بين مخالب ناكر ونكير... ملاكي القبر القاسيين.

غمز باباج «مولى خان» مداعباً وهو يقول متخابثاً:

ـ لا تخشي ذلك، ولكن... كلنا مررنا بتلك الحفلة... سيكون الخطيب قريباً ومن فوق «يلقنك»...

صرخت باهتياج:

ـ الخطيب... الخطيب... ويفصلني عن صوته المرتجف المنافق طبقات من الركام الاسود... كيف اتنفس... من اين اجد الهواء... وهم لا يتركون ثقباً دون ان يحشوه بالتراب... وهذا البكّاء يزعجني بأنينه... مما يخاف؟... انه ما يزال بعيداً عن انياب ملائكة القبر... لا بل عفاريت القبر.

قال «نارت» هامساً وهو يلتفت حواليه حتى لا يسمعه كبار السن:

ـ لا عليك «ناشخوه»... سأتسلل انا الى جانبك هناك... لقد اجتزت ذلك الخوف... ولم يعد يعني لي شيئاً... ستكون فرصة، لنتلامس بجسدينا... لم ننعم بمثل هذه المتعة هناك ابداً... وهؤلاء الاوباش لن يتركونا بعد ذلك... ستكون فرصة طيبة...

كانت عيناه البندقيتان تتحركان، وانسلت خصلة شعر بنية على جبينه، وتوامضت نظراته بمكر...

استرخت بين الوسائد وهي تستسلم لنظرة الشوق في عينيه برجفة خفيفة.

ـ هاتيه يا منور...

قالت لطيفة ذلك وهي تمد يديها المكتنزتين فتتصادم الاساور الذهبية الرقيقة بخشخشة ذات رنين. تأخذ الطفل من بين يدي امه وتضعه في حجرها الوسيع، تهزه وتهدهده، بينما يزداد بكاؤه:

ـ ايها الشقي الصغير، ماذا تريد؟... لم كل هذا البكاء؟...

حرك يديه في وجهها وهو يزعق، واستمرت هي بهدهدتها على وتيرة صوتية واحدة بينما اصابعها تفك لصاقات الفوطة:

ـ ها... هل تزعجك هذه؟... تريد ان تُهوّي خصيتيك اليس كذلك؟. تريد ان تخرق الفضاء بجهامتك... اعرفك.. تخرم الهواء ببولك... اليس كذلك؟. يا عفريتي الصغير... لن اجعلك تضحك عليّ.

وعندما تحرر من ضغط الفوطة اندفع خيط من الماء يطرطش وجهها من بين فخذيه. هسهست متوددة:

ـ ها... فعلتها يا شقي... افسدت وضوئي... ولكن، هل يا ترى بول رضيع طاهر كالملاك يفسد الوضوء... لا اعرف... هل يمكن ان تنطوي احشاؤه على نجاسه؟ ...

مسحت «منور» وجه العمة، الذي يشبه رغيف خبز طابون ساخن، بالمنديل المعطر لكن «حسين» لم يتوقف عن البكاء.

غطته لطيفة بحرام خفيف.

ماءت القطط في الخارج. لم تعبأ العمة بموائها واستمرت تهدهد الطفل:

ـ حسناً... هل تريد ان اروي لك حكاية من حكايات الجدة «زينب»؟... لا بأس، لنروِ حكاية البطلة «لاشين». لقد حملتها معها «زينب» من هناك...

التفتت «مسره خان» بجدة نحو «مولى خان» وفي عينيها ذات التساؤل. همهمت به شفتاها بخفوت وكأنها تخشى ان توقظ احداً ما نائم:

- زينب؟

همهست «مولى خان» وهي تحرك رأسها باذعان:

- ايوه...ايوه...مولى خان.. ايوه مولى خان..

كانت زينب تمتعنا بتلك الحكايا التي خبأتها بجراب في حزامها، تخرجه من بين طيات الماضي الذي تقطعت خيوطه الممتدة بلا نهاية، بانقطاع اولئك الناس عن تربة ذاك الوطن الذي كان ترابه يحتضن شرانق تلك الحكايا، كأجنة حميمة في رحمه، تتوهج جمراً في ليالي شتائها الطويل...

- في تلك الازمان القديمة كان من عادة تلك الشعوب اقامة مهرجانات سنوية للمصارعة يلتقي فيها ابطال الفرق الوافدة التي انتصرت في السنة الماضية على المقاطعات يتنازل فيها الابطال. ولكن شروط المنازلة كانت قاسية... فالبطل القادم اذا لم يوقفه احد الابطال عند حده، يتحول الى غازٍ يفرض الخوة، ويطلق رجاله وحاشيته ينهبون ويسلبون افضل واثمن ما يملكه سكان القرية المهزومة.

لقد تعرضت تلك القرية، وقرى اخرى مجاورة لهزيمة نكراء على يدي بطل احد الفرق التترية، ولبضع سنوات متتالية لم يستطع اي بطل ان يواجه ذلك التتري، وهكذا تحول عيد المصارعة ذاك الى كابوس استبد بأهل القرية وتحول الى نوع من الاحتلال، فكان المصارع التتاري يأتي في موعده الى المنطقة، وفي ايام الاحتفال يقف في الحلبة المعدة لاقامة المهرجان يدور هادراً متحدياً وهو يجعر متفاخراً وقد نفخ صدره الاشعر المكشوف كديك رومي يتباهى بزوائده الحمراء تنهدل على عنقه، ينافخ

وينافخ ضارباً الارض بأجنحته المنفوشة يحف بها التراب دوائر متداخلة، بكبرياء. وكان يقتل من يقتل، ويكسر أضلاع من يكسر، ويخلع اكتاف آخرين... ولا يجرؤ على منازلته احد إلا ويسحق له عضو أو أكثر في جسمه، اذا لم يسحق شعلة الحياة التي تضيء جسده... وبعدها ينهب رجاله ممتلكات السكان ويأخذون الخوة التي يحددها التتاري المنتصر.

كان اقتراب ذاك العيد يعتبر كابوساً يدفع بهم بخطواته الضاجة الساحقة نحو قدرهم المشؤوم... قبل بضعة اشهر من يوم الاحتفال تسود الوجوه وتضيق الصدور ويتشاجر الكل مع الكل وهم يصرخون:

ـ الا يوجد عرص واحد على وجه هذه الدنيا العاهرة يستطيع ان يوقف هذا الوحش المنفلت علينا المتسلط على قدرنا عند حده...

و... ك... ا... ن...، لنقل مثلاً «مامروقة»... احد سكان تلك القرية القدرية مهموماً وقد ضاق ذرعاً بهذا الكابوس، ينزل الى الحوش مع مصابيح الفجر، يتفكر اذ لم يبق لوصول الوحش سوى بضعة ايام.

كان يقف في طرف الحوش مستنداً الى جذع شجرة جوز هائلة، ينظر الى قطعان البقر والجاموس والغنم والخيول الاصيلة التي سيعيث رجال المارد الدموي فيها فساداً... سينتقي افضل الاصائل من الخيل وبالعدد الذي يريد، ويستولي على الامهات الطافحات بالخصب والحليب من الجواميس والبقر والخراف وأسمن العجول... ويصادر ما يشاء من مخازن الغلال والحبوب والصوف والمؤن..

كان يعض اطراف شاربيه الاشيبين بغيظ اخرس عندما هبطت كنته التي لم يمض على زواجها سوى بضعة اشهر... كانت غضة ميساء كغصن ريحان، تمشي بخفة غزال وكأنها تطير، وكانت تحمل دلوين ضخمتين. اقتربت من الابقار التي خرجت نحوها من الاسطبل عندما شاهدتها،

تحـت الضروع الممتلئة المتدلية، ثم قرفصت بعد ان وضعت الدلو بين ارجل جاموسة ضخمة، وضج شخير الحليب الشاخب في اذنيه:

ـ اللهم ساعدنا يا رب السموات لنمحق هذه البلوى القادمة نحونا...

ابتسم بغم وهو ينظر الى العجل العنيد الذي لا يني يدس بوزه بين ارجل امه محاولاً التقاط الضرع المثقل، يناكد «لاشين» ويناكفها بعناد. هشته مرة، وهشته ثانية... دفعته ثالثة... ولكنه ظل يركض هنا وهناك متمايلا ثم يدس رأسه بين قوائم الام. صرخت بنفاد صبر وهي مقرفصة عند قوائم الجاموسة الممتلئة خيراً، وكانت غير منتبهة لوجود حماها يراقبها بعين الرضا والحسرة عن كثب:

ـ اغرب عن وجهي يا ابن الزنا...

وامسكت العجل السمين اللحوح من قائمتيه الخلفيتين والاماميتين ثم قذفت به خارج سور الحوش الذي لا يستطيع الخيال ان يرى من خلفه، وهي ما زالت مقرفصة على قدميها... بل فعلت ذلك وكأنها ترمي بخرقة بالية من يدها جانباً.

ذهل «الحمو» وهو يرى الكنة تحلب البقرة مرتاحة دون ان يزعجها ذلك العجل اللحوح.

تسلل الى غرفته بهدوء... زوجته تصلي بعد ان وضعت بضع حطبات في الموقد، الفصل بدايات الربيع، وما زال الطقس يحمل بقايا صقيع الشتاء... تربع على جاعد كبير بشعر ابيض طويل مالس كالحرير، قريباً من الموقد. الفصل ربيع، ومع ان الشمس تضيء متلألئة الا ان هناك برودة تجمد الاطراف، خصوصاً في الصباحات الباكرة. كان يجلس منفرج الاسارير، كقطة امسكت فأراً، يعبث بازرار قميصه كطفل مبلول شقي يلعب في بوله... انهت الزوجة صلاتها بسرعة وقد ادركت

ان وراء دخول الزوج بلهوجة صبيانية خرقاء امر ما... وزعت تمتمات دعائية عن يمينها ويسارها بسرعة ثم سحبت طرف الجاعد وغطت به قدميها، وجلست قبالته عند النار تدفىء اصابعها التي تجمدت من ماء الفجر البارد:

ـ ها... ماذا وراءك يا عجوزي؟...

هز رأسه بابتهاج طفولي، واطل الفرح مزغرداً متراقصاً في عينيه ولم يستطع ان يمنع الغبطة تسيل على شفتيه بابتسامة صغيرة لجوجة... قال وهو يسحب طاقيته البيضاء الصغيرة الى الخلف:

ـ لقد انعم الله علينا بالفرج هذه السنة... لقد انعم الله علينا بالفرج... اشمست واتقشع الغيم وأشرقت الشمس بدفئها تنعش عظام الاجداد في القبور... شاهدت مع هذا الفجر المبارك مشهداً اقشعر له بدني من رهبته... لا بد انني شاهدت الهلال الوليد البارحة على وجه مبارك... كنتنا كانت تقرفص عند الجاموسة تحلبها، ضايقها ذلك العجل السمين المهرج وهو ينطنط حول ضرعها يدس رأسه الصغير الفارغ بين قوائم الجاموسة يحاول ان ينتزع حصته من الحليب. ابعدته عدة مرات ولما لم يهدأ امسكته هكذا من قوائمه الاربعة وكأنها تمسك بصوص وقذفت به خارج السور، سور بيتنا الذي تعرفيه جيداً، رمته من مكانها هكذا دون ان تتحرك قيد انملة، فقط تجانبت بجذعها قليلاً، وشالته كأنها تشيل حصاة تافهة ورمته كما ترمي دودة مقرفة، هكذا... تماماً... تكلمي معها عجوزي... اقنعيها لكي تنازل المصارع التتري... انها املنا الوحيد... بدونها سنهلك جميعاً... سيذلنا وينهبنا ذلك الوحش التتري.

ـ ولكن ان هرسها بزنديه الحديديين... ان وسطها لا يزيد عن ثلاثة

اشبار يا عجوزي، ما الذي تقوله! سيقصعها كأنما قملة... قملة حلوة ناعمة...

ـ كفاك هذراً ختيارة... اقول لك رأيتها بعيني، عيناي هاته التي سيأكلها الدود يوماً... الا تفهمين... امسكت العجل هكذا... وقذفت به خارج السور، السور نفسه الذي لو قفزت على كتفيك لما طالت اصابعي اطرافه.

ـ اسمعوا ماذا يقول... تقفز على كتفي وانا منتصبة؟... انت لا تستطيع ان تقفز فوقي وانا ممددة على خلفي يا ثوري المسكين... لقد اهترأ عصبك... واهترأ ما بين فخذيك...

ضرب كفاً بكف وقال وكأنه يحدث نفسه قانطاً:

ـ انا الرجل بماذا افكر، وهذه العجوز الخرقاء اين يذهب تفكيرها القذر... قبل عشرين عاماً كانت ترجوني ان اخفف التفكير بهذه القذارة واهتم اكثر بشؤون المعيشة... والآن انظروا ماذا تريد!

قهقة ضاحكاً وهو يميل بجذعه الى الخلف ثم استقام وامسك بيديها وقال يطبطب عليها برفق:

ـ على رسلك يا ختيارتي القذرة... على رسلك... ولكن ما افكر به الآن ان عروسنا الرقيقة «لا شين» تستطيع ان تسحق عظام ذاك المصارع الفولاذي الذي اذلنا بانتصاراته المتكرررة علينا، ونهبه لمخازن غلالنا ومواشينا لسنوات عديدة... هذه السنة سيهزم شر هزيمة... ولن يجرؤ ان يملأ سماءنا بجعيره المتباهي بعد ذلك وهو يطالب بمنازلة المزيد من الشباب، ثم يهدر متباهياً:

ـ هيا... البسوا التنانير ثم انقلبوا على اقفيتكم... هذا ما يليق بكم...

ابن العاهرة ذاك... هيا تكلمي معها اذا رضيت، لابشر مجلس الشيوخ.

وفي اليوم الموعود كان يقف في الحلبة، والسكان متجمهرون حول الباحة الخاصة بالمنازلة. كان يدور ويلف، برأسه الحليق وتلك الجديلة التي في منتصف رأسه تهتز كعرف الديك، وسيور جلديه تحيط زنديه، مباعداً بين قدميه ويديه، نافخاً صدره كشيطان متباه... عندما تقدمت منه «لاشين» في الحلبة مرتدية لباس شاب بخصرها النحيل وقامتها الممشوقة، اختلجت القلوب فزعاً، وقد بدت امام ضخامته كصوص صغير هش سرعان ما يمزقها وينثرها ريشاً تدور متمايلة في الهواء.

دار العملاق التتاري حول «لاشين» الرشيقة التي تبدو قدر قبضة يده وهو يتفتف هائجاً بكلمات ساخرة:

- آه... هل ارضعتك امك جيداً قبل مجيئك ايها الصغير... اليس الاجدى بك ان تحلب ابقار العائلة وتصنع الجبن وتتكوم بعد ذلك في حضن امك... انني اشفق عليك... دمك سيظل عالقاً على يدي، وسيبقى وجهك النضر كوجه فتاة يؤرقني... لا تحملني وزر دمك، وانت فتى جيل غض كعذراء في خدرها... فاذهب يا صبي واسرق البيضة عندما تسقط من مؤخرة الدجاجة تتلقفها بيديك الطريتين من خم الجيران... اذهب يا فتى ذلك اجدى لك من التشبه بالرجال...

لم ترد «لاشين» بأي كلمة...

اقترب منها وهو يحمحم كحصان هائج، وامسك بيده كتف «لاشين» الايسر يهزه... انحبست الانفاس، وهبطت القلوب في اكعاب الاقدام، ولكن الفتى الرقيق كان راسخاً كصخرة... صمت التتاري المقنزح... لف حوله من الجانب الآخر وامسك بكتفه الايمن يهزه، ولكن

خصمه النحيل كان كسنديانة هائلة امتدت جذورها في اعماق التربة فلم يتزحزح.

تراجع متلجلجاً وقد ابتلع لسانه السليط، ولكن الفتى دار حوله مرتين وقال بهدوء:

ـ والآن جاء دوري...

قبض بيسراه على كتفه وهزه.. احس بكلابات تنغرس في تجاويف غضاريفه... وخيل اليه ان ذراعه قد تحول الى رطب تتساقط عن جذع نخلة... وأفلته وابتعد، ثم دار دورتين حوله ممسكاً بكتف التتاري، وعندما هزه احس ان ذراعه قد تحول الى فراشة تطير في الفضاء.

صرخ هلعاً:

ـ لا... لا... استجير بوجه الله... اطلقني... اركع امامك واعلن خضوعي امام جبروت قوتك... وركض خارجاً من الحلبة يتبعه جعيره مخروماً...

ورفع الفتى غطاء الرأس، فانسدل الشعر طويلاً على الكتفين.

وهكذا ارتاحت المنطقة كلها بفضل «لاشين» من تجبر ذلك الوحش... ولقد اعترف القوم بفضلها فاطلقوا اسمها على قريتهم... آه، هكذا يقولون... ذهب بعض الاقارب هناك في المدة الاخيرة. قالوا: لقد بنى سكان القرية مطعماً جيلاً اطلقوا عليه اسم «لاشين» يقدم اشهر المأكولات الشركسية مع «الباخسمة» شراب الشركس التقليدي.

ـ هل ... هل رأيتم... لقد سحرت «لاشين» حسين البكّاء فنام.

تمتمت وهي تحرك يدها بضيق وكأنها تكش ذبابة دبقة ملحاحة... وكانت تنق كضفدع منهك: ـها، نام حسين البكّاء. ولكن البكّاء الأصيل ارتفع جعاره. مولى.. أطعمتِ عيوني، هل اطعمه شيئاً... ربما جائع... اتعبتك مولى... هاتيه، سأرضعه... لا بد انه جاع، جائع للغاية.

وامتدت اصابعها الى صدر الثوب تشده بتشنج.. تبادلت مولى خان نظرة جانبية متواطئة مع بكمرزا.

قالت مولى خان مهمهمة:

ـ حسناً، خذيه... خذيه... ارضعيه...

واحتفظت بالصغير في حجرها تهدهده ثم التفتت نحو انزور وقالت بينما يداها منشغلتان بلملمة الاسمال حول جسد الطفل، تلفه من هنا ينمزق من هناك، تلملمه من جانب ينتسل من جانب آخر دون توقف، وصراخه يعلو ولا يتوقف، «مسره خان» مستوية في جلستها تهز جذعها على الجانبين يميناً وشمالاً وقد اسبلت جفنيها، ويداها ممدوتان امامها، وقد انقبضت عضلات وجهها بتشنج:

ـ خذ... خذ قطعة من الشاش انزور، لف بها قطعة «راحة» هناك اذهب الى المطبخ، على ظهر ذاك الصندوق الابيض الطويل، فاذا ما فتحته يبخ في وجهك هواء مثلج وكأنه يهب من اصقاع نهر الاموات المتجمد... تناول قطعة من سفط الراحة الذي على ظهر ذلك الصندوق المتجمد، ولفّه بقطعة الشاش، لنشغل البكّاء حسن بقطعة راحة، ليهبنا الله قليلا من الراحة... اذا لم تلفها بقطعة قماش سيبتلعها وتعلق في حلقه وتعلق... اسرع... فدتك عيوني أنزور...

منور ترفع كتفيها وتلف يـديها حـول ذراعيهـا متصـالبـة وتهمهس بخفوت:

- اشعر وكأن ريح جليدية تهب علينا وتتحرك في كل مكان.. وقع اقدام، حركات ايدي... ابتسامات تتراشق من هنا وهناك... نظرات ساخرة تمر كالشهب بيننا.

تقول الابنة الوسطى بمكر ودعابة:

- وكأني بها تخشى ان نامت ان تنسل روحها دون أن تدري.. تطبق فكيها وكأنها تخشى أن إرتخنا أن تتـدحـرج آخـر انفـاسهـا كـأسنـان مقلوعة... وزمت ابتسامتها التي تريد ان تتمدد مِلء وجهها... وتطايرت الابتسامات مخبؤة بأكياس صغيرة شفافة كفقاعات، ولكنها كانت تطل برؤوسها بين هبات الهواء الرخي كتنهدات حائرة.

خبأت «مولى خان» ضحكتها في عبها وهمهمت:

- ايه انظري هذا الفجعان الصغير، مزق الشاش وشفط قطعة الراحة التي لففتها به ليشغل فمه بامتصاصها... لقد ابتلعها، هيء...ابتلعها دفعة واحدة... وملأ فمه بالصراخ مرة اخرى... هات «الجشة» انزور.

وجاء انزور بـ «الجشة» الخشبي، يرتكز على قوائمه الأربعة ويصل قوسين خشبيين القوائم من الجانبين، ويرتفع على جسم السرير في الزوايا الأربع مقابض خشبية مستديرة لهز السرير، وعلى خشب الجانبين فتحات عرضية رفيعة يدكك بها «بريم» قماشي يثبت جسم الطفل داخل السرير باستقامة.

وضعت «مولى خان» «حسن» بالسرير، وربطته بالبريم حتى لا يتحرك كثيراً... ولكنه يتلوى وهي تهزه فيتمايل رأسه يميناً وشمالاً، وهو يتلوى كدودة تحاول ان تخرج من شرنقتها.

تك... تك... تك... ويتنغم صراخه مع حركة رأسه وطقطقة اطراف القوسين... تك... تك... تك...

ياسمين مهتاجة:

ـ الا يمكن ايقاف هذه الساعة؟... تكتكاتها غليظة عالية وكأنها طرطقة السرير الخشبي الشركسي للاطفال:

ـ ترك... ترك... ترك... الا يمكن ايقاف هذا الشيء؟...

«مولى خان» تهز السرير بحركة متتابعة رتيبة وتبدو على وجهها تعابير كسولة ناعسة تتماوج في عينيها مع طرطقات القوسين الخشبيين بحركتها الرتيبة. «نارت» يقرفص عند طرف السرير يقابلها وهو يمسك بجافته:

ـ هذا صوت يدعو للنعاس... ولكن البكّاء الصغير مصر على الاستمرار بالعياط... الا تسردي له حكاية اخرى؟...

تهز «مولى خان» رأسها وهي تنظر الى جسم الصغير الذي يلابط بين الفينة والاخرى وفمه مملوء بالعياط. تقول برقة:

ـ حسناً... لا بأس... سأحكي حكاية... اصمت انت.. سأحكي...

ارتفع صوتها الرخيم الهادىء، عيناها تتسللان الى اعماق صندوق الزمن تستعرض ما بداخله.

ـ حسناً... حسناً... اصمت قليلاً يا بكَّاء... سأروي لك حكاية «زوجالا»...

(منذ ان كان هابيل وقابيل كان الغدر والخيانة، وكان الصدق والوفاء... كانت الخسة والجبن... وكانت الشجاعة والفروسية... ومع نزول آدم وحواء من الجنة الى الارض نزل معهما الخير، ونزل الشر... وهكذا كان في اقدم الازمان، صديقان منذ الطفولة، نشأ معاً وتلازما وتآخيا... فقضيا طفولتهما يلعبان يتعاركان، يتصارعان... يتدربان على ركوب الخيل والعاب الفروسية وضرب السيف... يتبارزان على اطراف البرنس الصوفي المستدير ال«شاكوه» مفروداً على الارض كما هي تقاليد المبارزة... يتسابقان على الجري، على القفز... على الوقوف على ظهر الخيل في رماحها الهين اثناء الصباحات الشتوية والاماسي الصيفية... وكانا معاً يقفان للخدمة في مجالس الكبار كما هي العادة السائدة، وعندما نبت الشعر على وجهيهما خرجا معاً مع الفرسان في رحلات الصيد الطويلة، وهكذا اصبحا من فرسان المقاطعة التي يعيشان فيها... راقصان رشيقان في حفلات الرقص التقليدية... وفارسان يجيدان حمل السيف واستعماله، وركوب الخيل، يشاركان رحلات الغزو والصيد مع باقي الفرسان.

وكانا محبوبين بين الكبار ومن الصغار...

وفي ذات يوم شتوي، كانا يتسابقان طراداً على حصانيهما، الاشقر والاسود، التقيا بباقة من فتيات المقاطعة يحملن الاباريق القصديرية المطرقة باعناقها الطويلة الدقيقة كالاوزات ويتدافعن ضاحكات الى نبعة الماء لملئها.

ترجل الصديقان، وامسكا بعنان فرسيهما وهما يمشيان قليلاً على طرف الطريق المشقوق بين اشجار الصنوبر الباسقة المقشعرة، مفسحين المجال

لمرور الفتيات.

والتقت نظرات احد الفارسين المسترقة بنظرات «الضيفة» الخجلى... فخفقت في حناياه فراشة نزقة، ورفت على ركني شفتيها الورديتين... وغابت الباقة خلف سيقان الاشجار الضخمة، ومعها رنين الضحكات وحفيف الاثواب الطويلة بحوافيها الواسعة الموشاة بخيطان الذهب او الفضة... وبقي عطر الانفاس الانثوية تخرم اجواء الغابة الناعسة.

تطلع الصديقان احدهما نحو الآخر وهما يعتليان فرسيهما، وغمز الثاني الاول الذي تراشق النظرات المختلسة مع الضيفة، وقال وهو ينطلق من جانب صديقه:

- ها!. اظن ان الليلة ستكون حارة اليس كذلك؟.

ابتسم الاول بغموض وهو يستقيم على ظهر فرسه الشقراء، ثم همزها في خاصرتها فانطلقت تحاذي السوداء ثم تتجاوزها وصرخَ بمرح وهو يشق هواء الصباح بصدره القوي:

- اعتقد ان الضيفة الجميلة تستاهل ان نضيء لها ليل قريتنا الصغير.

في تلك الليلة تجمع الشباب خارج سور بيت المضيف العالي. كانت الخيول المربوطة من اعنتها عند الاشجار تحمحم، ترفع آذانها الصغيرة مستوفزة وتمايل اذيالها الطويلة فتفوح رائحة انفاسها وعرقها وروثها قوية نفاذة، فيمتلىء المكان بعبق من الحيوية والقوة.

وفاحت من البيت الكبير رائحة قلي «الحلفة» والقاورمة، وبين الفينة والفينة كان ينطلق احد الصبية من الباب وفي يده وعاء يحتوي على قطع «الحلفة» الساخنة محاطة بهالة من البخار، وطاس يحتوي على شراب ذي لون عسلي تنطلق منه رائحة حضية نخرة: انها «الباخسمة» شراب الشركس البيتي القوي، وينسل الصبي الى احد الشباب ويوشوش في اذنه

ببضعة كلمات، فتفرقع ضحكات الشباب كالالعاب النارية تملأ سماء القرية ضياء وضجيجاً... بينما الشاب يمسك الطاس والصحن بين يديه ويوشوش الصبي الذي يهز رأسه مبتسماً ثم يرفع الشاب الطاس ويلقي نخباً حاراً سريعاً، ويُقَرب الطاس من فمه ويعب طويلاً ثم يقدمها للذي يليه وهو يمسح فمه وشاربيه بظاهر يده، ويأخذ فطيرة من الصحن وهو ينحني على الصبي ويتمتم غامزاً ضاحكاً ببعض الكلام لينقله الى الفتاة التي ارسلت الزاد، ويقضم قضمة كبيرة من الفطيرة الساخنة، ويدعو بكثرة الزاد ونيل المراد ودوام العافية وطول العمر لها ولاهل الدار، بتلذذ مبالغ فيه، ثم يدير ما في الصحن على باقي الاصحاب كما فعل بطاس «الباخسمة»، ويكون الطاس قد دار دورته وعاد له فارغاً فيضعه في الصحن الفاضي ويعطيهما للصبي والشباب يدعون لها بالفرحة ولأهل الدار بالعافية.

وبعد فترة خرج ابن المضيف، بملامح وجه تتري، تفتر شفتاه الممتلئتان عن ابتسامة متخابثة، وعيناه الضيقتان تتوامضان بمكر، وكان يحمل الطاس في يمينه ووعاء الحلقة في شماله... وانطلقت الهمسات المتسائلة بدعابة:

- انها ضيفتنا، فمن المحظوظ الذي اختارته...

واخذ الشباب ينادونه:

- انا هنا... اعرف انها ارسلت لي الزاد والشراب... عندما وقفت بباب الدار غمزتها... فابتسمت لي بحياء...

- لا... لا... انه انا... كانت مع فتياتنا يتلقطن الجوز والبندق من الغابة فشاورت لها بيدي فارخت اجفانها بخفر.

- آه... آه... لا بد انه انا... عندما كن يملأن اباريقهن من ماء العين اخذت منها ابريق الماء وملأته لها وقلت: سآتي بقفص ذهبي

للعصفور الذهبي قبل ان يطير مبتعداً عن ديرتنا... خفضت رأسها خفراً وتوردت وجنتاها...

- اوه... هل نسيتني يا صغيري؟... انه انا... لا تدع الكلمات تخفي الحقائق...

ولكن الصبي تفلت من بين مجموعات الشباب وهو يبحث بعينيه الوضاءتين هنا وهناك... وكان الصديقان يجلسان مع مجموعة من الشباب تحت شجرة بلوط كبيرة، واضواء المشاعل المبثوثة على السور تلقي باظلالها الحمراء المرتعشة على الوجوه الممتلئة بالحيوية والشباب.

وومضت عينا الفتى عندما وقع نظره على الصديقين في مكمنهما تحت الشجرة، فتقدم بثبات نحو... فلنقل ان اسمه «خوست» الذي وقف يستقبل الفتى، انحنى يستمع منه، وامتلأ وجهه بضحكة تحمل الامل، والرغبة المتجمرة في اعماقه توهجت في عينيه وهو يتناول الطاس ويعب طويلاً، وقد ارخى اجفانه يراوغ الشوق المتفلت منهما، والشباب يتصايحون:

- ايه... خوست ايها الطيب، نحن اصدقاؤك... لا تبخل علينا بشفة «باخسمة»...

واخيراً توقف وابعد الطاس عن شفتيه وهو ينفخ ناراً من صدره. ونظر الى السائل العسلي فرأى وجهها وردة تسبح على وجه السائل، وأحس بها فراشه وردية تخفق بجناحيها بين ضلوعه.

ابتسم. وانطبقت اسنانه القوية البيضاء على بعضها بقوة، ارتفعت يده اليسرى الى فمه، أحس بخفق أجنحة الفراشة على شفتيه، وتحت ظاهر يده. خفق قلبه بشدة ومسح فمه ببطء، ثم مد الطاس بيمناه نحو صديقه. كان مكفهراً، وتخايلت ابتسامة صفراء على ركني فمه... لم ينتبه له

« خوست ». كانت الوردة المتفتحة تغمزه ضاحكة. احس بوخز شديد في صدره وارتعاش، واستطاع في اللحظة الاخيرة ان يقضم آهة حرّى انفلتت من صدره.

امتلأ الحوش الكبير بالشباب والتفوا بدائرة كبير تحت اضواء المشاعل، وامتدت اعناق الخيل الى المذاود التي طفحت بالتبن. ثم خرجت الفتيات في صف متتالي واخذن اماكنهن في صدر الدائرة. وحمل ابن المضيف التتري الوجه مقعداً خشبياً مزركشاً ثلاثي الارجل. رفعت « البشناوة » ـ العازفة ـ قدمها الصغيرة الانيقة على طرفها، وكانت ابنة المضيف تحمل مفرشاً ابيض مطرز الحواشي بورود ملونة، على ركبة « البشناوة » التي رفعت اشرطة الاوكورديون الكبير المصدف على كتفيها وركنت طرفه على فخذها... تاهت ابتسامة حائرة بين ركني شفتيها وعينيها الواسعتين.. بدأت اصابعها تداعب ازرار الآلة المصدفة، وكانت نظراتها تنطلق بعيداً بين الخيوط القاتمة المتدلية لليلة صيف رائعة... ثم انطلقت انغام « الزفكوه » حالمة متشوقة تحلق في الاجواء منتشية... ونزل « الحاتيكاقوه » ـ منظم الحفلة ـ وهو اقرب الاصدقاء للعائلة، ودار في الحلبة دورتين وقد انطلقت الأكف بالتصفيق الايقاعي يصاحب اللحن المحلق... وعند منتصف الدورة الثانية خرجت ابنة المضيف التي كانت الاولى في صف الفتيات ليفتتحا الرقص.

تطايرت اطراف الثوب المطرز بخيوط فضية وهي تدور، وخفقت اطراف الاكمام الواسعة ترف كأجنحة حمام، وهفهف الشال الشفافِ المثبت على قبعة صغيرة سوداء موشاة بتطاريز من خيوط الفضة تلبسها على رأسها مائلة على جانبٍ من جبهتها... ودارت دورة كاملة والشاب بجانبها الى الخلف قليلاً يده القوية ممتدة قريباً من كتفها دون ان

تلامسها، والقامة معلقة في منتصف خصره تميل باتجاه الفخذ الشمالي... والكلبك الاسود يظلل حاجبيه مائلا نحو الاذن اليسرى.

دارا هكذا دورة ثم وقفا متقابلين وحلقا بخطوات خفيفة راقصة متهادية.

وبعد ذلك رقص الكبار بالسن قليلاً ثم انسحبوا الى المضافة حيث مدت لهم المائدة مليئة باوعية «الحلفة» ودارت طاسة «الباخسمة» وبدأوا يغنون «الملاحم الشركسية والمراثي»، واستمرت الحفلة بين الشباب في الحوش.

وعندما جاء دور الضيفة اوعزت المضيفة الى المشرف ان يطلب «خوست» لمراقصتها.

غيرت «البشناوة» لحن «الزفاكوه» وبدأت بعزف رقصة «الششن» سريعة مزغردة تتطلب القدرة على الطيران والتحليق.

أمسك المنظم بيد «خوست» الفرح المتباهي ومشى بخطوات قوية واثقة وعيناه تصبان الشوق في اعماق عينيها.

تدافع بعض الشباب يحاولون الاستيلاء على الرقصة مع الضيفة، ولكن «خوست» اخذ دوره في داخل حلبة الرقص.

ثار ضجيج حاد وهمهمات عالية مختلفة بين الشباب الذين اندفعوا بحماس الى الحلبة بينما انغام الاكورديون استمرت مزغردة. توامض غضب خفي في العيون... اشار المشرف الى الشباب بلطف وهو يستحثهم :

ـ الليل في أوله و «الجاكوه»[1] لم يكد يبتدىء بعد...

نزلت الضيفة متهادية، وانطلق «خوست» مزوبعاً بنشوة وهو يدور

---

(١) حفلة الرقص.

سريعاً رشيقاً، يلتقط النجيمات وينثرها كوعل مهتاج حول الضيفة، وهو يقفز منطلقاً حتى السماء السابعة ويخرم الفضاء حولها بأنفاسه الحارة، حائلاً بينها وبين الوصول الى مكان انطلاقها حتى لا تنتهي الرقصة. وعندما بدأ التعب يظهر على التفافاته السريعة وافسح لها المجال لتنهي الرقصة، ومضت عيناها بوميض عابث، ماكر، وابتسمت الضيفة متحدية وهي تدفع رأسها عالياً تطاول النجوم، مغناجة متدللة، واستمرت في تحليقها وسط حلقة الرقص... التهبت الاكف تشعل الايقاع السريع المتدفق... وانطلقت الحناجر بتشفي:

ـ ايوه... ايوه... عصفورتنا الضيفة.. انهكيه... اجعليه يركع على ركبته متوسلاً لتنهي الرقصة... لقد تمرجل كثيراً في البداية... علميه... ان الرجولة الحقة في القدرة على الصمود حتى النهاية، وليس الانتفاش زهواً مثل الطاووس لبعض الوقت... ايوه، هكذا...

بدأ يفقد احساسه باصابع قدميه المرتكز عليها في كل الرقصة.. هل تضعف وتنفصل عن باقي جسمه منهكة؟... لا ... لن يكون ذلك... الموت أهون... ولكن ليأخذ دورتين على القدمين بالكامل، سيعيد ذلك له توازنه، ويرتاح قليلاً، ويلتقط بعض انفاسه... نعم... لن يرقص على اطراف اصابعه الا عند الإلتفافات السريعة التي تحتاج الى تحليق، وعند القفزات العالية... اما الدوران العادي فليقم به على القدمين، لن يضعف ذلك براعته بالرقص.

وعندما هبط على قدميه التهبت أكف اصدقائه مشجعة صاخبة مهتاجة، وصاحبوا التصفيق بنوع من الصفير الايقاعي، وارتفعت اصواتهم مشجعة:

ـ ها... لقد هبط ابن الوعل على كعبيه... انه مستعد ان يحوم حتى

الصباح... سيكون قادراً ان يقفز حتى يخرق برأسه السماء، ويجدل لك يا «سمكتنا الذهبية» من خيوط القمر شالاً، ويكمش حفنة من النجوم وينثرها ازرارا لإزارك.. انه حصان حقيقي يا ضيفتنا الحلوة... ولكن حذاري، لن يسمح لاصابع غير اصابعه ان تفك ازرار الإزار.

مد ذراعيه كجناحي نسر، واطل عليها بعينيه الصقريتين ينطلق منهما لهيب الرغبة... احس انه يطير.

سال العرق غزيراً على وجهيهما، والنغم الحار المزغرد يشق اجواء الليل الساكنة يهيجه.

لف «منظم الحفل» حول الضيفة يرجوها بصوت خافت وهو يصفق مع الايقاع وكأنه يشجع الرقصة:

- ارجوك... بحق الاله، ارحمي نفسك وارحميه... انه قادر ان يستمر هكذا حتى طلوع الفجر.

توقفت اخيراً منهية الرقصة، انحنى لها شاكراً... علت صرخات الاستحسان والتشجيع لكليهما... توقفت «البشناوة» قليلاً عن العزف. كانت تبتسم منتشية، رفعت قدمها اليمنى عن الكرسي وارخت اشرطة الاكورديون الجلدية عن كتفيها ووقفت مسترخية قليلاً...

تسلل الشباب فرادى الى غرفة جانبية، عبوا من طاسات «الباخسمة» التي قدمت لهم بعيداً عن اعين الكبار والتهموا ما استطاعوا من فطائر «الحلقة» ثم عادوا الى حلبة الرقص وقد توهجت عيونهم وازدادوا ابتهاجاً... كان راقصان يتمايلان متقابلين برقصة «حشت»... انتصف الليل... وتغامزت النجوم تراقب الراقصين بفضول وابتهاج وببعض من سخرية وشيء من الحسد.

وعندما تلاعبت اصابع «البشناوة» الماكرة برقصة «الوج» الحالمة تدافع ثلاثة من الشباب يطلبون رقصة الضيفة.

تقدم «خوست» بخطوات هينة بطيئة وهو يحاصرها بنظراته المشتعلة، نظرت الى الثلاثة مترددة بتخابث حتى اقترب «خوست» بابتسامته الواثقة... مد يده الكبيرة القوية، انطوت يدها الصغيرة الرقيقة في كفه كزغلول يفيء تحت جناح امه... تلامس مرفقاهما مراراً اثناء الدوران بالخطوات السريعة الجانبية، وكان الشوق ينبوعين يتدفقان من عينيه ليصبا في اعماق عينيها.

لم ترجع «الضيفة» الى قريتها...

عاشت سعيدة مع «خوست» وانجبت منه ولدان وبنت، وكان صديقه، صديق العائلة الصدوق... وتلازم الصديقان كعهدهما يتسابقان على الفرسين يشاركان العاب الفروسية، ومعاً في مجالس الرجال وفي رحلات الصيد... وتعاملت معه الزوجة كأخ لزوجها فاطلقت عليه ـ على عادة العروس التي تطلق اسماء محببة على أفراد العائلة ـ اسماً معتبرة اياه اخاً للزوج.

وفي احد الايام طلب منها «خست» ان تحضر زاداً له ولرحلة الصيد المعهودة... وقال انه سيغيب مالا يقل عن خمسة عشر يوماً.

سألت وهي تحس بهاجس يجتاحها:

ـ أمن الضروري ان تذهب غداً؟

قال مداعباً:

ـ هل انت قلقة؟... ولماذا؟... انها المرة الاولى التي اراك بهذا التجهم؟...

قالت وهي تتحاشى نظراته:

ـ احس بشبح جليدي يحوم حولك... لا اريد ان تذهب... اسألك بحق الاله ان لا تذهب... اشعر بالخوف... خوف بارد مبهم يتحرك في جوفي.

قهقهة مسروراً لاحساسه بقلقها وجزعها:

ـ قد يكون طفلاً شقياً اذا كنت تحسين بشيء يتحرك في جوفك...

ازداد تجهمها وقالت باحتداد:

ـ لا تسخر... هل انت ذاهب مع رجال القرية ام انتما وحدكما فقط؟...

قال باندهاش وتأكيد:

ـ طبعاً مع صديقي... نحن نفضل ان نكون وحدنا... اننا نتوغل في اعماق الغابة، دون ان نتقيد كثيراً بتعليمات المجموعة للأمان... انت تعرفين، اننا نفعل ذلك في اغلب الاحيان... قلما نخرج مع رجال القرية...

ابتلعت كل الكلمات التي تدفقت الى فمها... تدرك لا جدوى ذلك... احست بثقل في جوفها وقلبها يكاد يتفتت ويهبط الى كعبيها.

امضت الليل وهي تحضر ما يحتاجه الرجلين، ومع الفجر كان زوجها متهيئاً على فرسه ينتظر، صهل حصان الصديق خارج سور البيت، فانطلق... وظلت تستمع الى ايقاع حوافر الحصانين الى ان تلاشى.

في اليوم الثالث استيقظ «خوست» مع بزوغ الشمس ليجد صديقه واقفاً على بعد خطوات منه، كان متهيئاً ويحمل في يده غدارته وعلى وجهه ارتسم تعبير شيطاني... نظر اليه مندهشاً وقال مداعباً:

ـ ما بالك تقف فوق رأسي وكأنك ملاك الموت حاملاً منجله.

قال الآخر متمهلاً:

ـ هو ذا يا صديقي... انت مائت بعد لحظات.

بحث بيديه على جانبيه وهو يعتقد ان في الامر دعابة ما، ولكنه لم يجد أيّاً من اسلحته، نظر الى وجه صديقه الشيطاني بتمعن وادرك ان الامر قد انتهى... انه اعزل...كان الامر مباغتاً لا يصدق... ولكن الواقع كان يغمز له بعينه الماكرة، قال مذهولاً:

ـ ولكن، يا صديقي... هل انت بعقلك ام جننت؟... هل امتص «الود»[1] من دمك؟... ما الذي تريد ان تفعله؟... ولماذا؟...

اجاب بهدوء:

ـ لا شيء يا صديقي... عقلي في رأسي ولم يفارق موضعه ابداً... احمل هذه الفأس.

وقذف له بفأس عند قدميه.

ـ وابدأ بالحفر... في نفس المكان الذي كنت نائماً عنده... بسرعة ايها الصديق... وسأقول لك ما الذي افعله... هيا انهض...

بدأ يحفر وهو يتمتم:

ـ ايها الرب المستوي على عرشه فوق السموات السبع... لا بد انه مس في الليل... لحسه ابليس... نفخت «الود» في وجهه وفمه...

بدأ العرق يسيل من كل جسمه، اصبحت مساماته كثقوب غربال يتقاطر منها العرق... ادرك ما الذي يحفره...

انه قبره...

كان الالم ممعناً يعصر قلبه... لماذا يفعل صديقه وتوأم روحه به هذا؟... ليس الموت هو ما يسحق قلبه... بل الخيانة... خيانة صديقه

---

(١) نوع من العفاريت.

الذي كان كُل منهما كالظل للآخر... فأي شيطان جاس في خاطره؟... التصقت ملابسه الخفيفة على جسده، انتهى من المهمة، حفر القبر، وركم التراب على جانب الحفرة، حاول ان يرميه بالفأس ولكنه كان منتبهاً لكل حركة تصدر عنه، تفاداها مقهقهاً، ولاحقه بالمجرفة ولكن عبثاً.

قال بهدوء:

ـ دعك من العبث، انت رجل مائت... لا فكاك لك من هذا المصير... ولكن قل لي... الا تريد قبل ان تصعد روحك الى بارئها معززة مكرمة، ان تعرف لم افعل ذلك...

جلس على طرف الحفرة وقال مطأطئاً:

ـ اعتقد انني اعرف... انها هي... اليس كذلك؟...

اجابه بحزن:

ـ وهل غير المرأة ما دفع قابيل الى قتل اخاه هابيل.. المال والمرأة... انهما أمضى اسلحة ابليس لحرف الرجل عن استقامته... اعتقد ان الله لم يخلق المراة من ضلع الرجل، بل خلقها من كبد ابليس... ولكن الرجل ابتدع تلك الفكرة ليعيش باطمئنان الى جانبها...

والآن من الذي سيخبر عنك يا صديقي؟...

لقد هنئت بما يكفيك يا اخي... الجنة ليست مقسومة لك وحدك... فاترك حيزاً من العمر ليهنأ به غيرك... نعم لقد احببتها كل هذا الوقت... وعندما فضلتك، اختارت لك الموت... كنت قد قررت ذلك من البداية... منذ ان بعثت لك بطاس «الباخسمة» ووعاء «الحلفة»... كان ذلك زاد الميت بالنسبة لك... هل تذكر ذلك اليوم؟...

هز «خوست» رأسه بأسى وقال وهو يخفض بصره الى الحفرة السوداء:

- اذكر ذلك... اذكر ذلك جيداً، عندما اعطتني يدها لنرقص «الوج» دونك... ارتسمت نفس هذه الابتسامة الشيطانية على وجهك.

قال صديقه وقد خفقت اجفانه كأجنحة خفاش اسود:

- بلى... منذ ذلك الوقت وانا اتعارك مع ذاتي حتى طفح الكيل... ولم اعد احتمل مرأى سعادتك وحرماني... والآن يا صديقي من ذا الذي يخبر عنك، ويهمس لحبيبة القلب بما حدث؟... لا احد يرانا في قلب الغابة الملأى بالوحوش... ذلك يحدث دائماً... ذلك قد يحدث لاي كان من الرجال... يخرجون جماعات، ويفتقدون احدهم ولا يلتقونه بعد ذلك أبداً... الدببة والوحوش التي نصطادها لفرائها ولتأكيد رجولتنا... ولكنها قد تصطادنا، وان فعلت ذلك فلغذائها وللدفاع عن نفسها، وهذا حق، ودين الله حق... وما اجمله من حق يطلقني إلى جَنّةٍ حرمت منها طويلاً... اطمئن، سأعتني بالاولاد... انت تعرف انني احبهم... من هذا الجانب سيظلوا اولاد اخي وحبيبي الصديق «خوست». اطمئن لذلك...

ولكن قل لي من سيخبر عنك؟...

ثارت زوبعة فجائية، دارت عند فوهة القبر «زوجالة». - تلك المستديرات الهشة الصغيرة المضحكة التي تنطلق من سيقان «الجصل» وهي تدور وتتدحرج مع الهواء بكل الاتجاهات في فصل الحصاد عادة وتسمى ابليس لخفتها وحركتها ودورانها مع الزوابع... اخذت تجري متضاحكة على ارجلها البيضاء الرفيعة الممتدة باستدارة في كل الاتجاهات... كانت تتطاير وتدور وتلف مسرعة ملهوجة وكأنها تبحث عن شيء ضائع... او تحاول ان تهمس برسالة مستعجلة سرية، قال وهو يراقبها متفجعاً:

- «زوجالة»... زوجالة ستخبر عني...

قهقه بجنون وهو يسحب القامة من غمده ويقفز نحو صديقه ويطيح برأسه وهو يصرخ:

- «أهذا هو هدهدك يا صاح»...

دفنه... ودفن ثيابه وسلاحه معه، واخذ فرس صاحبه وذهب الى المناطق المقابلة من الغابة، امضى هناك عدة ايام موغلاً في قلب الغابة متجولاً في شعابها، وترك آثار النار وبقايا صيد وطعام ثم اطلق الفرس السوداء واخذ طريق العودة الى القرية، وصل بعد سبعة ايام.

أخبرَ القوم ان «خوست» فقد منذ الاسبوع الاول اثناء الصيد، وظل يبحث عنه مدة عشرة ايام دون ان يجد له اثراً فعاد وحده ليخبر القوم، وعندما خرجت فرق الفرسان الاستكشافية توغلوا بعيداً يبحثون في الجهة المقابلة... في الجهة التي لا تفوح فيها رائحة الخيانة... فلم يجدوا له أثراً...

ومضت الايام والاشهر، وظل يتردد على دار صديقه يقدم كل ما تحتاجه الاسرة من عون في الزراعة والحصاد والتحطيب وخزن المؤن ورعاية الماشية، ولحوم الصيد وجلودها وما يحتاجه البيت من اصلاح واعداد للشتاء ورعاية للاولاد.

وبدأ الرجال من حوله يلمحون له ان على الصديق ان يرعى شؤون بيت الصديق ويبعث الحياة في اركانه ويشعل النار المطفأة في موقده ويدفىء ارجاء البيت الفاقد لظل الرجل... ولكنه تجاهل كل التلميحات والتلميزات واخيراً تكلم معه كبير القرية ونبيلها قال:

- عليك ان تفتح ابواب بيت صديقك اكراماً له ولعائلته... زوجته جميلة وراعية بيت يتمناها اي رجل منا... ولكن انت الذي يتوجب عليه

ان يقوم بذلك صوناً للخبز الذي تقاسمتاه...

اجاب وهو يقف بين يدي راعي القرية وكبيرها يحمل كلبكه بيده ناظراً الى الارض احتراماً:

- على رسلك يا كبيرنا... ليكن الامر كما تشاء وترى... ولكن، ارى ان تحمل احدى نسائنا رغبتك الى ابنة «قارة». لا اريد ان تظن انني استغل موت صديقي لاحل محله.

اجابه بهدوء:

- لا عليك في هذا الامر... سنرسل لها «دي جواشه» - زوجتنا - لتحمل لها رغبتنا ورغبتك معاً... يجب الا تعتقد اننا نفرض عليك الامر...

ومضت السنوات وهي تعيش مع الرجل الذي كان صديقاً لزوجها... عاملته باحترام ومودة ولكن احساس ما، لم تعرف كنهه، كان يقف حاجزاً بينها وبينه... ربما حبها ل «خوست» .لقد انجبت له ثلاثة اولاد ولكنها لم تستطع ان تشعر بالانتماء لهذا الرجل... ومع ذلك كان زوجها...

وذات يوم، في اواخر الصيف، بعد انتهاء الحصاد، كان الزوج ينجر قطعة اثاث للبيت في طقس حار... وعند الضحى اوقدت الجمر في السماور واعدت شاياً، وحضرت فطائر «الحلفة» ساخنة، ثم وضعت وعاءاً مملوءاً بالفطائر الساخنة، وحملت الطبق والشاي حيث يعمل الزوج ووضعتهم على لوح خشبي وقالت برقة:

- الا ترتاح قليلا، لقد حضرت شاياً وفطائر ساخنة، خذ نفساً وبعدها عاود العمل اذا اردت...

ترك العمل الذي بين يديه ونظر الى الطبق ومحتوياته برضى وقال بارتياح:

ـ انت دائماً تظهرين بالوقت المناسب، وللغرض المناسب، سلمت يداك...

توجه الى البئر، تدافعت الدجاجات مقوقئة بين قدميه، ادار اليد الخشبية، فانطلق الحبل الغليظ الملفوف على خشبة اسطوانية مبرومة ركزت بين قائمتين متصالبتين متقابلتين من الخشب فوق فوهة البئر، تدار بيد خشبية عند الطرف الايسر فتهبط القفة المربوطة بالحبل الطويل الى داخل البئر، وعندما يصل القاع تدار اليد معاكسة فتظهر القفة والماء يسيل متلامعاً بهيجاً على حوافها.

ركن القفة على الاحجار المحيطة بالبئر، تقدمت الزوجة بهدوء وملأت الماء بمغرفة قصديرية... سكبت في كفيه المكورين، توامض الماء المتدفق ماسّياً حتى إمتلأت كفاه، سكبه على وجهه ورطب شعره ولحيته... ثم مسح وجهه بطرف كمه واسرع جذلا يقرفص عند طبق الفطائر وهو يهمهم بانشراح وهي تقف قريبة منه للخدمة:

ـ آه... كأس الشاي الآن يرد الروح للميت، بعد مشقة العمل... جميل ان يكون للرجل زوجة جميلة شهية ترعى شؤونه بمواظبة... جميل ان يكون للرجل زوجة مثلك... انا سعيد الحظ حقاً...

وفي تلك اللحظة، ثارت احدى تلك الزوابع الرعناء الطائشة التي تظهر فجأة بدون سابق انذار، فتلف حولك مزوبعة حاملة كل الغبار والاشياء واوراق الاشجار ونشارة الخشب وكل ما هو صغير متروك على وجه الارض، تدور بها عابثة ثم تبتعد وقد تركت خلفها كل الاشياء التي حركت الروح فيها تحتضر ببطء.

اندفعت في تلك اللحظة «زوجالة» تدور تلف وتتطاير بشيطنة لا تهدأ، راقبها بصمت ثم ابتسم.

طرقت ابتسامته مقدمة دماغها وتسارعت دقات قلبها وهي تحس انها امام فجيعة!.. سألته بهدوء وهي تنغلق على البحر الهائج في اعماقها:

ـ ما الذي اضحك «تحادة»[1] يا ترى؟

هز رأسه وكأنه يراقب شريط من الصور يمر امام مخيلته. قال وهو يرشف السائل الذهبي باستمتاع:

ـ لا شيء مهم... ولكني تذكرت شيئاً مر في حياتي.

قالت بعذوبة وقد تحولت ضربات قلبها الى مطارق تضرب رأسها:

ـ ولكن الا تخبر الزوجة بما يدور في بالك... آه... ربما لا تحبني بما يكفي لتحدثني عن خلجات نفسك.

قهقه ضاحكاً وهو يقول:

ـ يا لك من زوجة ماكرة تعرف كيف تقتحم اسرار رجلها... لقد لاحظت سريعاً ان في الامر سراً...

قالت بصوت ناعم كملمس الحرير او كملمس حد السيف:

ـ هل ترضى ان تكون بيننا اسرار؟. الا نتقاسم الفراش ونتشابك في أكثر الامكنة سرية من جسدينا...

قال باندفاع:

ـ كم انت ماهرة بدغدغة أكثر الكوامن سرية في نفس الرجل... انا اود ان اخبرك... وددت ان افعل ذلك قبلاً... ولكن خشيت ان تغضبي...

---

(١) من كتاب «ملاحم نارت الشركسية».

أحس وكأن صوتها يتمسح به:

- وهل يمكن ان اغضب من الرجل الذي احيا في رحمي اطفالي...

تنهد بارتياح وهو يقول:

- وددت دائماً ان اخبرك... كان ذلك يثقل على ضميري...

وسرد لها رسالة «زوجالة» ثم عقب وهو يقترب منها مهتاجاً:

- فعلت ذلك لأحصل عليك انت... لأحظى بك... ولكني اريدك ان تكوني خالصة لي، تحملي معي وزري وتساعديني على شيل هذا الحمل الثقيل...

همهست بكلمات مطمئنة وتضاحكت وهي تقول:

- من المثير للكبرياء ان تشعر المرأة ان الرجل يتوضأ بدم اخيه ليحتويها بتلكما اليدين بعدها...

عاد هو لاتمام عمله، وعادت هي لمشاغلها... وعند العشاء كانت هادئة لطيفة ناعمة كالحرير ولكن عينيها كانتا تتوامضان كالمصابة بالحمى... لم يشعر بأي غرابة عندما حضرت مائدة الاولاد باكراً ثم دفعت بهم الى النوم... وكانت المائدة التي عليها الطعام له في غرفتها... فهم الايعاز وكان يتحرق شوقاً ليخلو بها... إنَّ استعادة الحدث المأساوي جعله يهتاج اشتهاء لها... يريد ان يخرقها ويحس باعماق دفئها الجواني... تواصلت معه بجماع منهك حتى نضح كل جسده وتبلل بالعرق... وبعد ان انتهى تمدد بجانبها ويده تداعب نعومة اسفل بطنها ونام... لم يَقْوَ ان يذهب الى غرفته وغرق في سبات عميق ممتع.

لم يشعر بها عندما تسللت من جانبه، لم يشعر بها عندما أضاءت شمعة واهنة ثم ذهبت الى مخزن المؤن... ولم يشعر بها عندما احضرت فاروعة الحطب التي سن حدها لتقطع الهواء...

عادت وبنفس الهدوء تسللت الى الغرفة، رفعت الشمعة، راقبت خطوط السعادة تنتشر على وجهه، اتقدت بحقد، وضربت بسن الفاروعة الصقيل المتلامع على عنقه الممدود براحة على وسادة الريش، وفصلت رأسه... تدفقت الدماء من عنقه المقطوع، احست بالغثيان.

ركضت الى صدر الليل والدموع تنسفح على وجهها، تشق استاره، واندفعت كرمح منطلق الى بيت كبير القرية «البشه»[1] خبطت الباب بكل جسدها وهي تنادي حتى خرج من فتح لها... ركضت الى المضافة كان «البشة» هناك يقف عند الموقد الذي انطفأت جذوته... ركعت عند قدميه وسردت له كل ما حصل وقالت وهي تتمالك نفسها عن الاجهاش بالبكاء... انت كبيرنا واميرنا، ورئيس لجنة ادارة شؤون المقاطعة... تشاور مع رجال المجلس... وانا اقبل الحكم الذي ترتضوه... ولكن ان تكفلوا اولادي... اولادي من الرجلين.

تلفع بالبرنس الصوفي «الشاكوه» وخرج. بعد لحظات سمعت صوت حوافر خيل... ثم تلاشت الاصوات بعد برهة. حضرت النساء وجلسن معها، كانت الدماء تملأ وجهها ويديها وثوبها، امسكتها «جواشه» - زوجة الرئيس - برفق وذهبت بها عند الباب. كان المقعد الخشبي الواطيء والطشت وابريق الماء الفضي المطرق، البخار يتصاعد من فوهة الابريق برفق.

اجلستها «جواشه» على الكرسي، جاءت احدى النساء التي تقوم بالخدمة «ونه اوت» تغسل لها وجهها ويديها، كانت ترتجف.

بذهول قادتها «جواشه» الى غرفتها، خلعت عنها ثوبها الدامي والبستها ثياباً نظيفة.

سمع صوت رجال في المضافة وطلبها «تحادة» ـ كبيرهم ـ. دخلت ووقفت امام رجال المجلس مسبلة اليدين خافضة البصر... تكلم «البشة» وسرد على الرجال ما اخبرته به. تكلموا متهامسين ثم وقف كبيرهم (تحاده) وقال كلمة المجلس:

ـ خائن الخبز يباح دمه... عودي الى دارك... وكلنا نعينك على حمل مسؤولية تربية اولادك... اولادك انت ايها المرأة الكريمة التي رفضت العيش مع الخيانة والنذالة... حياك الرب وكان في عونك...)

خبا الصوت متلاشياً مع السكون... عينا «حسن» المثقلتين بالغفوة تنسدلان ببطء على كل الاحلام التي اهاجتها الحكاية.. ابتسم قبل ان تنغلق اجفانه وهو ينظر الى الثؤلول الذي على ارنبة انفها... كان يتقافز على حبة البطاطا ملوحاً بمذراته الصغيرة ويحرك قرنيه الصغيرين المضيئين، ويمد لسانه الاحمر فتنطلق منه شرارات ضئيلة ملونة وتتطاير مضيئة حوله.

اغلق جفنيه ونام... وسبح الكون في اغفاءة مثقلة بالتوجس وفجيعة غامضة مبهمة تطرق الاجفان بقبضة خفية، توقظ الاحلام والهواجس وكوامن النفس المستورة المنغلقة...

كانت اجفان الموجودين احياءاً وأرواحاً تنطبق غارقة في سبات الذات...

١١

كل يوم عندما تخرج نسوة الدار بعد ذهاب الرجال لانجاز الاعمال المختلفة، حاملات «اباريق» الماء الفضية او القصديرية والقرب لملئها، يتوجهن الى رأس العين في ذلك الطريق الترابي الضيق تحف به البيوت الطينية الصغيرة من جانب، والأشجار المتسامقة المتشابكة من جانب آخر، فيسمع لاوراق الاشجار حفيف ناعس، وماء السيل يهمس بأغنيته القديمة وهو يتدفق عبر مجراه، ويكسر هدوء الصباحات نقيق الضفادع... ويعوي كلب كسول هنا وهناك ببلادة، وتخور بقرة، ويتبقع تراب الطريق بروث الخيل والماشية وتمتزج رائحته بالهواء... وينطلق من خلف الاسوار دخان الطابون يحمل رائحة الخبز الطازج.

كل يوم خميس، وفي مثل هذا الوقت، تراه راكباً حصانه المرقش تهفهف جبته حوله، وتتباهى عمامته البيضاء على رأسه... ينظر اليها وهو يترجل عن حصانه الى ان يمررن من امامه، ويظل واقفاً يمسك عنان جواده وعيناه مسمرتان عليها، فتشعر ان اعضاءها تتفكك، واطرافها على وشك الانفصال عن جسدهاوتأخذ خطاها في التعثر... ويهب لفح نار تشتعل في احشائها ينعكس على وجهها فيصطبغ بتوهجه، فتتضاحك

النسوة وتعلق « جواشه دغه » ـ نعمات ـ التي يمت لها بصلة قرابة وهي ترد التحية بأحسن منها...

ـ ها!.. الا تريد ان تعلمنا قراءة القرآن يا « ختات».. افتح مدرستك هنا ودعك من « وادي السير »... عندنا نساء جيلات كما ترى... لن تجد في « واديك المجدب » ذاك مثيلاً لهن... عيناك تؤكدان ما اقوله اليس كذلك؟.. سنأتي الى مدرستك ومعنا الجميلات لنتعلم كلنا قراءة القرآن...

فيجيبها وقد اشرق وجهه بابتسامة مضيئة:

ـ نحن تحت الامر يا اختي... نحن تحت الامر والطلب... لاجل قطرة من مياه البحيرات الزرق نهجر الوادي الناشف والريان، ونأتي هنا نستقي من الينابيع الزرق لعلها تطفي شواظنا... ولكن اطلبي من تلك الارض الكريمة التي تحمل البحيرات الزرق ان ترشقنا بقطرة ترطب من لهيب الاحتراق...

فتخطف اليه بعينيها الزرقاوين الجريئتين نظرة سريعة فيتأوه الخطيب متوجعاً وهو يقول:

ـ آه يا ابنة العم... انشطر قلبي بسهم حارق الى شطرين، فكيف اردهما الى قلب واحد.

شغل قلبها بمدرس القرآن هذا... انه شاب وسيم وكلامه مثل العسل. عندما يأتي ايام الجمعة بعد صلاة المغرب لزيارة « نعمات » قبل عودة والدها والاخوة تنسل الى غرفة الضيافة، وعندما يضغط بيده الكبيرة اصابعها ترتعش حمامه رعناء في صدرها، فتعض على شفتها السفلى وهي تغض بصرها بخجل... فيقول متأوهاً:

ـ آه... ليتني كنت حبة الخوخ تلك...

وتظل تحصي الايام حتى يوم الجمعة القادم...

عندما عادت بعد انقضاء الاربعين على وفاة «نارت» الى بيت الوالد، حلّت «ناناف» الاخوة الذين اتوا بالعربة الكبيرة لتحميل متاعها، صندوق جهازها وهي تقول بحزن:

ـ لم تصل البنت سن الزواج لتهنأ بجهازها، كانت صغيرة عندما جئت بها. لم تعرف ما هو الزواج، وها هي ذي تعود الى دار والدها دون ان تعرف دفء «خدر العروس». لله ما اقسى اختباره لعباده الصابرين...

وحملوا صندوق العرس الذي لم يفتح، وحوائجها، على عربة الثيران وعادوا بها في جو جنائزي... تحمل الايام بين قرني الثور المضيئين وخواره السحري... ومضت الايام، وكبرت وتفتحت، ولكنها كانت تعتبر «ارملة» ـ عزبة ـ وهي في اوج تفتحها، فم تتمكن ان تعيش حياة الفتاة الشركسية التي تنفتح امامها آفاق رحبة من الحرية والاختلاط بالجنس الآخر... ولهذا كانت تلقى «ختات» بشيء من السرية والمواربة... فليس لها مضافتها الخاصة التي تستقبل بها شباب جنسها... ولم يكن يحق لها ان تشارك بحفلات الرقص والاعراس. كانت تقف خلف نافذة او عند الباب او على سطح تشارك النساء الفرجة من خلف حجاب.

هذه الحفلات واللقاءات مقصورة على الفتيات... اما بالنسبة للشباب فانها مفتوحة للعزاب والمتزوجين على السواء، وحتى كبار السن فانهم

يفتتحون الرقص في الحفلات ويشاركون فترة ثم ينسحبون الى المضافة يشربون « الباخسمة » ويغنون اغاني الوطن ويبكون.

بعدما تعرفت على « ختات » قريب « نعمات » بدأت تلقاه في مضافة البيت العامة اماسي الجمعة حيث يتأخر الرجال في مجلسهم ببيت المختار... واما باقي الليالي فانها عادت تجلس على جلد الخروف بجانب المائدة المستديرة التقليدية تضع « اللامبة » الكبيرة عليها حتى يكون النور كافياً، تطرز كل ما يمكن ان تحتاجه... وعادت تفتح صندوق العرس الذي اغلقته قبل ان تفتحه لتضيف الى المخزون مزيداً من الستائر ذات الاطراف المشرشبة باشغال الابرة والمطرزات من وسائد ومفارش واغطية وثياب تحتانية وملابس نوم زاهية... ولبسة كاملة للزوج.. من قميص احمر بياقته المرتفعة والسترة السوداء المفتوحة من الامام والمجدول على عرض جانبي الصدر ببيوت الفشك، والزنار الجلدي مزخرفة بقطع فضية تستعمل كادوات عند الحاجة، والقامة بمقبضها المزخرف وغمدها، وكذلك السروال الاسود.

لقد تم الاتفاق على الزواج، واتفقا على الترتيبات اللازمة، ولكن ارجئت الترتيبات لبضعة اشهر حتى يتم استكمال اموره المعيشية: سوف يطلبْ قطعة ارض من السلطات العثمانية التي اشرفت على تعليمه في مدارس تركية باسطنبول ليدرس هناك قراءة القرآن والحساب واللغة التركية التي كانت تكتب باحرف عربية. قال لها حالماً:

- نعم سأحصل على قطعة ارض... ايام الجمعة وفي العطل سأقوم ببناء البيت بمساعدة رجال القرية... سيكون بيتنا صغيراً مطلياً بالكلس الابيض، وازرع في الحوش دالية اعرشها امام البيت وازرع شجرة زنزلخت منفوشة، تتدلى قطوفها الحمراء، وعندما يهب الهواء احس بها

تهمهس كحيوان صغير لطيف... وسأطلب من النساء ان يزرعن ازهاراً جيلة كتلك التي عندك... ياسمين عطر، ريحان عبق... منثور يزغلل النظر... وورود حمراء... نفنوفة فواحة تتسلق حتى السطح... خبازيات ملونة، عرف الديك الاحمر... سوف نسكن هناك بعدما أُتمم البيت ولوازمه... سوف آتي ذات ليلة نتفق عليها وتكون معي فاطمات ابنة عمي ونعمات وزبور اخوها، وزوجة اخي، وبعض الاقارب من الشباب. سوف تأتين وانت تحملين معك صرة حوائجك الضرورية واردفك خلفي على الحصان واذهب بك الى بيت المختار. تبقين هناك في حرز امين الى ان يتم عقد القران... الا ترين معي ان زواج الخطيفة اسهل واسرع!.. سوف ارسل بعض الرجال ليتفقوا مع «الاب» على كل الامور... تكلمت مع «تامي» زوج نعمات ليجس نبضه... انه لا يمانع على ما اعتقد... وسيتم الاتفاق على كل شيء، حتى وقت «الخطيفة». لا يوجد في البيت ام... ولا اهل لكم على مايبدو... هكذا سيكون الامر اريح لي... ولك... اليس كذلك؟... مسره خان، اريد ان اناديك مسره فقط. الا ترين معي ان ذلك اسهل... اخف على النطق... مسره خان... هل تعرفين ماذا يعني اسمك بلغة القرآن... مسره، الفرح... مسره خان «سيدة الفرح» سيدة الفرح انت... انت مسرتي... انت فرحي... سأناديك مسره.

كان يتكلم باندفاع وبتوهج وقد نضح احساسه بنشوة محلقة، خفقان القلب يهيج الرؤى ويوقظ كل الاحلام الغافية...

واقترح عدد الاولاد واسماءهم والبنات وعن عيونهم الزرق الجميلة وجدائل شعرهن الشقراء الناعمة... نشوة غامرة اخذت تسلل من مساماتها وتستقر هناك في اعماقها تتراكم وتزيد حتى طفحت وسالت لتصل

اطراف ثوبها المطرز بخيوط ذهبية.

من الغد سوف اطلب قطعة الارض من المتصرف التركي، وادفع ثمنها... سنعيش سعداء ايتها المسرة.

نظرت اليه مسحورة. لم يكن بالقفطان والعمامة، وكان بالزي التقليدي... كم هو وسيم ورشيق بكليهما... بدأت مسره خان تعد الايام.

بدأت الاحظ في عيني «باباج» نظرة غريبة، مزيج من الحنان المكبوت والفرحة وخيوط الحزن تخرم تلك السحابة التي تحيط بنظراته...

كنت فرحة... وبدأت افكر بوالدي وحياته بعدي...

. ابتسمت نعمات وقالت وهي تغمز بعينيها:

- لا تخافي... سنزوجه حيدة تلك العزباء الجميلة...

كنت اعرف ان «باباج» يتردد عليها، وعندما تأتي لزيارة «جانسيت» ابنة اختها كانت تتطعج وتتغنج وتزم شفتيها بشبق وترفع حاجبيها باندهاش كاذب، وتظل تتحسس كتفي وتمسد شعري وهي تدعوني «حنونه». لم احبها ابدا... كنت ارى على شفتيها افعى تتلوى عندما تبتسم... لا اعرف لماذا اكرهها مع انها كانت لطيفة مغناج دائماً... ولكني كنت ارى في نظراتها ايضاً عينيّ افعى متأهبة... ولم اكن اطيق التفكير بانها تأتي لتأخذ مكاني في حياة «باباج» وتستحوذ على اهتمامه ورعايته الرصينة الصارمة... لا... لا... لا اريد حيدة... سوف ينساني «باباج» وسوف يحمل لها الراحة والملبس والخبز الارمني المنفوش... لا هي لا تستأهله... هذه العجوز المغناج... سوف ابحث له

بعدما اسكن « وادي السير » عن زوجة تقية تعنى به. ما حاجته الى امرأة مغناج دلوعة... انه ليس شاباً... ومع ذلك لاقول الحقيقة... انه ليس عجوزاً... انه ما زال وسيماً... بل وسيم جداً.. جداً... يا لقامته المديدة واكتافه العريضة، عينيه الزمرديتين، لحيته الشهباء الناعمة... في الحقيقة انه ما زال يبدو شاباً... انه رجل، رجل بالتمام... صوته الهادىء، خطوه الوئيد... تفكيره العميق... لا ... لن ابحث له عن زوجة تقية... في الحقيقة هو في حاجة الى امرأة، امرأة ناضجة... ولكن لا اريدها اجمل مني، فلتكن على قدر من الجمال... ولكن لا داعي لان تكون جميلة جداً... حينذاك، اعتقد انني سأشاكس... ولكن، سأكون متزوجة... لا بأس... مع ذلك، لن اتنازل عن موقعي في حياته... انا من بقي له من العائلة... انا فقط... ولن اتنازل عن موقعي ابداً... حتى ولو كنت في « وادي السير »... ايوه... ايوه... وحق الاله لا استطيع، مطلقاً... هو « باباجي » انا.

كنت انتظر بفارغ الصبر اليوم المنتظر، ومع ذلك كانت هناك دودة سوداء، تشبه دودة سليمان تلك السوداء اللماعة بأرجلها الألفية، اذا ما احست بخطر، تلتف على نفسها لتصبح مستديرة كالخاتم... ولكن لماذا سموها « خاتم سليمان »... سليمان بالضبط... سوف اسأل « ختات » عن ذلك، انه يعرف كل شيء تقريباً.

انها هناك في صدري تحفر بارجلها الالفية الصغيرة في اعماقي وتلتف كالطوق على مشاعري عندما افكر بحميدة... بل في زواجه كله... لا ارى داعياً لزواجه من الاصل... سيكون هكذا افضل له، سوف تعتني به « نعمات » والزوجات... حتى يصبح في الامكان ان يأتي عندي ويعيش معي... ومع وجود اولاد الاخوة لن يحتاج الى اسرة جديدة... لن يحتاج

الى زوجة... فلم وجع الرأس؟ سأقول ل «نعمات» ان تكلم «شوناف» ـ الفارس المضيء ـ ولكن اللعينة... الشيطانة... ستنظر الي تلك النظرة اللئيمة المتخابثة وتقهقه ضاحكة:

ـ هل انت حماة؟... ستكوني حماة شركسية حقيقية... يا للمسكينة حيدة... لن تجرؤ ان تزم شفتيها وترفع حاجبيها وتتغنج متطعجة... لا... لن اقول لها... سأحاول ان اجعلها تفهم ذلك... ولكن لماذا لا اقول لـ «ختات» ان يكلم «شوناف»؟ ولكن اخشى ان يسخر مني... انني حماة حقاً...

ثارت احدى تلك الزوابع التي كانت تتحرك بين آن وآخر. لقد توسع اولاد «باتر ببروقة» في زراعتهم. اشتروا اراض جديدة من الدولة ومن بعض الاعراب والشركس الذين ارادوا التخلص من اعباء الضرائب والمكوس، فاشتروها ليضموها الى ممتلكاتهم... واستخدموا من القادمين الجدد للعمل معهم في الارض ورعاية الماشية التي اخذت تتزايد وتتكاثر مقابل حصة من المنتوجات، فاشتغل معهم الاخوة وكذلك شاب رابع وحيد يعيل والديه يدعى «بالقر».

سنة محل لعينة اقبلت، شح فيها المطر فجفت الينابيع وقلت مصادر المياه وجف العشب سريعاً قبل ان يكتمل نموه من هجمة الحر المبكر... فثارت النزاعات والقلاقل بين الشركس والبدو الذين يشعرون بأحقيتهم في الاستفادة من الاراضي التي كانت تعود اليهم في الأصل، فأخذوا يطلقون إبلهم وأغنامهم الجائعة في الأراضي المزروعة من قبل الشركس، واحتدمت المعركة في اراضي اولاد «ببروقة» كما في اراضي اخرى...

قتل «بالقر» وجرح ثلاثة من الاخوة اولاد «ببروقة». واما «تامي» فقد كانت جراحه بليغة، نقلوه بالبرنس الصوفي «الشاكوه» الذي إمتلأ بالدماء وكان بين الحياة و الموت. وتحولت البيوت الطينية الصغيرة الى خلية نحل فقدت ملكتها.

اسرع «باباج» الى «اسماعيل» وعاد به مهرولاً بلحيته البيضاء الممدة وكيسه المملوء بالاغلفة المتنوعة وكتبه الضخمة الصفراء... عاين الجرح العميق الذي في الصدر، غمغم وهو يهز رأسه:

- الاصابة ضربت المعلاق، حالته خطيرة... سأقوم بما استطيع والباقي على الله، ثلاثة ايام سيلازمه ملاك الموت فوق فراشه... عليكم ان تبقوه صاحياً...

كانت يداه تعملان بسرعة وهو يتكلم وينظف الجروح التي كانت تتدفق منها الدماء. وبدأ يخرج اغلفته السحرية من كيسه العجائبي واخذ يرش منها على الجروح وهو يقرأ ادعيته وآياته ويتمايل الى الامام والى الخلف... تبقعت الاربطة البيضاء ببقع الدم القاني... ولكن النزف خف واخذت دفقات صغيرة تبلل الاربطة بين حين وآخر ثم توقفت تقريباً.

وقبل ان يذهب نادى على «نعمات» وقال لها بصوت منخفض:

- لا تدعي اي طعام صلب ينزل الى جوفه... عليك به بمرق اللحم والعظام... اسلقيه حتى ينيخ اللحم ويتفتت العظم وثومي الحساء جيداً.. الثوم كله فوائد يبني اللحم ويمنع التقيح والعفن... وينقي الدم... اسقيه الحساء وهو في مرقده لا تحركيه... سآتي كل صباح ومساء لرؤيته اذا بقي حياً... وعلى الله التوكل واليه المصير.

رفع يده بالتحية، وكان جلده مبقعاً ببقع بيضاء كحرذون مبروص. هل هي آثار حروق على الجلد ام ان به «برص» اصاب يده؟. تحرك

بهدوء، فاحت رائحة بخور زكي.

اقام زيور وفاطمات عند اختهم «نعمات»، كان سرير «تامي» في المضافة، فتحولت مستوطنتنا الى خلية نحل.

عندما يقترب المساء تخرج فاطمات وانا مع زيور لنجمع الفتيات، وفي البيت النار مشتعلة باستمرار في الموقدة، والمأكولات تحضر، والزوار تقبل محملة بالدجاج والسكر والبرغل والطحين والشاي، وفي المغارة ذاتها نعجتان ارسلهما آل «ببروقة»، وهناك كبش من اهل «نعمات». وفي حي المهاجرين تشاركت الاسر لتسوق بقرة يطفح ضرعها بالحليب فامتلأت مغارة «الثور الشبحي» بساكنين جدد... وتتجمع النساء عند «جانسيت» ليصنعن «الحلفة» و «الحلاوة» و «الشبس والباسطة» قطع الدجاج المثوم جاهزة والباسطة المصنوعة من البرغل المسلوق، تعده «جانسيت» الجالسة على كرسي منخفض وقد باعدت فخذيها وبينها قدر اسود ضخم مستدير، تعجن به البرغل المسلوق بـ «البلاع» وهو عبارة عن مشحاف خشبي بحجم كف اليد املس، بيد طويلة. «جانسيت» تمسك بطرف اليد الطويلة وتضغط البرغل المسلوق وهو في القدر وتعجنه بالمشحاف حتى يتماسك جيداً. ثم تفرده باستدارة على مائدة بسماكة تقارب ثلاث اصابع وتقطعه مربعات، ثم ها هي تصنع صلصة الشبس الشقراء... تدق الجوز ناعماً وتحمص بعض الطحين وتخفقهما بمرق الدجاج ثم تقلبه على النار، تفرم بصلة فرماً ناعماً وتقلبه بالسمن وهي تخلطه بالفلفل الاحمر الحار.

تسكب الصلصة في وعاء عميق، ويضاف على الوجه الزبدة المسيحة مع

الفلفل الاحمر، وتوضع قطع الدجاج المثوم في وعاء بجانب الصلصة وكذلك قطع الباسطة، وقدمت على المائدة لكبار السن، مع بعض « الباخسمة ».

تجمعت الفتيات في غرفتنا، فقد قدمت المائدة لكبار السن، وها هم يشربون « الباخسمة » وبدأوا يدمدمون بالاغاني القديمة، وهم في المضافة عند الجريح، بينما قدمت المائدة للفتيات، بدأ « تمروقة » الاكبر سناً يترنم بحكاية « زهور ستناى »[1].

كانوا يرددون المرثية بصوت واحد وقد غابت انظارهم في دواخلهم تلغي المسافات والزمن وترتد الى زمن طوته الايام... كانت الدموع تنحدر كالينابيع تغسل غبار الزمن عن غضون وجوههم ثم تنحدر متخللة منابت لحائهم الشائبة.

تدافعت الفتيات الى المضافة يرفعن الفجيعة بأكفهن الصغيرة ويلففنها باصابعهن النحيلة لتتقاطر من بين الانامل السحرية بهجة وحيوية وحياة... وقف الرجال المسنون بوقار.

دخل « زكي » يتمايل سكراً وقد احمرت عيناه وغامتا في عالم مجهول، ودخل « زيور » خلفه وهو يحمل « البشنة »[1]. افسحوا له مكاناً في الصدر. قدم « زيور » ال « بشنة » ل « زكي » الذي دفع الاربطة الجلدية بشيء من الكسل، وعندما استقرت الآلة الموسيقية على صدره اخذت

---

(١) الاكورديون. الآلة الموسيقية التقليدية.

(١) سهرات سمر لمساهرة الجريح او المكسور.

اصابعه تداعب مفاتيح الاكورديون، صدحت الانغام... تقدم «زيور» من «تمروقة» الاكبر سناً بين مجموعة الكبار، نزل الى الحلبة، دار دورة بقامته الصغيرة النحيلة، خفيفاً كقط بري، مستقيم العود مرفوع الرأس كسهم يتأهب للانطلاق... نزلت «فطيمات» الى الحلبة تخفق باطراف ثوبها كفراشة رقيقة، ورقص «تمروقة» على اطراف اصابعه وبدا وهو يدور حولها قافزاً في الهواء وكأنه ريشة خفيفة يتطاير في الهواء. استمر الرقص والعزف حوالي ثلاث ساعات. ودع الكبار «تامي» وذهبوا بعد ذلك الى بيوتهم، دخل الشباب. جلست الفتيات في صدر المضافة وجلس الشباب باصطفاف في باقي المساحة حتى سرير الجريح.

شرب الشباب من «الباخسمة» باعتدال.

وقفت مع بعض النسوة عند النافذة نتفرج. بدا «زكي» سكراناً، وجهه شديد الاحرار يضحك كثيراً و لأي سبب، وذا تحرك يظهر عدم التوازن في حركاته والكل يحيطه بالعناية والاهتمام. نجاح اي حفلة يتوقف على مزاجه الرائق وسكره... فاذا ما احتدم مزاجه واعتكر لسبب ما، فحتى ابليس أو الملائكة لن تقنعه بالعزف... وعندما يسكر ومزاجه رائق فانه يحلق في اجواء النغم البعيدة الواسعة، ويحمل كل من يستمع اليه الى سمائه المشعة...

اصابع «زكي» تتنقل على المفاتيح الصدفية، بيضاء وسوداء، وتتفتح نشوة النغم تدير الرؤوس... وقف الكل، ورقص الشباب، وتوجهوا مع الانغام الساحرة الفرحة المشعشعة، او المنتشية الحالمة... السريعة الضاجة او الهادئة السارحة...او الحزينة المعذبة... وتحركت الاكف والارجل والاجساد والمشاعر وفق ما يشاء «زكي». استمر الرقص ساعة بعدها توقف «زكي»... جلس الكل على المقاعد، قدم الشاي بالسماور و

« الحلقة » الساخنة ثم قدمت حلاوة الشركس. وجلس « زيور » عند سرير الجريح يسقيه المرق المثوم.

لفت نظري شاب يجلس قبالتي... اثار في نفسي شعور غامض لم استطع ان اتبين كنهه... كانت نظراته لا تني تتوجه صوبي باستطلاع وبشيء من الوقاحة... على العموم، هو وسيم بشعره الاسود وبشرته المائلة الى السمرة، انه مستقيم القامة، متين البنية، ببعض الطول. خداه بارزان مشدودان بنوع من الشراسة. فمه رقيق منطبق ببعض القسوة، ولكن ذقنه بارزة بصلابة. صدره عريض بما يلفت النظر، جيوب الفشك التي تحلى جانبي الصدر عددتها، كانت خمسة عشر بيتاً في كل جانب بينما في المتوسط تبلغ ثمانية. خصره شديد الضيق، تستقر « القامة » على منتصف الوسط الرقيق بثقة. اما عيناه فانهما بندقيتا اللون، واسعتان، بنظرات وقحه ثابتة... على العموم كل ما فيه ينضح بوقاحة متشحة بالغموض.

حاولت ان اتوارى او اغير موقعي ولكنه كان يلتقطني بنظراته الجريئة الوقحة بسرعة... وتتخايل على ركني شفتيه شبح ابتسامة ساخرة... احسست انه كالقدر يلاحقني كيفما تحركت.

ابتدأت العاب التسلية عند منتصف الليل تقريبا. وقف بقامته المتينة الجميلة المشدودة وصدره العريض البارز، واخذ يشرح اللعبة. لم استطع ان اتبين ماهية مشاعري اتجاهه. قال بصوت هادىء ولكنه ثابت، وفي داخل نبراته تنطلق نغمة صوتية واثقة تتسم بنوع من الوقاحة التي ربما تفرض ذاتها بالقبول وتشي عن رغبة في الفضيحة... اشار الى احد الشباب، وعندما واجهه قال بذلك الصوت القوي المتسلط:

ـ سمير، فك الحزام الجلدي عن وسطك ولف طرفه على يدك اليمنى. انت الجلاد وانا القاضي... عندي تنكة من الزيت الجيد اريد ان

ابيعها... انادي اسم شخص من الموجودين قد يكون شاباً او فتاة. يقف الشخص المعني فتسلمه تنكة الزيت وهي عبارة عن جَلْدَةٍ على اليد وذلك الشخص بعد ان يستلم الزيت ينادي اسماً آخر: بعت الزيت لفلان او فلانه... فتسلمه انت تنكة الزيت وهكذا... ومن يتلكأ يجلد مرة اخرى... يجب ان تدور تنكة الزيت بسرعة وتنقل من يد الى يد، دون ان تتوقف لحظة.

ولوى كتفيه وهو يقول ذلك بينما رمق الفتيات بنظراته الجريئة الفاضحة:

ـ حسناً... اختيار الاشخاص حسب المزاج و الرغبة.. لا يوجد اي اشتراط...

صمت قليلاً... رفت ابتسامة ضئيلة ولكن عابثة على ركني شفتيه. على فكره كان قليل الابتسام، وحتى بالكاد تراه يبتسم، ونادراً ما يفعل ذلك.

بدأت «تنكة الزيت» بالتنقل من كف الى كف سريعة دواره تدير الرؤوس والاكف بين الشباب والفتيات، وعلت فرقعة الحزام الجلدي وهو يشق الهواء صافراً عندما يرتفع ثم يسقط ضاجاً على الاكف... احمرت الايدي والوجوه وتلامعت العيون متوعدة والضحكات تداري الالم.

ـ والآن نبدأ الاسئلة... نحن الليلة معاً حتى الصباح... ربما يجب ان نتعارف أكثر حتى نستطيع تمضية الوقت معاً.. سوف اسمي شخصاً، والقي عليه سؤالاً، ومهما كان السؤال محرجاً على المدعو ان يجيب، واذا ما استنكف احد ما يساط على يديه بعدد من الجلدات، احددها مع ايضاح نوع الجلدة، حامي ، بارد، وسط...

صمت قليلا وهو يلف على كعبيه، يستطلع الوجوه، وانفرش طرف السترة السوداء باستدارة بديعة:

ـ كما قلت الجلد حسب الرغبة، حامي او بارد، او بين بين... هل هناك اي سؤال او تساؤل، او استفسار، استيضاح؟.

توقف. صمت. فرقع «سمير» بطرف الزنار الجلدي الطري بسرعة. نادى:

ـ ناديا...

وقفت ناديا. سأل بصوت جاد دون ان تظلل وجهه حتى ظل ابتسامة:

ـ ما اسم الطير الذي يبني عشه على صدر الانثى، ولا يمكن ان يرقد على صدر الرجل؟

تدفقت القهقهات مبتهجة شبقة من حلوق الرجال، احمرت الفتيات حتى جذور شعورهن وادرن وجوههن جانباً وهن يغطين افواههن الضاحكة بايديهن... اما «ناديا» فانها هربت الى مقعدها متجمرة ضاحكة تخفي وجهها بين يديها حياء... اقترب الجلاد منها وهو يفرقع بالزنار ووقف فوق رأسها المحني:

ـ افتحي يدك... كم جلدة اجلد العصية سيدي القاضي...

قال بوقار:

ـ بما انها تريد اخفاء معلومات هامة عن المجتمعين تجلد خمس جلدات حامية.

مدت كفيها، فرقع السوط، هبط سريعاً على كفها ورسغها ومبتدأ الساعد، تركت الجلدة اثراً قرمزياً داكناً... ضمت يديها لا شعورياً واخفتها تحت ابطيها ضاحكة وتميل بكتفيها جانباً كسلطعون صغير مذعور بينما تكاد تطفر الدموع من عينيها. قال حاسماً:

ـ «حفلة» سهرة الغد عليك... والآن افتحي يدك او تزيد العقوبة.

فتحت كفيها وهي تسحب مرفقيها الى الخلف. قال بملاسة :

ـ جلادنا خشن، ولا اريد ان تظلمي فتصيب الجلدة موقع آخر طري موجع يا حلوة. مدي كفيك الى الامام.

مدت « ناديا » كفيها وهي تدير وجهها فتخفي ضحكاتها ودموعها التي تكاد تطفر، وفرقعت ضحكات الرجال خشنة ماجنة شهوانية... واستمر الضرب والاسئلة الفاحشة المحرجة. تورمت ايدي الفتيات وتوزعت الغرامات الغذائية، ولكن الجو كان مشبعاً بروح المرح والانفتاح... وكان الليل يمضي صاخباً ضاجاً... ويتابع الجريح الالعاب متجاهلاً الامه وجراحه الخطرة منشرحاً مع الجو المرح.

اللعبة الثالثة كانت « القرقة والصيصان ». سلم الحزام الجلدي للجلاد الذي وقف خلفه حانياً رأسه، يمسك طرفي الحزام بيديه الإثنتين، مباعداً ما بين قدميه... وكان « القرقة » يقف وسط غرفة الضيافة بصدره المفرط في العرض، البارز، ينضح ثقة وإعتداداً. قال شارحاً اللعبة وهو يدور على كعبيه ويدور بنظراته الوقحة على الوجوه:

ـ حسناً... انا « القرقة » وانتم جميعاً الصيصان... صيصاني!. ومثلما افعل بالضبط تفعلون، ومن يخالف يساط... احذرن ايتها الحلوات... ان الخجل الزائد لا يجلب لكن سوى المصاعب والعذاب... كن أكثر جرأة...

قال وهو يرخي يديه على جانبيه ويميل برأسه الى الخلف:

ـ « القرقة » و « الصيصان » مستمتعين بالشمس، تفرد « القرقة » جناحها وفخذها للشمس، افعلوا مثلما تفعل امكم... هيا يا صيصان...

ووقف الكل بين الضحكات والمكتوبة والخجل، ومطوا ايديهم الى الجوانب وكأنها اجنحة ومدت الارجل، ثم نفضت « القرقة » اجنحتها

وهي تطرد الكسل... نقرت كتفها... فعل الكل مثلها... على خدها، نقرت جبهتها... اسفل العنق... على الذراع... ثم نقرت بطنها... ارتفعت النقرة قليلا، بدأت وجوه الفتيات تتضرج، ثم نقرت «القرقة» صدرها، كان الشدي تماماً... نقر الشباب بثقة، تصايحت الفتيات واندفعن الى مقاعدهن، يرفعن اكتافهن ويملن برؤوسهن جانباً، كسرب من اللقالق، خجلات متضاحكات... واستمر هو: قرق... قرق... قرق...

واستمر في النقر على الثدي. وصرخ فجأة وهو يقف مستقيماً:

- الى العمل ايها الجلاد...

وتقدم الجلاد وكانت «دانا» صديقته هي الاولى، ضرب برفق. صرخ:

- توقف ... هات السوط... صف مع الاناث... سوف تجلد معهن...

اخذ الحزام ولفه على يده وبدأ بالجلد، كان يضرب بقسوة... والتمعت عيناه كعيني قط بري متحفز... ولكنه لم يلبث ان توقف، وضع الحزام على طرف مقعد وعاد الى الوسط، وقال:

- حسنا... ضربت الفتيات بما فيه الكفاية... سنسمح بالافتداء... يستطيع الشباب افتداء الفتيات، اذا استنكفت فتاة يفتديها شاب من الموجودين بان يجلد بدلا منها ويتكفل هو بدفع الغرامة. لقد تحملت الفتيات ما يكفي... ووقف في الوسط:

- هيا عودة الى «القرقة» و «الصيصان»... قرق... قرق... قرق...

ونقر الفخذ، والركبة، وربلة الساق... وفجأة انحنى الى الامام ونقر مؤخرته... وتعالى الصياح والضحك، وانزلت العقوبات والغرامات بالفتيات المستنكفات، وافتدى الشباب الفتيات واحتملوا الجلد وتعهدوا بدفع الغرامات، التي هي عبارة عن توفير الوجبات الكبيرة التي تكفي الزائرين ولاعداد موائد المسنين والشباب والفتيات والنساء...

اشرقت الشمس وكان الجريح صاحياً، اطعم ملعقة عسل ثم سقاه زيور لبناً مثوَّماً، ومدت المائدة للشباب والفتيات، بدا الاجهاد عليهن... وبعد ان خرج الشباب والفتيات الى منازلهم، كانت عمان تغتسل بالضياء.

دخل الكبار بالسن وجلسوا ملتفين حول الجريح، وعندما جاء الشيخ «اسماعيل» لعيادته كان الجريح يغالب النعاس، فك اربطة الجرح، عاينه، هز رأسه برضى، ثم رش من سفوفه واغلفته وضمد الجرح بضمادات جديدة، تدفقت بعض الدماء، ولكن الاربطة لم تتبقع... طلب غلّي بعض الاعشاب، وسقاه وهو يتمتم بادعيته وصلواته، وعندما استعد للخروج نادى على «نعمات». قال لها بصوته الهادىء وهو يحرك يده المبقعة محذراً:

- حسناً... مر اليوم الاول بسلام... على الشباب ان يستمروا بمساهرته... حتى الآن الوضع جيد باذن الله... اذا استمر الوضع هكذا، بامر الله، اليوم وغداً... يطرد عزرائيل خارج الحي كله... هو يقف الآن عند الباب منتظراً متحفزاً... زيدي كمية الحساء وعدد الوجبات ولا تنسي تثويم المرق واللبن، وعليكم بملعقة عسل صباحاً ومساء. وبقيت رائحة البخور منتشرة بعد ان خرج.

واستمرت السهرات خمسة ايام، ولكن بعد تحسن وضع الجريح، بدأ ينام في النهار ويساهرونه في الليل...

واستمرت العينان الوقحتان تتابعاني... وفي اليوم الثالث بعد ان رافقنا الفتيات الى منازلهن، قالت فاطمات ضاحكة ونحن نجلس حول المائدة المستديرة وقد مددنا ارجلنا براحة ونحن نفطر:

ـ هذا الشاب « نياز » كم هو وسيم وكم هو وقح، وكذلك كم هو مرغوب... « شوناف » مدين له بتجاوزه مرحلة الخطر بسلام... اثار من المرح والابتهاج بقدر ما كان جاثماً على الجو من خطر... ان الفتيات يحاصرنه باغراءاتهن... ولكن يبدو انه ابتلع صنارة من الجهات الخلفية... نظراته تسلل خلف النوافذ... وغمزت ضاحكة ثم اردفت:

ـ اراد ان يرسل لك قطعة من الدجاج المحمر فقلت له « احذر » انها محجوزة للخطيب... خيل الي انه سيأكلني... ولكنه مد يده بهدوء واستعاد الوعاء الذي حملني اياه وتناول قطعة الدجاج وبدأ يقضمها بهدوء وشراهة، وابتسم ابتسامة شحيحة ـ على فكرة قلما يراه احد مبتسماً ـ وقال بهدوء:

ـ قولي لها ان تنسى خطيبها مدرس الاولاد هذا... هل يمكن ان تطمر وردة كهذه هناك في « وادي السير ».

لا اعرف لماذا اتطير عندما انظر في عينيه... اشعر باصابع باردة تقبض على قلبي...

تنفست الصعداء بعد انتهاء اليوم الخامس... لقد زال الخطر تماماً، واخذت الجروح العميقة بالالتئام، واصبح بحاجة الى الراحة والغذاء الجيد ليعوض عما فقد من الدماء.

توقفت السهرات، ولكن بدأت ارى « نياز » على فرسه الحمراء يمر طراداً حول البيت كل يوم مع مغيب الشمس، اسمع صهيل حصانه

وحمحمته، فأظل متوجسة في غبش المساء وارى عينيه الوحشيتين اينما إلتفتُ... لماذا اشعر بالخوف؟... لا اعرف... انا اتجنبه وأعود مهرولة الى البيت اذا ما التقيته مصادفة.

12

قالت لي «نعمات» غامزة بعد انتهاء «الشابسة»[1] بعدة ايام:

ـ الوقت ليس ربيعاً... ولا ادري لماذا فاعت الدبابير... ولكن لا بأس، ارى لدينا زهرة عطرية فواحة... لهذا تكاثرت الدبابير...

اخذت «نعمات» هيئة جديدة وهي تقول بنبرات رصينة:

ـ اسمعي «ناشخوه» اعتقد ان «باباج» تكلم مع تامي، في امر هام... الليلة سيزورك «تيمور بك» انه «بشه»[2] اباً عن جد، وهو هنا في عمان ذو مركز ونفوذ بين الشركس وعند الاتراك... وله وضع ممتاز في الجيش العثماني، وهم يعتمدون على سيفه وجرأته وشجاعته مع مجموعة من فرسان الشركس.. يذهبون حتى آخر الدنيا ليخمدوا الفتن والاضطرابات التي تثور في وجه العثمانيين. «باباج» يعتقد ان «تيمور بك» هو الانسب لك... انه «بشه» يملك الذهب والاتباع والصيت الكبير الحسن ويقول: نحن ورق[1] وهذا هو الزواج المناسب، خصوصاً وأن الانساب بدأت تفقد قوتها ووجودها مع عوامل التهجير واللجوء...

---

(٢) امير، وهم فئة في القمة من السلم الاجتماعي.

انه كبير بالسن نوعاً ما... ولكن ـ يقول:

ـ تذكري مكانتك... جدك كان اميراً ولو دامت الاوضاع في بلادنا لكنتِ أنتِ اميرة محاطة بالخدم.

يقول: « تذكري ذلك الليلة »...

في الحقيقة حاولت ان ارسم صورة لهذا الفارس « البشه ». قلت لا بد انه يشبه « باباج ». لا بأس لو كان كبيراً بالسن نوعاً ما... ومن بعيد اطل « ختات » بعينيه العسليتين ووجهه الجميل الهادىء، كان ينظر اليَّ بحزن ويهز رأسه معاتباً.. وضربني على ارنبة انفي بأصبعه مداعباً وهو يهمس بشوق « تذكري انني ابني بيتنا في « وادي السير » ... وادي ... السير... وا...» « هل تطمر مثل هذه الوردة هناك في وادي السير... وادي... السير... وادي السيـ... جدك كان أميراً « بشه » ولو دامت الاوضاع في بلادنا لكنت انت اميرة محاطة بالخ...

كنت منفعلة، واحس انني ادور في دوامة... او انني « زوجالة » تعبث بها زوبعة ماكرة، عابثة... ولكن عندما ارتديت ملابسي وميلت القبعة السوداء المطرزة على جانب من جبهتي، فوجئت حقاً بجمالي... والتفت النساء حولي وهن يهسهسن:

ـ يا اله السموات الذي خلقنا... لكم خلقك الرب جميلة...

التفت « باباج » ونظر اليَّ بطرف عينيه وهو يخرج للجامع فأشرق وجهه... واما « شوناف » فانه اقترب ونظر اليَّ ملياً مبتسماً وتمتم برقة:

ـ احقاً هذه هي نفس الفتاة الشقية ذات الانف المحمر الذي لا يكف عن السيلان والتي كانت تكش تلك الكلاب الشبحية بقصبتها دوماً! سيضطر ان ينتف « تيمور بك » شيبه، ليكن الله في عونه.

لم يخرج «شوناف» للصلاة مع الرجال... بقي في البيت ليستقبل «تيمور بك» عند مجيئه.

مضى بعض الوقت بعد خروج «باباج»، كنت احوم كنحلة والصور والاصوات تتعارك في داخلي... وكان «شوناف» يهز رأسه باستمرار مداعباً وحزيناً... رف قلبي كعصفور سجين عندما تعالت اصوات رجال في الحوش، والتقطت اذناي المنتصبتان صوت «شوناف» وهو يقول:

ـ آه.. من هنا «يتمور بك»...

قالت نعمات متظاهرة بالجد:

ـ «باباج» غاضب جدا... ويقول بشدة: «منذ متى نقيم الرجل بشكله؟...»

صرخت محتدة وانا اضرب فخذي بقبضتي:

ـ قولي لـ «شوناف» لن اتزوج هذا القزم ذي الشفة المشرومة... ليس «بشه» فقط، لو ان «التحه»[1] تحول الى تيمور بك» لما تزوجته وهو بهذا القبح... لو ان ذلك الكلب المتوحش بقائمتيه، الامامية الوحيدة والخلفية الوحيدة وعينه الوحشية الواحدة جاء وهو يحمل مشرطه وقال: سأمزقك فتافيت اذا لم تتزوجي «تيمور بك» لما جعلني ذلك اخاف واقبل، بل لانتزعت المشرط من يده وقلعت بها عينه الوحيدة الوقحة وانا اقول له:

ـ اذهب انت وقاسم ذلك الاعرج فراشه فانت تليق به اكثر... هل

(١) اله.

تعرفين «دغه نسه» ان نظرات ذلك الكلب الوقحة تشبه عينا ونظرة «نياز»...

انفجرت «نعمات» ضاحكة حتى استلقت على قفاها:

ـ هل تعرفين أنه فارس في الجيش العثماني... انه يعمل مع «تيمور بك»... ولكن قولي، هل تخافي من «نياز» ام انك تحبينه... ام انك تشعرين نحوه بكليهما؟.

فكرت لحظة، مشاعري تجاهه غامضة... بين جذب ونبذ، رغبة ونفور، اشعر باشمئزاز عندما اتذكره وهو ينحني وينقر مؤخرته... وعندما استقام وابرز حقويه، ونقر اسفل بطنه... هناك عندما انفرج طرفا سترته، لقد برزت خيمة صغيرة في سرواله، ولم يخجل من ذلك بل نقر على رأسها... شيء مغثي...

ولكن له جسم متناسق جيل، مشدود، تطفح من حوافه القوة والشباب...

اجبت:

ـ لا اعرف... ولكنني موقنة اننا سنتعارك على الدوام لو تزوجت منه، لن يكون بيننا سلام أبداً... انه شديد الثقة بنفسه حد الوقاحة... وانا لن اطيق ذلك، ولو انه يستهويني، من بعيد فقط... انه «ختات» فقط، الذي يستطيع ان يمتص عنفواني بهدوئه واتزانه وحبه... انا اعرف هذا تماماً...

صفقت «نعمات» بيديها وهي تمد ساقيها وتجلس براحة، ورنت ضحكتها الجرسية:

ـ ان للتهجير بعض النعم علينا... تصوري هل كان بامكاني ان اجلس هكذا، بهذه الراحة، لو كانت لي حماة هنا؟... ولكن عندما

اصبح «حماة» لن اتهاون ابداً بفرض حقوقي... حسناً، لنعد الآن الى موضوعنا... اهذا هو موقفك النهائي من «تيمور بك»...

قلت باصرار:

- أكدي لـ «شوناف» انني سأخطف حميد المرابعي، واجعلها فضيحة، ولن اتزوج من ذاك العجوز البشع...

قالت «نعمات» متنهدة بارتياح:

- ازحت جبلاً عن صدري... «ختات» يقول انه اعد كل شيء، واستعدي ليلة الخميس القادم بعد ان يعود من «وادي السير»... لقد اعد كل الترتيبات لتكون الامور في نصابها... الآن استطيع ان افضي لكِ بسر، «تيمور بك» يضغط على «تحاده» من خلال «مجلس الكبار» عندنا... ما دمت واثقة من خيارك اعتقد ان الحل اسراعك بالخطيفة مع «ختات»... وليتم ذلك حسب الاصول، ان الضغوطات ستزداد على «تحاده» وهو فعلا محرج... ولقد كان كذلك منذ البداية... كانوا مدركين انك لن ترضي... ولكنه اعتقد وراوده بعض الامل ان تقتنعي بالثروة واللقب والمركز، واعتقد ان لهم تأثيرهم غير القليل عليك...

ابتسمت وقلت بتأكيد:

- انا لا انس موقعي الاجتماعي... كما انني اتذكر طفولتي الباكرة... عشنا بشكل يختلف تماماً... ولكن ماذا افعل، انه بشع... بشع حقيقة... لو انه لم يكن بهذا القدر من الدمامة.

هزت «نعمات» رأسها موافقة:

- لقد رأيته... رفعت اطراف ستارة النافذة حتى تتمكني من رؤيته... انه لا يحتمل، اليس كذلك؟. الا توافقيني الرأي؟. لو كان له طولي على الاقل... ربما.. اوه... لن احتمل ان يقبلني بشفة الجمل

تلك... اخبري «ختات» سأكون جاهزة في انتظاره ليلة الخميس، بعد صلاة العشاء.

فجأة احسست ان كل الاشياء تصبح بلا لون... كيف سيعيش «باباج» بدوني...

13

بدأ لغط خافت غامض يدور بين احاديث الرجال في المجالس. هناك رجل غريب يتكلم «الاديغة»[١] كـأحـد ابنـائهـا... ويعـرف العـادات الشركسية وكـأنـه ولـد ونشـأ بين قـومنـا... وهـو اشـد شقـرة مـن الشركس... يتكلم عن اشياء غريبة سوف تحدث... يقول بأن حرباً ستحدث... حرب كبيرة، تشمل العالم كله... وسوف يخرج الاتراك من هذه البلاد... يا ويه...[٢] ستغزونا العربان عندئذ، وتعود المعارك بيننا طاحنة... ولكنه يقول ان قومه سيكون لهم شأن هنا، سوف يحموننا... سيأتي هنا امير من نـسل النبي ﷺ... وعلينا ان نلتف حوله... نحن اخرجنا من بلادنا واتينا هذه البلاد كمسلمين، علينا ان نلتف حول سلالة نبي الاسلام... ولن يصيبنا اذى اذا فعلنا ذلك...

يجب ان لا يعرف الاتراك عن هذا الغريب شيئاً...

كان يتحرك خفيفاً بين تجمعات الشركس كنمس، يختفي ثم يظهر كشبح، في المجالس المسائية يتحدث عن «النارتيين» و «سوسروقة»

(١) الشركس.
(٢) يا حسرتي.

ويشرب «الباخسمة» بشراهة ويردد مع الكبار ال «غبزه»[٣] انه شركسي عتيق... فقط لو لم يكن من اهل ال «جورت»[٤] لكان شركسياً حقاً...

اعتقد انني التقيته عصر احد الايام وكنا قد ذهبنا الى رأس العين نستقي ماء الشرب نظيفاً من منبع الماء... كان هناك عند رأس العين مع بعض الرجال منهمكين بالحديث وهو يشير بيديه... عندما مررنا نظر اليَّ بدهشة، وومضت عيناه كعينيّ قط متربص في الظلام... وصمت قليلا وهو يتابعني بنظره، لكزتني «نعمات» بمرفقها، ووضعت يدها على فمها وهي تخفض رأسها تكتم ضحكتها الجرسية، وسمعناه وهو يسأل:
ـ ابنة من هذه الجميلة؟...

اليوم هو الخميس، رفرف قلبي كعصفور سيجته الاكف...
قبل ان يخرج الرجال صباح اليوم تمهل «باباج» قليلا وقال دون ان يوجه الكلام لاي منا:
ـ جلسة الرجال هذا المساء ستكون عندنا... اليس كذلك يا ابن «جاناتوقه»...

ومضوا... التفتت «نعمات» نحوي بسرعة، وقطب حاجبيها، تشير لي بالصمت... اليوم الخميس، موعدي مع «ختات»، نظرت اليها بحيرة وتوجس بعد ان ركب الرجال خيلهم وخرجوا... قالت بهمس وكأن

(٣) مرائي.
(٤) من اهل الصليب.

هناك من سيسمعنا وهي تمسك بيدي وتدخل بي الى الغرفة وقد نعمدا جانسيت ونسمات، وكان التساؤل على وجوه وشفاه الكل... قالت بصوت خافت:

ـ لا بأس... سأترك خبراً لـ «ختات» مع زيور حتى يتأخروا عن الموعد المتفق... ليكن ذلك بعد تقديم الطعام للرجال، وانتهاء الخدمة... بعدها لن ينتبه احد لغيابك، وبعدما ينفض المجلس لا بد ان تصل الجاهة لتخبر عن مكان وجودك... تم الاتفاق ان يؤمنك عند المختار في عمان، لا تقلقي... ستنتهي الامور على مايرام...

حضرنا «الحلفة» وجهزنا السماور، غيرنا مفارش المساند والشراشف البيضاء المطرزة في المضافة، ثم رفعنا أطراف الستائر المخرمة بأشغال الابرة حتى نتمكن من مراقبة الحضور... رششنا المساحة التي تفصل بين غرفة الضيافة والدرجات بالماء وكنسناها جيداً، ففاحت رائحة التراب رطبة توحي بدفق الحياة.

اتى الرجال بعد صلاة المغرب وجلسوا على الفرش المكسوة بالمفارش البيضاء المطرزة بعد ان خلعوا نعالهم، منهم من جلس متربعاً ومنهم من ثنى ركبة والاخرى قائمة، وكان ذلك الغريب بينهم.

بعد قليل حملت السماور واستكانات الشاي، احسست بعينين تتلمساني، اختلست نظرة سريعة تجاه العينين المصوبتين نحوي... انه ذلك الغريب، التقط نظراتي المختطفة، زحفت على شفتيه ابتسامة خفيفة، سرعان ما اختفت تحت ظلال شاربيه الشقراوين... وعندما دخل «محمت» الاخ الاصغر يحمل صينية «الحلفة» خرجت وانا متراجعة للخلف، ووجهي نحو الرجال، كنت غاضة ببصري كما تتطلب العادة، ولكني لم استطع ان اقاوم رغبتي باستراق نظرة سريعة الى العينين اللتين ترسلان شعاعاً من

اللهب نحوي.

كان «زيور» في غرفة «نعمات» التي نتجمع فيها أكثر الاوقات، بدا قلقاً. سحب الكلبك الى الخلف بتوتر وهو يقول:

- لم يرجع «ختات» حتى الآن... الترتيبات كلها قائمة... والكل على اتم استعداد وفي الانتظار... لا نعرف ماذا نفعل...

التفت الى بنظرة سريعة قلقة وهو يعض اطراف شاربه الكث.

قالت «نعمات» وقد اعتكر وجهها الجميل:

- هذه حقاً ورطة... انه لم يتأخر ابداً عن العودة، حتى في الايام الماطرة يعود... قلبي ينغزني. اخشى ان يكون اصابه مكروه... الطريق طويلة وموحشة.

قال زيور بسرعة:

- سأذهب لأرى عمي.

وبعد لحظات سمعنا وقع حوافر الحصان يسير خبباً. احسست بقطعة من الثلج تستقر بين اضلاعي...

عاد زيور بعد ذهاب الرجال. قال بوجوم:

- لم يعد «ختات» حتى الآن... ولا احد يدري عنه شيئاً...

قال «باباج» بهدوئه المعهود، ولم يكن يدري ان الاتفاق كان الليلة بالذات، وكانت اسناني تصطك:

- ولم كل هذا الخوف؟... لا بد انه بات لامر ما في «وادي السير»... اذا لم يحضر حتى الصباح سنخرج غداً للبحث عنه... قد يصل متأخراً، او... الم يحدث ذلك من قبل؟...

قال زيور بوجوم:

- بلى... ولكن... كان لديه بعض الترتيبات ويتطلب ان يكون هنا...

تبادل « باباج » و« شوناف » نظرات سريعة، واختطفا نظرات قلقة متسائلة الى وجهي... كانت الدماء قد انسحبت كلها من جسمي، واستقرت متجمدة في اسفل قدمي. ادرك « باباج » الامر، ويبدو انه كان قد اتفق مع « شوناف » لترتيب الامور مع « نعمات » حتى يتخلص من احراج « مجلس الكبار » الواقع تحت ضغط « تيمور بك »، تمتم وهو يهز رأسه ويتناول حذاءه:

- هم... لا بد ان في الامر شيئاً إذَن...

وفي صمت لبس الرجال وتقلدوا « قاماتهم » وامتطوا صهوات خيولهم وهم يحملون لوكسات مضاءة، وكان بعض الرجال من اهله قد سبقوهم...

عادوا عند الفجر يسبقهم الصمت والوجوم، لقد قتل « ختات »، قتله بعض الاعراب واخذوا حصانه وسلاحه وما معه من نقود. كانت هناك بعض القلاقل وحوادث قتل متبادل بين بعض عشائر البدو وسكان وادي السير...

أيام مليئة بالحزن والفجيعة... لقد انهار كل شيء فجأة ودفعة واحدة... ما بال الحياة لا يستقيم لها عود... هل اصيبت بالكساح... هل تعاني من تفتت العظام... ام ان قدري انا الكسيح... ولكن كيف يمكن ان اعالج امور حياتي... انا في التاسعة عشرة من عمري ومع ذلك اعتقد انني عشت مدى قرن...

هجرتان، الاولى تركنا فيها كل شيء ولكن حاولنا ان نخرج كأسرة، ولكن تفتتنا وتساقط اغلب افراد الاسرة، كأسنان الحليب عندما تتساقط

من الفم بتتابع... واما الثانية والتي لم تقل ايلاماً عن الاولى، لم يبق من الاسرة الا «باباج» وانا.

اذكر «جان» الجميلة وليالي الشتاء الطويلة الباردة ونحن نجلس عند الموقد، ونار جهنمية تشتعل، نشوي الكستناء ونستمع الى حكايا «نانا» عن الاولين... اشم رائحة «الباخسمة» واسمع همهمات الكبار يترنمون بغناء مراثي الاجداد الملحمية... واذكر «قامبوت» ذا الوجه الثعلبي العجوز، وكيف اصبح زوجاً لجان الشقراء الجميلة اليافعة.

في الاحلام يعاودني صوت بكائها الكتوم وهي تضغط بوجهها في الوسادة، يملأ النشيج الجهات الاربع وارى الوسادة مبلولة مرنخة بالدموع التي تبدأ تتساقط من الوسادة، ... تتساقط تسيل، تطفح، حتى تملأ وجه الارض... فلا يبقى في الكون الا صوت النشيج تحمله الرياح كصوت ناي يطفح بالفجيعة وبحر الدموع يغطي كل اثر للحياة.

كل صباح كنت امد يدي خلسة الى الوسادة فأجدها مبتلة. كانت في الثالثة عشر من عمرها البائس، زهرة رفعت رأسها مع الفجر تريد ان تستقبل الصباح، ولكن الشمس تفحمت ولم تعد ترسل حتى خيطاً من الضوء...

وابتدأنا «باباج» وانا رحلة الضياع ثانية... وجئنا هنا...

عقد قِراني وانا في الحادية عشر من عمري على فتى أكبر مني قليلا، لترعاني امه... وكان ترملي المأساوي بعد ثلاث سنوات وكلانا لم يعرف بعد ما هو الزواج.

حسناً... لا بأس، ثم ماذا بعد ذلك؟... «ختات» بعينيه المضيئتين وجبينه النقي... اعتقدت انني سأجد الامان، ولكن ها هو ذا يعود

ملفوفاً «بالشاكوزه» وكأنه قطعة سجق كبيرة غارقة بالدماء...

قطعة نحاس صغيرة بحجم اصبع اليد ذات طرف مدبب التهمت كل احلامـي وآمـالي... احلامـي الصغيرة الحمقـاء المستحيلـة... ان اشعـر بالامان... انام ليلة واحدة منفلتة من حبل الزمن... فلا تمتد فيها تلك الاصابع المتجمدة تقبض قلبي فاحس انني اغطس في لجة عماء مائي يغرق كل شيء... فاستيقظ وديك ذبيح يتخبط في صدري، أحس بفجيعة غامضة تحوم حولي في الخفاء فانسحق.

ولكن يجب ان اقاوم هذا الالم الذي يسمر روحي في باطن قدمي... تجعلني اشعر انني انسحق منهرسة هناك ما بين باطن القدم والارض الممتلئة باحجار كبيرة حادة الاطراف كالخناجر.

ليلة امان واحدة لا توقظني فيه الكوابيس والفواجع وامشي كالمربوص واتكلم كالمسرنم.

ولكن سأواجه كل ذلك، يجب ان اقتلع الألم المتشرش في كل ذرة من كياني ونفسي وأحوله الى الم في جسدي، الالم الجسدي يطغى ويمسك بتلابيب الجسم لفترة زمنية ثم يتعافى الجسد او يموت... ولكن الجراح الخفية عندما تثخن الروح فان النفس تسقم وتهزل وتصبح الايام والعيش مغثياً.

في الحوش، وفي الطريق إلى رأس العين تنبت أكوام من الأشواك، تختلف أشكالها وتتنوع هيئاتها ولكنها كلها نبتات شوك... اتلفت حولي فإذا لم اشهد أحداً أنزع نعلي وارفع طرف ثوبي قليلاً واقفز على الشوك.. اسمعها تنسحق تحت قدمي، ولكنها تقاومني، تملأ قدمي بأشواكها الواخزة..

أجلس، واسفل قدمي يشتعلان بألم واخز، واسحب الأشواك الكبيرة كالاسياخ والصغيرة كمثاقب شعيرية، وبعدها انتعل حذائي، وامشي واتحدى الألم المشتعل في اسفل قدمي... وفي زحمة الألم الجسدي انسى قليلاً المناخس التي تثقب نفسي.

كنا ذات يوم في طريق العودة من رأس العين بعد أن ملأنا دلاءنا وأباريقنا بماء الشرب النقي، التقينا ذاك الغريب الذي اختلس ماستين من زرقة السماء واخفاهما في عينيه، ويتكلم لغتنا بطلاقة كأحد ابناء قومنا، ويقال أنه من بلاد بعيدة جداً يقال عن أهلها انكليز... انه « جورتي » للأسف، ترجل عن حصانه عندما مررنا ووقف بطرف الطريق الترابي الضيق، قابضاً عنان جواده... وارتسمت على شفتيه ظل ابتسامة مراوغة تتأرجح على ركني شفتيه وتنعكس في شفافية الماستان السماويتان، فأتلجلج في مشيتي كبطة خرجت لتوها من قشرة الفقس.. احسست انني محاصرة بنظراته فبدأت احمر كخوخة ناضجة.. استرقت نعمات اليّ نظرة متخابثة فازددتُ احمراراً حتى منابت شعري.

اختطفت نظرة سريعة إلى الفارس « الجورتي » الوسيم المنتصب عند طرف الطريق، فتلقفها ببحيرتيه الزرقاوين الصافيتين كسماء الظهيرة. انه في نحو الأربعين من العمر.. ولكن.. يا خالق السموات كم هو وسيم.. قال بصوت رقيق:

- سلام الله على حمامات الاديغة...

أجابت « نعمات » بلهجتها الخفيفة:

ـ أهلا بالفارس التائه الذي يبحث عن حمامة شاردة..
ـ اردف بعد لحظة صمت:
ـ هل لصياد متعب ان يقتنص غزاله من هذه الغابة يا غزالات الاديغة؟..
ردت «نعمات» ضاحكة وعيناها تغزلان قوس قزح:
ـ ولم لا ايها الطيب؟.. شرط ان تقلع درع الصليب هذا وترتدي عباءة محمدية.
أجاب بصوت رخيم وهو يمتطي صهوة حصانه:
ـ وربي انزع جلدي ان طلبت فراشة الاديغة ذلك..
ردت «نعمات» عابثة وهي تميل بوجهها جانباً:
ـ ومن تكون عالية المقام التي تستحق ان تسلخ جلدك يا طيب لأجلها...
قال بصوت مرتفع وهو يلتفت نحونا وحصانه ينطلق خببا:
ـ هي تعرف من تكون.. هي تعرف.. انها تستحق ذلك وحق الرب الكريم الذي سوى بيديه القدسيتين هذا الكمال الانثوي..
انهالت التعليقات الضاحكة بين النسوة، بينما قالت «نعمات» غامزة:
ـ غاب «تيمور بك» بجسمه القصير و«قامته» الطويلة، فخرج لنا فارس «جورتي» طويل القامة قصير السيف.
هزت رأسها بمودة وهي تعقب:
ـ هو وسيم جداً وحق الاله.. ولكن سيفه قصير يا «ناشخوة» يستطيع ان يبارز طواحين الهواء حتى عودة الـ «الفارس القصير» هو في مهمة عسكرية في الشام مع فرقة من احسن الفرسان في الجيش العثماني.. هل تعرفين ان ذلك «الوقح» نياز في الجيش العثماني وضمن فرقته

أيضاً.. يقال انه فارس المعارك لا يجف طرف سيفه إذا سحبه من غمده. اذا استطاع هذا الانكليزي الذي ينذرنا بحرب تقلب رأس اوضاعنا سافلها ان يتدبر امره، وقد انرت له الطريق ـ لأجل عينيك يا ناشخوه، لأنني أرى ظله الساحر يتكوم متواريا في ركن قصي من حنايا قلبك فيومض لهيب البرق في عينيك، وبمسح بأطراف وردة الشفق على خديك.. ارجو ان يكون ذكاؤه ـ وأرى أنه ليس ناقص الذكاء ـ بمقدار رغبته. عندها لن يخيب لك ظن.

تقلبت في فراشي لا استطيع النوم، في ركن من الغرفة كانت هناك عينان تبرقان في الظلام ولا تكفان عن التحديق في، حاولت أن اتلفع بالغطاء، ولكن البريق كان يخترق النسيج، ويتسلل تحت الغطاء، فأشعر بالفزع من تسلط واصرار تلكما العينين على انتهاك سلامي.

فكرت بكل ما قالته «نعمات»، ولكن يا لشدة خوفي.. من ذا الذي يلاحقني بكل هذا الاصرار. هل هو ذلك الغريب؟.. اخشى ان يكون «تيمور بك» أو «الوقح». احس أن احدهما سيمسك بمصيري كما يمسك بعنان فرسه.. وذلك الشعور يجعلني اغلي من الغيظ.

بعد ثلاثة أيام اندفعت «نعمات» ضاحكة حركة كعهدها، لا يستقر لها قرار، وكانت تحمل صغيرها الثالث على ذراعها وهو معلق بثديها يرضع بوداعة.

ـ ها.. هل عرفت آخر الأخبار؟.. أنه فارس حقاً، انجليزيك هذا.. ازرق العينين.. لقد طلب من المختار ان يتحدث مع «باباج» بشأنك،

وأعلن عن استعداده الكامل ان يعلن اسلامه امام مجلس الكبار.. « باباج » لم يرفض ولكنه قال يجب عرض الموضوع على « مجلس الكبار ». ولقد ذهب « تحادقي » - زعيمي - إلى الامام واستفتاه، فكان جوابه اذا اعلن اسلامه امام « مجلس الكبار » وبحضوري يكون ذلك مشروعاً تماماً..

وعقب:

- كسب روح ضالة إلى نور الحق يفتح لنا أبواب الجنة العصية.. والآن سوف يوضع القرار بين ايدي « مجلس الكبار » مع فتوى الامام.. يبدو ان الغيوم بدأت تنقشع وشعاع الشمس بدأ يتسرب من بين مزقه..

في اليوم الثاني خرجت « نعمات » مع اولادها صباحاً مع خروج « شو ناف » إلى دار أهلها، وعادت مساء مع عودة الرجال من صلاة العشاء.

كنت انظر في وجهها مربداً وعيناها غائمتان، تتحاشى النظر في وجهي.. بدت متوترة غاضبة تقاتل الذبابة ان مرت أمام وجهها.. هل هي غاضبة من « شو ناف » لسبب ما؟..

انهى الرجال عشاءهم ثم تعشى الأولاد وذهبوا إلى النوم. كان الماء في السماور يغلي ويتصاعد بخاره من اطراف الأبريق الصغير الرابض على اعلاه وقد تخمر الشاي.. الجبنة الشركسية على المائدة المستديرة واللقم[1] تطل برؤوسها المحمرة من الوعاء الفخاري الواسع، وعلى المائدة ايضاً صحن عسل وقطع الزبدة.

جلسنا حول المائدة بارجلها الثلاثية الدقيقة الطويلة كقوائم غزال رشيق.. صبت نعمات الشاي من الابريق الصغير، اسمر قانياً في قاع الكؤوس المختصرة بحوافيها المذهبة، ثم بدأت تحمل الكؤوس إلى صنبور

(١) اقراص من العجين المقلي.

السماور تفتحه فيتدفق الماء ساخناً محاطاً بالبخار، فيتضبب وجهها ويفصل ما بيننا حاجز ضبابي حائر فيهبط قلبي.. هل من انباء سيئة؟.. واحدة بعد اخرى.. ثم تسقط في كل كأس قطعة من السكر مكعبة وتحرك الشاي بنرفزة ثم تضع امام كل واحدة كأساً والصمت يخيّم على الغرفة.

بدأت تقضم «اللقم» بقرقشة مبالغة، ثم تحشو قطع الجبن في فمها.. رشفت الشاي ثم رفعت الكأس المذهبة أمام عينيها وابتسمت بسخرية وهي تدمدم:

- شاي رائق!.

ثم خبطت الكأس بقوة على طرف المائدة.. لمت اطراف ردائها بين فخذيها وتربعت بحركات مشدودة متوترة ثم استدارت لي بكامل وجهها، فاحت منها رائحة عرق نفاذة. قالت بغضب:

- لماذا تتابعينني بعينيك المتسائلتين كقطة جائعة؟.. لقد رفض طلب الانجليزي مع فتوى الامام.. قال مجمع الحكماء ذاك «يجب ان يختار الاسلام ايماناً في تعاليمه وليس رغبة في إمرأة»..

حاول الامام مناقشة «ابن حتوقه» كبير المجلس وجادله بأمثلة ثم قال:

- اننا نمسك بايدينا روحاً ضالة تحاول ان تخرج من الظلام وتهتدي بنور ديننا الحنيف..

نهره ابن حتوقة قائلا بغضب:

- انت تهتدي بنور كيس نقوده وليس بنور هدايته..

ودافع الامام عن نفسه قائلاً:

- اليوم يدخل الاسلام مهتدياً بحب ابنتنا المسلمة، وغداً يدخل الحظيرة الكبيرة مهتدياً بنور ايمانه اذا كانت ابنتنا راسخة الإيمان ثابتة

التعاليم.. ثم فكروا برؤوسكم قليلاً وليس بمؤخراتكم.. اذا تحققت الأمور التي يتحدث عنها، ولا يبدو أنه يتحدث من فراغ، سيكون ذلك مفيداً لنا في كل الأحوال.. لقد قاسينا المرارة والاذلال من أولياء امور المسلمين، اشتروا بناتنا بالنقود وجعلوهن محظيات وحريم في قصور الولاة والبشاوات والبكوات، وتمتمنا في عجزنا مدعين ونحن بلا حول ولا قوة:

- على سنة الله ورسوله...

فاستدار له ابن حاتوقة وقال بغضب:

- الا تدرك حقيقة الامر يا لحية التيس!. سيعود «تيموربك» من حلته بعد فترة... اين سنذهب بوجوهنا منه؟... اجب... لقد طلب منا ان ننهي الامر حسب العادات والاصول، هو «بشه» هناك قبل ان يكون هنا... منذ الجد الاول في عائلته... وهو ينعم على ابن «كوندوقه» بنسبه... بكمرزا كوندوقة ورق ابن ورق ومن نبلاء الشركس هذا صحيح... ولكنه ليس «بشه» وهذا حقيقة ايضاً... ونحن نتكلم عن «بشه» من بين ظهرانينا وليس عن قان تركي يملأ كفك بالمجيديات. هل عرفت عن ماذا نتكلم الآن يا رأس التيس.

وأخذ الامام عمامته التي هي عبارة عن كلبك شركسي لف على وسطه قطعة من الشاش الابيض، ووضعها على رأسه وخرج وهو يهسهس محنقاً:

- إذن لماذا سألتم عن فتوى وعن مدى اجازة الدين لامر كهذا؟...

- لو طرح بكمرزا الامر علينا مباشرة لأعفيناك من مشقة بحثك عن الفتوى يا امام...

- هذا هو الامر يا «ناشخوه» الحلوة الصغيرة... لا تحلمي بفارسك «الجورتي» بعد الآن!.

14

اغلقت عينيها وهي تغوص بين الوسائد، تقلصت عضلات وجهها بتوتر قاسٍ، همهمت بتعب:

- تامبوت، فدتك عيوني... فدتك روحي، قل لنا شيئاً ينعش القلب، بعضاً من ملاحم الاقدمين، صوتك يخترق القلب، ويستقر في الوجدان، ويوقظ الذاكرة... غن لنا تامبوت... بروح امك، غن لنا......

تحركت اصابع «تامبوت» على اوتار الآلة الخشبية وبدأ يغني والرجال يترنمون معه:

ايه، ايه ايها النشيد[١]
انت ثوب تزين سوسروقة كما يقولون.
في ذلك اليوم،
كانت الشمس محرقة
وكانت اذنا حصانه «تخوجي» متدليتين
وسوسروقة نفسه

(١) سوسروقة وتوترش. من كتاب ملاحم نارت الشركسية.

ذابلا فوق حصانه،
دالف الى الدار
لكنه لم يدخل الى البيت
انما وقف حزيناً
شديد الحزن
دون ان يتخطى عتبة البيت
ورغم ان مائدته مهيأة لم ينل شيئاً من الطعام
ورغم ان شرابه على المائدة
لم يذق شيئاً من الشراب
وعندما رأته السيدة ستناى
نزلت من فوق سريرها المرتب:
- سوسروقة يا ربيي
سوسروقة يا ضيائي
يا ذا الترس الذهبي.
يا من لا تفارق اللأة حضنه
والشمس تعلو هامته
وبقفزة يعلو ظهر حصانه
وسيفه لا يخطىء
ورمحه يحطم الجبال،
لقد احنوا رأسك
وجعلوا لونك شاحباً
وبثَّوا الهلع في قلبك
فماذا قرروا في الاجتماع الذي كنت فيه
وماذا رأيت في مجلس النارتيين

فتكلم سوسروقة وقال:

- يا امي ستناى
ستناى يا سيدة النارتيين
يا من حياتي مهدها
لا تسأل النساء عما يجري في الاجتماعات.
وليس من عادة الرجال ان يستشيروا النساء
ومن يفعل فليس رجلاً كاملاً.

- سوسروقة يا ربيبي
سوسروقة يا ضيائي
سوسروقة ايها الرجل الاسمر
لا تحسبني من النساء
فهم يقارنونني بفارس نارتي.
انا لم الد تسعة ابناء
لم تكونوا عشرة حين ودعتكم،
لماذا حزين انت هكذا؟
وما الذي نغص دربك؟
من الذي اساء اليك؟
اخبرني بما فعلت وما رأيت
وارو لي اخبار الطريق
وان لم تفعل
اقسم ب «واشخوه»
الذي لا يكذبه قومنا
انني لم اعد اريد هذه الحياة.

- ستناى يا امي

- ستناى يا سيدة النارتيين
ياسيدة مشرقة تلطم فخذيها.
لقد ربطت حصاني
فاسأليه وسوف يخبرك.
فتخرج ستناى
وتقترب من « تخوجي »
- يا حصاني العجوز « تخوجي »،
فلتأكلك الذئاب،
خرجتما وقد غمركما الفرح
فكيف تعودان شاحبين
هالني الفؤاد
« تخوجي » ايها الحصان الوحيد
قل لي ما الذي
اخاف وحيدي
هيا هيا يا « تخوجي »
قل لي ما هو الخطب الذي لم يستطع ولدي
ان يخبرني به.

- ليبقيك الرب في صحة دائمة تامبوت، ولكن.. قل لي انت مع هذه الجماعة، أم أنك مع أولئك؟ اعرف انك حضرت مع « باباج ».. باباج لا ينسى شيئاً البتة.. ولكن نسيت أن أسأله جئت معه من هناك ام انه اتى بك من هنا؟..

تبادل « تامبوت » النظر مع « باباج » وهو يبتسم ثم اشار برأسه صوبه.

صمتت وهي تقطب جبينها مفكرة، ثم تهللت اساريرها فجأة وهي تقول باندفاع:

- إذن «الشكه بشنه» من هناك!.. هل يتوفر عندكم كل شيء كما هو الحال عندنا!.. انت ترى هنا أشياء لم نكن حتى نحلم بها!..

قال وكأنه يداري طفلاً:

- كيف ترين الأمور؟

هزت رأسها بحيرة:

- لا أعرف.. هل ما اراه الآن حقيقة؟.. ولكن من هذا القادم الجديد!.. كم هو رشيق، يبدو أنه فارس!.. انه يشبه!!

تشنجت عضلات وجهها واستدارت بوجه دبور غاضب وهي تندفع بجذعها إلى الأمام:

- أهذا أنت؟.. ماذا تفعل هنا؟.. ألا يكفيك ما سببت لي من بؤس وشقاء..

رفعت اصبعها العصوي كالمخرز في وجهه:

- لن أذهب إلى مكان انت فيه.. إما أنا أو أنت.. وان اجتمعنا معا في السماء سأجعل سافلها عاليها، وأحولها إلى ساحة حرب.. سأحولها إلى بركان متفجر، أعدك بذلك..

قال بهدوء وهو يقف قبالتها بصدره العريض البارز وظل ابتسامه شحيحة تتخايل على ركني شفتيه:

- لا تهتاجي بحق الله.. رغبت في رؤيتك للحظة.. للحظة فقط.

ثم أردف بعد لحظة صمت وهو يركز عليها نظراته الوقحة بشيء من السخرية:

ـ هل كنت تفضلين ذاك القزم البشع إذَن!.

نترت نفسها إلى الخلف وهي تدمدم:

ـ كان قائدك الذي تستلهم شجاعته.. على الأقل كنت أعيش وأنا ارفل بالحرير واضجر من توافر الخيرات.. وكان ذاك الذي تقول عنه قزم «بشه» انه أمير.. أما انت ماذا تكون؟.. أحد الناس.. احد الرعاع.. جعلتني اجبل الطين واملط الحيطان وأقوّي سقف البيت بالمدحلة في كل شتاء لأتخلص من الدلف المتواصل.. كانت الاسطح تتحول إلى غربال، فلا اجد الاوعية الكافية لتلقي مياه الدلف.

فجأة صمتت واستدارت نحوه بعينين جليديتين وقد احتقن وجهها:

ـ والآن.. ما تريد؟.. هل جئت معك بزمرتك اللعينة لتختطفوني إلى هناك أيضاً!.. كما فعلت ذلك قبل.. آه اعتقد أنني نسيت متى كان ذلك الوقت تماماً..

ـ ولكنك لم تنسي حقدك.. الن تغفري لي؟..

رشقته بحمم تتدافع من الجحيم:

ـ سأحمله معي إلى القبر، وقد يتحول هناك إلى بركان تنطلق حممه حتى السماء، انتظر وسوف ترى ذلك بنفسك. لن أنسى ما حدث.. قد يختلط الزمن عليّ، وانسى الوقت، ولكن تلك اللحظات، عندما اقتحمت وزمرتك السافلة البيت بعد ان خلعتم الباب. كان يوم جمعة، الوقت ظهراً.. بعدما خرج الرجال إلى صلاة الظهر، عندا رأيت وجهك ادركت مبتغاك.. كنا نحن النساء في الحوش اشعلنا ناراً لتحضير الطعام، كان الوقت صيفاً، اندفعتم على ظهور خيلكم إلى الحوش، تصدت لكم نعمات وهي تصرخ بغير جدوى:

ـ كيف تجرؤون على الدخول هكذا.. أليست امهاتكم من الاديغة؟..

أجبتها بوقاحتك المعهودة:

ـ ولان امهاتنا من الاديغية ندخل هكذا.. بينكم انثى تشمخ بأنفها تعالياً لترتفع به فوق عرش الاله..

غرغرت ففي صدرها ضحكة صاجة صاخبة لم تتجاوز حلقها وهسهست بمراحة:

ـ ألن تنسى ذلك أبداًعندما تبعتنا إلى راس العين وطلبت منى ماء؟..

قاطعها بشيء من السخرية وهو ينظر ممعنا في عينيها:

ـ اخفض رأسك أيها الشاب.. لا تنظر إلى ما هو أعلى من رأسك.. فقد تسقط عن حصانك وتكسر عنقك.

قالت بشماته وهي تختطف طرف خيط الذكريات:

ـ احتقن وجهك الصخري، سطت فرسك بجنون مما جعلها تقفز بيننا دون أن تعي أين تتجه..

وأمسك بأصبعه حبل الذكريات وجذبه نحوه بهدوء قائلاً:

ـ هاه.. ذاك صحيح وحق الاله.. لقد اتقدت النار في احشائي ولكن سرعان ما تمالكتُ نفسي وانذرتك قبل أن ابتعد:

ـ سترينني مرة أخرى.. ولكن سنرى من ذا الذي يخفض رأسه ذلك الحين..

تعلقت نظراتها في نقطة من الفراغ الأبدي وهي تسترخي بهدوء بين الوسائد:

ـ كانت عجلة المراسم على أهبة الانطلاق لاتمام زفافي على «تيمور بك»، وفجأة اقتحمت زماني معتلياً فرسك الهائجة انت وزمرتك..

ـ ولكن.. لم كنت تحومين كزوبعة منفلتة بين الغرف والحوائج، علام

كنت تبحثين... كان وجهك وجه فارس بندفع إلى قلب معركة..

قالت برطانة ثقيلة:

- بحثت عن «قامة» أحد الرجال أو أي سلاح من أسلحتهم، خنجر، طبنجة، بندقية اردت أي سلاح قاتل..

قهقه ضاحكاً:

- ادركت ذلك.. لم استطع الامساك بك وحدى.. وتحولت المستوطنة إلى عش دبابير هائج مع بقية النساء.. اضطررنا إلى قدفهن إلى احدى الغرف واغلاق بابها بالمزلاج.. ثم تصدينا لك.. يا للكِ من نمره متوحشة، لقد عضضت ذراعي حتى كدت أن تقتطعي قطعة من لحمي - يقال ان أحد المرابين أراد أن يفعل ذلك مع أحد مدينيه عندما لم يستطع استيفاء دينه - وغرست مخالبك في وجه محمود وضربت شريف بين فخذيه.. كدت أن تخصيه..

قالت وعيناها قد تحوّلتا إلى زرقة داكنة وهما تتشبثان بغيمة بعيدة:

- يا لكم من فرسان.. لقد غزوتم قلعتنا الغافية بين انامل النساء وكنتم خمسة فرسان على ظهور خيلكم.

- لقد استطعت ان احلك على ظهر حصاني بعد معركة ضارية..

قالت بهدوء:

- انا ابنة بكمرزا كوندوقة..

قال باحترام وهو يتراجع للخلف:

- ولقد استحققتِ ذلك.. ولكن ألا يمكن أن تأتي معى؟..

قالت بصرامة:

- اذهب.. وليكن الله في عونك.

بعد أن تم أختطافي قسراً[1]، بقيت مدة شهر في ضيافة المختار في عمان وأنا ارفض الموافقة على عقد قراني.. لم يستطع «باباج» أن يفعل شيئاً. كان وحيداً.. وقف الاخوة الثلاثة معه واستعدوا للاغارة معه لاستعادتي بالقوة، ومعنى ذلك الخوض في معركة غير متكافئة..

أربعة أسابيع مليئة بالترقب والتأهب، وكان الفرسان يحيطون ببيت المختار ليل نهار وهم في تمام الاهبة للقتال.. وأخيراً رضخ «باباج» للأمر.. لم يرد ان يعرض الاخوة للمخاطر..

وجاءت «نعمات» ذات صباح صيف اغبر هاج فيه الحر والذباب وأخبرتني بقرار «باباج» الموافقة على عقد القران. قالت بحزن:

لا جدوى من المكابرة «ناشخوة». إنه على الأقل شاب وسيم.. بل وسيم جداً. أي فتاة في حينا تتمنى أن تكون مكانك.. انه ليس ثري «كتيمور بك» ولكن من منا يملك شيئاً؟.. يقول «باباج» لا جدوى من المكابرة.. لا الألقاب ولا الأنساب تعني شيئاً في الغربة.. اننا أشجار تتدلى جذورها عارية لليباس، بعد ان اقتلعنا من تراب وطننا.. ولم تعد حياتنا بذات جدوى لأحد.. حتى لانفسنا.. كل شيء اصبح سيان.. لا ثوابت ولا أمان في معيشتنا..

---

(١) الخطيفة عند الشركس نوعان. الاولى وهي التقليدية تتم باتفاق وترتيب بين الشاب والفتاة وبمعرفة الاهل لإختصار الاجراءات والتكاليف. او باتفاق الفتاة والشاب المتحابين وتلاقي معارضة من اهل احد الطرفين فتتم الخطيفة باتفاق الفتاة والشاب وحدهما وبقرارهما. اما النوع الثاني فيتم قسراً وغالباً ما يكون لرد اهانة تلقاها الشاب من الفتاة. وفي هذه الحالة يخوض شباب عائلة الفتاة معارك مع جماعة المختطف لاستعادة الفتاة.

أضطررت للاذعان، كنت احترق غيظاً بجلدي، ولكن لم يعد في يدي شيئاً.. عندما نقلوني إلى بيته أحسستُ انني لا اختلف عن شاة مسكينة، تدفع إلى مصيرها شاءت ام أبت فهي لا تلمك حق نفسها، ولعنت حياة الانثى.

ان اردت الاعتراف بالحقيقة، فهو لم يكن سيئاً.. استفزني دوماً بنظراته الوقحة المتحدية، وثقته المطلقة في رجولته، ربما كنت احس بالدون لانوثتي.. ولكن عدا عن هذا المظهر الجاف القاسي، فإنه من الداخل كان انساناً رقيقاً عطوفاً، ولم يكن يتواني عن مساعدتي حتى في أعمال البيت عندما لا تكون فرقته التي قلما تتواجد هنا ـ خارج البلد..

شرخني دائماً بازدواجيته.. في الحقيقة كنت اتعالى عليه ويخشوشن سلوكي معه عندما يصبح لين الجانب.

في احدى ليالي الشتاء القارسة، كان المطر ينهمر بغزارة، والريح تزأر بوحشية، مثيرة بالنفس كوامن الخوف في انفلات الطبيعة من عقالها، والسيل يهدر في السفح وقد فاض وغمر الطريق الذي في وسط الوادي وبدأ يدخل البيوت الأكثر انخفاضاً، وكان يعوي كذئب جائع.. تشبع الجو بالبرودة والرطوبة، فلا يجرؤ المرء أن يخرج يده أو قدمه من تحت الغطاء..

ثمة مواء بائس لقطة صغيرة كان يخرق الليل.. تململ في فراشه لفترة، ثم لم يلبث أن دفع الغطاء عنه وإلتفَّ ببرنس الفرسان الصوفي «الشاكوه»، وخرج مندفعاً. ظننت أنه خرج إلى «بيت الماء». لم أكترث لخروجه وغفوت، ولكني استيقظت على صوته يهمس هامساً رقيقاً يتكلم بحنو:

ـ ها!.. انك ترتجفين، يا لك من مسكينة صغيرة.. أنت بردانه

وجائعة أليس كذلك؟.. أهدأي يا مسكينتي الصغيرة.. سنرى ما يمكن أن أفعل لأجلك.. لنشعل النار في الموقدة أولاً. واستمعت إلى أنفاسه وهي تخرج نافخة، كان كفحيح أفعى عظيمة.. بعد لحظات سمعت صوت طقطقة الحطب المشتعل، وبدأ يشيع في الجو دفئاً مخدراً..

واستمر في همسه الحاني:

ـ آهاه.. ها أنت قد بدأت تتمطين في الدفء.. انتظري هنا يا صغيرتي.. لنر ما نجد لتطعمي..

كان يتحرك بهدوء، وبأقل صوت، تسلل إلى الزاوية التي بها رفوف أدوات الطعام، بعد قليل عاد إلى مكانه وهمس برقة:

ـ وجدنا بعض الحليب.. اعتقد أنك ترغبين في ذلك.. أهه.. أنك سريعة في لعق الحليب يا حلوتي.

لم أعد اسمع مواء القطة البائس...

ـ ها.. أرى أنكِ شبعت.. لقد جف شعرك الجميل يا صغيرتي، والآن التفي بهذا الشال الصوفي، نامي باطمئنان.. لقد وجدت بيتاً..

وارتفع صوت خرير راض..

وقفت عند رأسه اراقبه منهمكاً باعداد منامة دافئة مريحة للقطة، قطة صغيره هزيلة وكان يلفلفها بشالي الصوفي.

اندفعت بهياج ادفع يده واختطف الشال الصوفي وأنا أقذف بالقطة بعيداً واصرخ:

ـ ابعد اقذارك هذه عن اشيائي.. يا لك من أحمق، اتخرج في هذا الزمهرير لتلتقط قطيطة جرباء.. لن أنام في الغرفة اذا بقيت هذه القذارة هنا. اندفعت خلف الهرة المذعورة الهاربة أريد التقاطها ورميها خارجاً.. ولكن كلّابة حديدية اطبقت على ساعدي وفح من بين اسنانه وكأنه

افعوان غاضب:

- اياك ان تلمسيها.. سأرميك تحت المطر اذا تعرضت لها..

بدا وجهه المربد شيطانياً وعيناه تقدحان الشرر. خلصت يدي من كلاليبه واندفعت إلى فراشي وأنا اصرخ به:

- ابتعد أنت وقاذوراتك عن أشيائي، ان شئت دفنها بأكفانك..

قال بصوت هادىء تنشرخ حوافه بغيظ بركاني:

- على رسلك..

ولفها بطرف برنسه الصوفي..

ظهر «ختات» فجأة أمامي، كان ملفوفاً ببرنسه الصوفي منقوعاً بالدماء، ينظر إلي بوجهه الهادىء وعينيه الوديعتين تنظران إليّ بنظرات رقيقة حزينة وقال بنبراته العميقة وهو يربت على يدي:

- ويحك ناشخوه.. من حق كل ذي روح أن يعيش.. كانت حياتك قاسية طافحة بالفجيعة، فلا تقسي على نفسك وعلى الآخرين.. ابتعد نحو الحائط متراجعاً بهدوء وتوهجت عيناه كقنديلين في العتمة، وابتعدتا ببطء لتغيبا في ضباب من الظلام.

15

كانوا اربعة أخوة ذكور، عاشوا فترة مع الاب والأم في تركيا، ثم لم يستطع الأبوان تحمل حياة الفقر والتشرد فقررا العودة مع مجموعة من الاتجاز إلى الوطن.. ولكن المجموعة لم تصل أبداً إلى حدود البلاد. لقد فتك بهم الجوع والكوليرا، ومن بقي حياً قتل برصاص الجنود الأتراك عند الحدود. بقي الابناء في تركيا فترة اخرى من الزمن ثم أتوا إلى الأردن.

الأخ الكبير نياز، ويليه عليم وهو شاب هادىء حلو الكلام، يعمل بالمتاجرة. يذهب إلى فلسطين على حصانه ويحمل بضائعه على بغل، ويعود من هناك ببضائع أخرى. هو جعبة من الاحاديث والحكايا والسير القديمة، وقصص ما يصادفه في حله وترحاله، كان وجوده يضفي جواً عبقاً طرياً بالأخيلة المتموجة والصور الغرائبية المنسوجة من الاحلام والتخيلات والوقائع.. واطلقت عليه اسم «شو مافه» ـ الفارس المبارك ـ

ويليه «باتر» التحق بعد نزوحهم إلى هنا بالجيش العثماني، وقد نقل هو ووحدته إلى بلاد الشام ولبنان وعاش هناك حوالي ثلاث سنوات. تزوج من متوالية على أساس «زواج المتعة» الذي تبيحه «تعاليم الطائفة

الشيعية» حيث لا يترتب على الرجل التزامات الزواج العادي وينتهي عادة دون تبعات وبانتقال «افراد القوة» إلى بلد آخر. ولكن المتوالية وتدعى «عائشة» حملت منه وولدت ولداً ذكراً فالتصقت به.. وعادت معه إلى عمان، فسكنت غرفةً في نفس البيت. واطلقت على «باتر» - كما هي العادة عندنا - اسم «شو دشه» - الفارس الذهبي. أما الرابع وهو الاصغر ويدعى «أصلان» سميته «ابه دشه» - الاصابع الذهبية - كان ماهراً في كل عمل يمسكه. وسموني انا «نسة دانا» - العروس الحريرية -.

كان «أصلان» اقربهم إلي.. عيناه عينا ثعلب خبيث، ابتسامته ماكرة متوارية.. متوسط الطول، صغير البنية بشكل عام خفيفها، يمشي كهر حذر ويتحرك كالظل.. وهو فارس رائع رفض دخول الجيش العثماني، أو الالتحاق بالقوات الخاصة، ورفض الانضمام إلى اخيه عليم وكان يقول بنبرتهِ اللينة الساخرة:

- كما الزمني الخالق بوجود لم أسأله اياه، الزمه بحاجات معيشتي.

فأسأله ضاحكة وانا أقف عند الابريق وطشت الماء أحمل المنشفة في انتظار ان ينهي طعامه. تعودنا ان نتبادل الحديث فلم يتقيد بالعادات الصارمة بل كان لا يأبه لها كثيراً في تعامله معي:

- وكيف تستطيع أن تلزم الله بمتطلبات معيشتك.. هل يضع لك «مجيدية» تحت فرشتك كل صباح؟..

فيجيبني ضاحكاً:

- آه.. يا عروس حريرية - الأمور لا تنتهي بهذه البساطة، نحن لا نستطيع ان نرغم حيواناً أن يأكل لقيمة على شبع، فكيف بنا نرغم الرب على دفع «خوة»؟.. ولكنني استطيع أن افرض هذه «الخوة» على اصفيائه المدللين الذين يملؤهم بالذهب والفضة وترف المعيشة.

- وكيف تحصلها؟..

- أنا لا اطلب شيئاً ولا أسأل أحداً.. بل آخذ ما أشاء..

- ولكنها طريق وعرة مليئة بالمصاعب والمتاعب.

- ومتى كان الانسان آمناً!.. في اللحظة التي نولد فيها وننزل في قائمة الأحياء يصدر في حقنا حكم الموت.. والموت حق على كل حي.. قد يأتي الجلاد حاملاً «بذلة الموت الحمراء» في يسراه أي لحظة، بينما يحمل منجل الحصاد القاطع في يمينه. هل يستطيع أحد أن يضمن لنفسه خلود اللحظة؟..

آه.. كان البيت مقاماً في خاصرة الجبل، جبل اجرد اصفر أغبر، يتوحد مع الحجارة والصخور، ويطل بعين حذرة إلى السفح حيث الطريق الترابي المعرض إلى اندفاع مياه «سيل وادي السير» في الشتاء، يشق طريقه بين صفين من البيوت الطينية الصغيرة المتقاربة، وتنوص أضواء القناديل التي تطل من النوافذ تحت ثقل اسجاف الظلام في الليل.

من النوافذ الأمامية كنت استطيع أن ارى الجامع، محاطاً بسور عال.. كان الجامع عبارة عن قاعة فسيحة للصلاة مترامية الأطراف، تنتشر ظلال من العتمة في ارجائه، لعدم وجود فتحات انارة.. مقابل قاعة الصلاة. وعلى يسار المدخل تحت السور الشرقي موضئة، قلة كبيرة مملوءة بالماء ووعاء قصديري لغرف الماء من القلة، وعلى جانب منه سلم خشبي يتصل بالسطح وفوق السطح واقية خشبية رباعية الشكل بميلان في الاطراف، وفي منتصف الواقية المرتفعة يتعالى الهلال.. للدلالة على كون المبنى مسجداً. وعلى الحائط الجنوبي هنالك المغتسل المصنوع بدون عناية من خشب رديء، والتابوت الذي يرفع عليه الأموات عتيقاً كابياً يرتكز فوق المغتسل. يقع المدخل على زقاق يبعد بضعة أمتار عن الطريق الترابي

الذي يشق الوادي. يصعد الزقاق الى اعلى ويصل قريباً من بيتنا، وهو يمر من بين بعض البيوت الصغيرة، محاطة بجنائن صغيرة حول البيوت... ويستمر الزقاق ممتداً نحو الغرب متسلقاً خاصرة الجبل ليصل قريباً من بيتنا. امام البيت شجرة توت كبيرة وارفة الظلال، ودالية ممتدة على معرش خشبي فوق سور خشبي واطيء وبوابة خشبية صغيرة مدهونة بدهان ازرق. ساحة كبيرة وفي الاعلى غرفة كبيرة بنافذتين تطلان عليها وبجانبها شبه غرفة مسقوفة ولكنها عبارة عن موزع بين الغرفة الاولى والثانية تتصل بها، وفي الواجهة ثلاث درجات كبيرة محفورة في الاصل من الصخور يبدو انها بقايا من بناء قديم جداً. الصخور منقوشة كتلك القبور القديمة نقش ناعم، وفي اعلى الدرجات بوابة واطئة تفتح على بستان كبير يرتفع قسم منها بمحاذاة السطح ثم يمتد باقي البستان بارتفاع متر تقريباً. وفي القطعة السفلى زرع اشجار رمان ودوالي العنب، وفي البستان الكبير الكثير من الدوالي واشجار التين والتفاح والمشمش والتوت الابيض والاسمر.

تمتد الساحة شرقاً بين غرفة الضيافة والمطبخ بمساحة غرفة وهي مسقوفة. ولغرفة الضيافة ثلاث نوافذ، اثنتان تطلان على سفح الجبل، وواحدة تطل على الساحة على حوض ازهار مستطيل. الباب من الامام في الحائط باتجاه الفسحة المسقوفة. للمطبخ في الحائط الامامي المقام على الفسحة المسقوفة وبمواجهة غرفة الضيافة باب تدخله بارتفاع درجتين ثم نافذة... في الحائط الغربي نافذة اصغر من الاولى، مرتفعة عن الارض بمتر ونصف تقريباً، تشرف على بستان كبير بجانب بستاننا. في الطرف الجنوبي من الساحة مرحاض. الساحة بمساحة ستة امتار من غرفة الضيافة يحميها سور من الحجارة والطين مملوط بعناية من الداخل، وفيها شجرة

توت كبيرة تمتد اذرعها المبتهلة متعالية عن السقف في الفضاء.

الجدران مملوطة بشكل جيد بالطين المجبول بالتبن، ثم طُليَ جيداً بالكلس الذي يحتاج الى اعادة طراشة كل سنة مع انقضاء الشتاء. البيت مريح، تدخله الشمس من الصباح حتى المساء، ولكن حيطان الغرف المبنية تحت البستان كانت تترطب في الشتاء. وكانَ البيت عرضة لهجمات الزواحف من افاع وعقارب في الصيف وللضباع والذئاب في كل وقت.

في احدى الليالي استيقظت مذعورة... احسست بوجود عيون تلتمع في مكان ما في الغرفة. اترك عادة ضوء القنديل المشتعل نائصاً في الليل. اريد ما يكفي من الاضاءة ما اتميز به على الاقل حدود جسدي في الفراش اذا ما استيقظت... اضع القنديل بجانبي بعد ان انيص شعلته حتى الحافة الاخيرة للفتيل حتى يستنفد اقل ما يمكن من الكيروسين النادر. ظلال الضوء حولي، اما على الجدران فان العتمة تتكاثف كلما ارتفعت الى السقف.

بدأت ابحث بنظرات تدفع الخوف لالتقط العيون التي تحدق بي، واعرف ماهيتها. يرعبني ويفجرني غيظاً ان اشعر انني مستباحة لمراقبة مجهولة لا ادرك كنهها. نظرت في الزوايا، على الجدران من اسفل الى اعلى، لا شيء، انها خالية من أي شيء يبعث على التوجس في ليلة صيف حارة. الباب والنوافذ كلها مشرعة لنسمة هواء قد ترطب الليل فجأة. بدأت نظراتي تتنقل بين اعمدة الخشب التي تدعم القُصَّيب. عند طرف احدى العوارض اشتعلت شرارتان... بدأتا تتحركان، ثم أخذتا تسيلان

على اعلى الحائط. وخزات جليدية تملأ مساماتي. مددت يدي ارفع فتيل القنديل، افعى هائلة قائمة تزحف على الحائط. رأسها بحجم قبضة اليد. لم استطع ان افعل شيئاً، كنت افكر بهلع، وبسرعة البرق، اين يضع نياز عصاه؟... سمعت لاحتكاك جسدها على الارض حفيفاً قوياً... يبدو ان حراشفها قد صدئت مع الزمن... يقال ان من قاربت الالف ينبت لها قرون فيبدو رأسها كرأس معزاة، وتبتلع خروفاً...

كانت تتجه الى الباب بينما ذيلها ما زال ينزلق عند طرف الحائط.

تلك عصا نياز معلقة على الحائط المقابل، بقفزة كنت التقط العصا، واندفع خلف الافعى وانا ارفع عصاه وبفحيح كنت اشتم:

ـ وليدة الزنا... لنرى الى اين ذاهبة...

واندفعت خلف الافعى بعد ان اختطفت القنديل وعندما احست بالحركة خلفها، رفعت رأسها وتوقفت تهتز بغضب... رفعت العصا... ولكن قبضة حديدية امسكت بساعدي، تمتم نياز من بين اسنانه:

ـ حمقاء... ما بظنك تفعلين بالعصا مع آفة كهذه... ثم انها ضيفتنا... منذ اقمنا اول سقف وهي تقيم بيننا، لم يتعرض لها احد، ولم تتعرض بالتالي هي لأحد...

تمتم برفق موجهاً كلامه لها:

ـ اذهبي... اذهبي برعاية الله... انت في حمانا عندما تكونين في كنفنا... هذه جديدة، ولم تعرفك بعد... فلا تزعلي... إمضي في طريقك، وعودي الى بيتك حينما تشائين. لن يصيبك مكروه...

وانزلقت نحو السور وهي تخشخش بحراشفها القاسية، هائلة مهيبة مرعبة... ووقفت مذهولة وقد تداركت رعونة ما كنت سأقدم عليه...

قهقه ضاحكاً وهو يتناول القنديل والعصا ويمشي امامي:
- يا لي من احق... لماذا لم اتركك لها... كانت ستخلصني منك على الاقل...
ثم اردف بسخريته المعهودة:

افعى بهذا الحجم تلحقيها بعصا، وعلى ضوء قنديل... ثم انها ضيفة في حمانا... يقال اذا احتمت افعى في سقف رفع جديداً وجبت حمايتها ويمنع مقارفتها بأي اذى... والا احاطت البلايا اهل من يعيشون تحت ذلك السقف من كل جانب... هي لا تؤذي ابداً بل تعتبر نفسها من سكان الدار... فان غدر بها احد السكان وبقيت حية تغدر بالساكنين... وان قتلت فان الشرور تحيق بأهل الدار...

لم استطع النوم. سمعت الكثير من القصص عن الافاعي التي تعيش في البيوت، تدخل وتخرج دون حرج او خوف من احد الطرفين، وقد تعشق احد افراد الاسرة فتتسلل في بعض الليالي الى جانب فراشه ترقد قرب وسادته او على طرف الفرشة تحت غطاءه. هي روح خيرة تحمي البيت وسكانه من الارواح الشريرة.

مع خيوط الفجر عادت تزحف الى وطنها بين العوارض. التفت اليَّ قبل ان تنسل بين العوارض. همست لها: آسفة لم اعرف انك ضيفة عندنا... اهلاً بعودتك الى بيتك...
برقت عيناها ثم اختفت بين العوارض.

هل هي افعى ام افعوان؟... انها تحوم حول فراشي... احس بها باردة على قدمي للحظة... مرة احسست بأنفاس حارة على وجهي، وبين صحو وغفوة خيل الي ان رأسها على الوسادة قرب رأسي. كان لها قرنان

صغيران وكانت عيناها تبرقان برضى.. تملكني الرعب، ولكن في اعماقي خفق حلم مسحور. هل يمكن لافعوان ان يعشق امرأة؟.

16

حسناً... كيف عاشت تلك المرحلة؟... كانت منفيّة في المنفى... مواجهة الخوف ومقارعة الخطر من المشاعر التي تستنفر في اعماق النفس اعنف كوامنها...

كثيراً ما كانت تقضي الليل وحدها، تذهب «عائشة وابنها الذي التصقت من خلاله بباتر» للمبيت عند متواليات من جنسها التقطن «ازواج المتعة» بطفل وجئن معهم الى هنا زوجات كاملات الحقوق. كان «باتر» يأتي في الاسبوع مرة، الخميس مساء ويبقى حتى عصر الجمعة... اما نياز فانه كان كثير التنقل والغياب مع فرقته التي كانت من اقوى الفرق في الجيش العثماني. كانوا السيف المشهر لاخماد الفتن وحركات التمرد في كل المناطق التي امتد اليها نفوذ الدولة العثمانية. اما علم فقد كان غيابه أكثر من حضوره، انه دائم السفر يتنقل بتجارته الصغيرة في كل مكان. أما «اصلان» فلقد كان منهمكا في مغامراته الجريئة يستنفر قوات الامن اينما حل.

إذن هكذا كانت تقضي أكثر الايام والليالي وحدها في ذلك البيت النائي، تجلس على ضوء اللمبة تطرز او تخيط ملابس لنفسها او لأحد

الرجال او للطفل الذي شعرت به يتحرك في احشائها. مشاعرها محايدة تجاه الجنين. احياناً تشعر بشيء من القرف للحيض والميلاد والنفاس ورائحة الدم تظل ملتصقة بجسد المرأة... تشعر احياناً انها منفصلة عن جسدها بل وقد تحتقره، ولكن عندما تكون في كامل ملابسها وقد عقدت ضفائرها الشقر على الجانبين، ويتهدلان على صدرها بخصلات ناعمة ملساء، تلتصق بها الاعين باعجاب. فمها وردة لما تتفتح بعد، عيناها بركتان زمرديتان، جبهتها فسيحة متعالية ناصعة، وتنكسر نظرات نياز بذلك الاحساس بالذنب الطافح بشهوة مضغوطة، فتشعر بالافتخار.

ذلك الافعوان الهائل يظل يـزحـف حـول فـراشهـا في العتمـة يحف حراشفه العتيقة الاسطورية الارض بحفيف مرعب، وتتوامض عيناه في الزوايا المعتمة وبين العوارض الخشبية في السقف بترقب، فيبدو كرصد خرافي يحمي كنزاً ضائعاً.

في الشتاء تنصت الى طقطقة الحطب المشتعل في الموقدة، والمطر يتساقط بضجيج خاو على ساتر الزينكو فترجع اصداؤه موحشة نائية متوحدة مع الظلام الدامس. واما في الصيف فتفتح الباب والنوافذ، وتقف في الحوش ترقب الظلام السرمدي ينتشر عاتياً يثقب الكون فتتدفق امواج العتمة تغرق الفضاء، وتسبح الحباحـب في العتمـة وهـي تشيـل قنـاديلهـا على مؤخراتها بترفق مشعشعة بصمت.

كان الليل قائظاً، وضعت عصا نياز بجانبها وتركت الباب مفتوحاً ونامت... بدأ الافعوان يزحف في الزوايا فاحاً، ولكن «مسره خان» كانت مستغرقة في النوم. زحف على قدميها العاريتين بجسمه البارد، ارتجفت قليلا ثم تقلبت، ولم تلبث ان استيقظت بشعور طافح بالخطر. على مقربة من فراشها رأت غربالاً قائماً كبيراً يجثم قبالتها وفي منتصفه

ارتفع عنق طويل متمايل بحجم رسغ اليد، وفي نهايته تطاول رأس بحجم قبضة اليد. تبرق العينان كشرارتين تتوهجان في سماء الجحيم الحالك ثم انبعث صفير رفيع متواصل...

جلست مرتعبة متربعة على الفرشة ويديها على ركبتيها بتحفز، ولكن عندما حدقت بالافعوان تنهدت بارتياح:

ـ ها... هذا انت؟... ارعبتني!. ولكن ما الذي يقلقك؟...

ارادت ان تستلقي، ولكن رأس الافعوان اخذ يتحرك مهتزا بتواصل وقد ازداد الصفير...

توقفت بذراعها المائلة وذراعها المستندة على الفرشة. شعرت بذعر مباغت... ماذا لو هاجمها الافعوان؟... ولكنه زحف نحو الباب وتوقف هناك ينظر اليها وعيناه تبرقان.

قالت بخوف وقلق:

ـ انك تخيفني؟... ما الامر؟... هل هناك خطر ما لا ادركه؟...

ارتفع نهيق الحمار «عزيز» بذعر. كان يتراكض في الحوش، وسمعت همهمات ودربكة ارجل ثقيلة كثيرة خلفه، وبلمح البصر ادركت الامر. لقد هجمت الضباع. وبقفزة واحدة كانت عند الباب... ابتعد الافعوان، فأغلقت الباب بسرعة البرق. هجم عزيز على الباب وهو ينهق صارخاً مولولاً. استندت على الباب بظهرها، وانتشر الصقيع بجمداً عبر جسدها كله. احست وكأن حوافر الحيوان المستغيث بفزع قاتل يخدش ظهرها، وارتفع نهيقه جارحاً مستجيراً يستصرخ النجدة والعون. تمتمت وعرق بارد ينبجس من مساماتها:

ـ يا افعوان الخير... شكراً لك.

كانت الضباع تنهش جسم «عزيز» المسكين...
بقي الباب مغلقاً...

وركض يدفعه الالم والخوف القاتل، وتطايرت حوله نجوم متلامعة واحاقت به، وصرخ... ونهق مستغيثاً وتراكض بغير وعي، ثم وعاد يضرب الباب بقائمتيه الاماميتين بيأس، وركض مستجيراً بالمساء. ولكن الشرارات المشتعلة احاطت به.. وكان يركض بدون وعي وبدون جدوى...

قالت بهمس بائس:
ـ يأكلونه اولاد الزنا وهو حي ينظر اليهم ولا يستطيع ان يفعل شيئاً... الا تستطيع ان تفعل لاجله شيئاً؟...

تكاد تموت من الخوف والاشفاق. ازواج العيون التي تحيط به لا تقل عن ستة! لا تستطيع ان تخرج اليهم... سوف يأكلونها مع «عزيز» المسكين وهي تركض مثله هاربة بدون جدوى من الموت الذي ينهشها...

ـ لا... لا استطيع ان افعل شيئاً... عزيز المسكين... لا استطيع ان افعل لك شيئاً... اعذرني... سامحني...

تحرك الافعوان، زحف باتجاه النافذة المفتوحة والمحمية بقضبان حديدية متعامدة ومتقاطعة، وكانت تقف هناك تراقب المعركة القاتلة. العيون المشتعلة تحيط ب «عزيز» الهارب على غير هدى...

بدأت معركة خفية مغلّفة بالظلام ممهورة بالسحر والخرافة لقوى الطبيعة في معركتها وصراعها للتسيد. همهات، شرارات متطايرة تبرق هنا وهناك كعيون اشباح خفية... فحيح مخيف، دربكات... ونهيق «عزيز» الموجع يقطع نياط القلوب...

همدت الدربكات، وسقطت المهمهات بين اشداق العتمة... سقط «عزيز» بالقرب من الباب... ولم يبق من المعركة الا انينه...

بقيت مسمرة عند النافذة، مضى بعض الوقت والسكون يتمزق بأنين «عزيز» البائس. زحف الافعوان من النافذة، وكان يلمس كتفها المائل على طرف النافذة بظهر جسمه المتماوج الزاحف الطويل، الطويل... بلا نهاية...

استيقظت من ذهولها، اهو كابوس في المنام، ام كابوس الحقيقة؟... خصلات شعرها الاشقر متهدل على كتفيها ويلامس اطرافه اردافها برفق. ملابسها خفيفة كاشفة عن ذراعيها وصدرها الابيض. اقدامها المرتعدة عارية، تمسك القنديل بيد وتفتح مغلاق الباب الحديدي وتدير المفتاح الكبير.

عزيز ممدد تحت العتمة، بطنه مفتوح، امعاؤه مندلقة على الارض... اكتافه منهوشة... ظهره منهوب، فخذاه مدميان، الدم يتدفق من كل جسده الممزق المدمى. عندما اقتربت منه بالضوء فتح عينيه المعذبتين وارتعشت دمعتان متلألتان في مقلتيه...

قالت بوجع:

- كيف اربت على جسمك المدمى الممزق يا صغيري، حتى ذلك سيسبب لك المزيد من الألم. لم يكن لي حيلة في الامر. كانوا قد احاطوا بك ونهشوك، فلم يعد في مقدور افعوان الخير انقاذ روحك، ولكنك تستطيع ان تموت بسلام.

ظلت عند رأسه تبلل له فمه وتغسل جسده الممزق بالماء، وعند الفجر انطفأت اشتعالات الوجع في عينيه...

حفرت له في البستان تحت ظلال شجرة التينة الوارفة قبراً ودفنته...

مشكلة يومية. عندما كانت اقامتها قرب سيل المهاجرين لم تواجه هناك مشكلة الماء. للاستعمالات البيتية كن ينقلن الماء من السيل الجاري قريباً من الدار، وللشرب ينقلنه من رأس العين التي لم تكن بعيدة بل وكانت ممتعة ايضاً... اما الآن فالمسكن بعيد عن سيل الماء، وهي تنقل ماء الشرب من بئر دار الحاج طارق. البيت في السفح مقابل الجامع ومنطقة سكنها في خاصرة الجبل، بل اقرب الى القمة، والصعود بأحمال الماء على الطريق الترابي وبين الصخور لم يكن سهلاً، بل شاقاً، ومع ذلك فان نقل الماء يتم ضمن طقوس نسوية مرحة. تتجمع النساء في وقت محدد كل صباح عندما يكون الحاج طارق خارجاً للرعي او اعمال البستنة، حتى لا يتعرضن للسانه السليط. ـ الحاج طارق رجل خسيني قصير القامة بشكل واضح عريض الجسد متينه... يبدو وكأن جسده مدكوك دكاً متيناً ومربوصاً. وجهه عريض بخدود اسيوية بارزة، طرف انفه بارز، محاجر عينيه غائرة، يبدو وجهه كوجه عقاب غاضب دوماً... على جبهته من الجانب الايمن درنه بحجم حبة جوز كبيرة، تبدو نافرة ملتمعة وكأنها قرن صغير ثبت على جانب من جبهته، يوحي بثور ذي قرن وحيد جانبي متأهب دائماً لينطح احداً ما. يرتدي السروال الشركسي الاسود والجاكيت القصير مشدوداً على الخصر، ويلف منتصف الكلبك بقماش ابيض ليصبح كالعمامة، دلالة انه حاج، وتتكيء حافة العمامة على طرف القرن الجانبي. يعود بعض الاحيان مبكراً ليفاجيء النسوة المجتمعات

حول بئر الماء يتبادلن الاحاديث الضاحكة والتعليقات المرحة التي كثيراً ما كانت تنال الحاج طارق بشخصه. وعندما يفاجىء النسوة بعودةٍ مباغتة يسقط عليهن صوته القوي الطافح غضباً وهو يصرخ قبل ان يظهر عابساً لهن:

ـ هيه، يا وليدات الزنا... تسرقن مائي... وتسرقن الوقت من أزواجكن، ماذا تفعلن هنا مجتمعات؟... مهملات كسولات، تقتلن الوقت بالزم والنم... ستعلقن من السنتكن يوم القيامة...

وتلتقط ابصارهن المذعورة المفاجأة بحضوره الغاضب. مرأى طرف عصاه تهتز متوعدة قبل ان يظهر جسده القصير المدكوك بين صخور الجبل للانظار... فتتفرقن مهرولات متراكضات كدجاجات مذعورة هنا وهناك، وتسرع «مسره خان» حاملة ابريق الماء على كتفها ودلواً في يدها لتتفادى الالتقاء بالحاج طارق الغاضب دوماً لسبب ما... ولكن خطواته السريعة الخفيفة برجليه القصيرتين الغليظتين كجذوع شجرة زعرور عتيقة تجعله يلتقيها على الطريق الترابي الضيق المتعرج، فيقف فاسحاً لها مجال المرور وهو يرفع عمامته بيده فتلقي عليه التحية بخجل خافضة بصرها، فتمر بجانبه حتى تبقى متواجهه معه، فيرد الرجل القاسي التحية برقة وهو يختلس النظر من تحت قرنه الصغير الجانبي:

ـ هاه... ابنة بكمرزا كندوقة الجميلة!. اهلا بك...

وعندما تمر تتنفس الصعداء ويسترخي كتفاها المشدودان بتوتر، وتدور البحيرتان الزمرديتان بين نتؤات الصخور ونبتات الاشواك المبعثرة بين الصخور تبحث هنا وهناك... وتلتقط نظراتها بعيداً في احد الامكنة الرأس الذي بحجم قبضة اليد يرتفع بين الصخور فتبرق العينان المستطيلتان، وتتحرك الشعبتان الحمراوان وينطلق صفير متقطع، فتبتسم

برفق وتتمتم:

ـ يا افعوان الخير... انت انيسي، وانت رفيقي... وانت حارسي في هذا المنفى القفر الخطر الذي يكمن الموت بكل الاشكال الممكنة خلف كل منعطف ووراء كل صخرة...

صوت مزمجر صافر سقط من السماء وانفجر بدوي هائل..

ـ عونك يا رب... سترك يا الله... هل هذا ما يقال عنه يوم القيامة؟... هل هي الساعة اقبلت؟... هناك شيء يهدر في السماء.. هل هي زمجرة الرب غاضباً على الآثمين في السماء؟... «ابه دشه» الى اين انت ذاهب؟... ليس هذا اوان الطيش! اعتقد ان هذه هي القيامة... سينفخ اسرافيل في الصور فينهض الاموات من قبورهم... انها القيامة، انه الحشر...

كانت «مسره خان» تدور في الغرفة وبطنها المكور يدور امامها...

انسل «اصلان» من الباب بخفه، خافضاً رأسه مرخياً كتفيه وهو يتمتم:

ـ لا تخشي شيئاً «نسه» ـ عروس ـ سأعود في الحال... هذه ليست قيامة الرب، بل انها قيامة الانجليز، اله العصر الجديد الذي لا ينازعهم في القوة احد، وطائراتهم هي التي تنفخ في الصور... قضي على الامبراطورية العثمانية... اتى عليهم الطوفان... طوفان الامبراطورية البريطانية...

زئير يزعق في السماء منقضاً على الارض، ثم دوي يصم الآذان يهز

البيت من اركانه الاربعة...

تمتمت «مسره خان» وهي تدور مذعورة في ارجاء الغرفة، وقد احاطت بطنها بيديها وهي تهسهس:

ـ عفوك يا رب... رحمتك يا الله... طائرة؟... وما هي الطائرة؟... هل هناك قدرة غير قدرة الخالق تستطيع ان تحوم في السماء... «ابه دشه» ايها الكافر اين انت... انك تتهجم على سلطة الله..

فتحت الباب بحذر ومدت رأسها، صوت إطلاق الرصاص يملأ الفضاء. خرجت مذعورة بجذعها من الباب، تلفتت ذات اليمين وذات الشمال... لا اثر ل «اصلان». تقدمت خطوة حذرة، ثم اثنتين، المدير يتواصل في السماء، ولكنه بعيد وكأنه طنين ذبابة كبيرة غاضبة، تُظَلِلُ عينيها بيمناها وهي تدور ببصرها في السماء. ذبابة فضية هائلة تحوم هناك في السماء وتطلق ذلك «الرنين»... براز ما ملتمع يخرج من جوفها، ينحدر صافراً نحو الارض... يد قوية تقبض على كتفها وتدفع بها نحو الارض، دوي هائل ينفجر ويتناثر وهج احمر يعمي البصر، ينتشر غبار وتفوح رائحة احتراق حضية... وعاد المدير يحوم... نهضت تنفض ملابسها. قال «اصلان» برفق:

ـ هيا الى الداخل... كان يمكن ان تتأذي لو لم اصل في الوقت المناسب، لماذا خرجت، شظايا البمبة تقتل من تطاله... لا مجال للعبث هنا... هيا... ولكن اين انزور؟. واين ممدوح؟.

قالت ببطء:

ـ لا تخشَ عليهما، لقد تكورا في احدى الزوايا وهما يعتقدان ان القيامة قد قامت...

قال بشيء من السخرية:

ـ سوف يموتان من الوهم والخوف وليس من القيامة... هيا نطمئنهما...

ـ ما دمت تعرف كل هذا لماذا خرجت إذَن؟... هل اردت انت ايضاً ان ترى الطائرة التي تكلمت عنها!. هذا شيء عجيب!. هذا من امور قدرة الخالق، فكيف اتوا بمثل هذه القدرة هؤلاء الانجليز؟...

ـ انه العلم.. نحن هنا نغفو على وسائد جهلنا المريحة، وهناك من يمسكون بناصية العلم فيكشفون عن السماء وأسرارها، ويرسمون لنا مصائرنا!.

ـ أعوذ بالله «شودشه» كفاك تجديفا...

ـ آه... هذا حق، «نسه»، تلك الاقوام الكبيرة التي تمتلك القوة والمعرفة هي التي ترسم مصائرنا... انظري... لقد انتزعونا من وطننا واراضينا وبلادنا، وقذفوا بنا في الشتات... انهم قدرنا... وقدر الشعوب الضعيفة الجاهلة...

ـ ولكن... لم تقل لي، لماذا خرجت وهناك قيامة قائمة... هل هذا البراز الذي تقذفه تلك الطائرة من جوفها وتقول عنه «بمبه» يلاحق التجمعات العثمانية؟.

قال بحزن وهو يشيح بنظره:

ـ آه... نعم... لقد قتل قائد القوة التي تختبيء في المغارة عندنا في البستان، والبساتين المجاورة. اراد ان يطلق الرصاص على الطائرة التي تلاحق المجموعة بقنابلها... فمزقت الشظايا صدره. مات على الفور. كان شاباً لم يتعد الخامسة والعشرين...

ـ لماذا الحروب تحصد ارواح الشباب في كل بقاع الارض؟... يتعثر المرء بالموت اينما اتجه في ارض الله الواسعة...

ـ الخسائر في الارواح بين القوات العثمانية لا تحصى، والجرحى لم يعد في الامكان تعدادهم ونقلهم... الفلول تهرب لتتجمع حول محطات السكة ليخرج من يستطيع من البلاد. يُقال انهم يدفنون صناديق الليرات الذهبية اينما توقفوا... ويطلبون كسرات من الخبز من السكان. يمدون ايديهم وهم يستجدون «ايكماك»... ايكماك... والانجليز يلاحقونهم بالموت والدمار والجوع...

ـ ماذا سيحدث لرجالنا الذين يحاربون الانجليز مع القوات العثمانية؟. ان امورنا صعبة ولا يعرف الا الله ماذا سيكون مصيرنا...

ـ وانا قلق جداً على الاخوين، وكذلك «عليم» لا اعرف اين هو الآن... والقتال دائر في كل مكان. هناك اقاويل كثيرة منها ما يثير القلق والبلبلة، ومنها ما يدعو الى الاطمئنان والهدوء. اعتقد انهم وجهوا طلباً للسكان الشركس ان لا يتعرضوا لاحد من القوات الانجليزية. سيقومون بحملة تفتيش بين السكان. انهم يلاحقون بعض الجيوب المقاومة المبعثرة هنا وهناك... وهي تقاتل بدافع اليأس وليس بدافع المقاومة. طلبوا من السكان الشركس ان يتجمعوا في البيوت حتى يتمكنوا من اتمام التفتيش. اكدوا انهم لن يتعرضوا للشركس. ويقال انهم اتصلوا «بالزعماء» ليبلغوا الملتحقين بالقوات العثمانية ان يتخلوا. سيصدر عفو بعد ان يستتب النظام، وقد يُطلبون للمشاركة في قوات جديدة...

الخروج من «سوسروقه»

زهرة عمر

تُعتبر (الخروج من «سوسروقة») إرهاصة الوعي الأدبي باللغة العربية، على الشتات المُغلَّف بالغموض للشعب الشركسي. لا بل يُمكن اعتبار هذا العمل، في حدود الإطلاع، الأوّل في كافة اللغات. لذلك، فبقدر ما تُمثّل هذه الرواية عملاً يحتكم الى جنسه الكتابي فانها تندرج، في ذات اللحظة، ضمن سياق التأريخ لسيرة شعب يكاد ينساها أبناؤه.

من هذه النقطة تحديداً انطلقت زهرة عمر. ومن هذه النقطة، كذلك، سوف نتابع مأساة الشتات الشركسي بدايةً من النصف الثاني للقرن الثامن عشر، حتى قيام الحرب العالمية الأولى. هي رحلة عذاب ومسيرة تكوّن جديد. رحلة تنطلق من الوطن الأوّل، مروراً بتركيا، وصولاً الى عمّان حيث تدفق الذكرى جامعةً فُتات الفائت، من خلال ذاكرة تستيقظ.

□

(- ... افتحي عينيك. أنظريني. هل أنت خائفة مني؟.. أنا بردان ونعسان وخائف من ظُلمة القبر. ابتعدي قليلاً لأنام بجانبك. أريد أن أحس بجسم دافيء قريباً مني. لا تدعي الوالد يعرفُ شيئاً. سيغضب إنْ عرف أنني شعرتُ بخوف.

- ولكن، لماذا جسمك هكذا محدوب؟.

- عندما أصابت الرصاصات صدري تمزق جسمي، وأحسستُ أن روحي بدأت تخرج من هذه الفتحات. انحنيتُ أحاول إغلاقها لأمنعَ إنسلال روحي بعيداً عني... لماذا تتوق الروح الى الانطلاق بعيداً عن الجسد؟!.

... كان جسده بارداً، بارداً. رياحٌ من أصقاعٍ جليدية انجمدت تحت جلده).

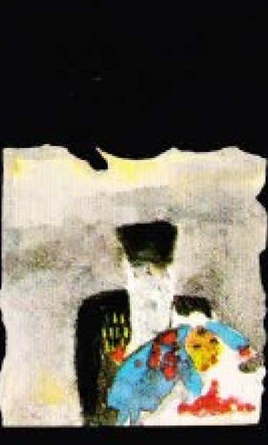

أزمنة

ص.ب ٩٥٠٢٥٢ • هاتف/فاكس ٥٢٢٠٤٤ ٦٨٧ • عمّان - الأردن